الفرقان في تفسير القرآن

بالقرآن والسنة

تأليف

محمد الصادقي

انتشارات فرهنگ اسلامی

الفرقان
في
تفسير القرآن
بالقرآن والسنّة

مرکز تحقیقات کامپیوتری علوم اسلامی

محمّد الصّادقي

منشورات
مؤسسة الأعلمي للمطبوعات
بيروت - لبنان
ص.ب ٧١٢٠

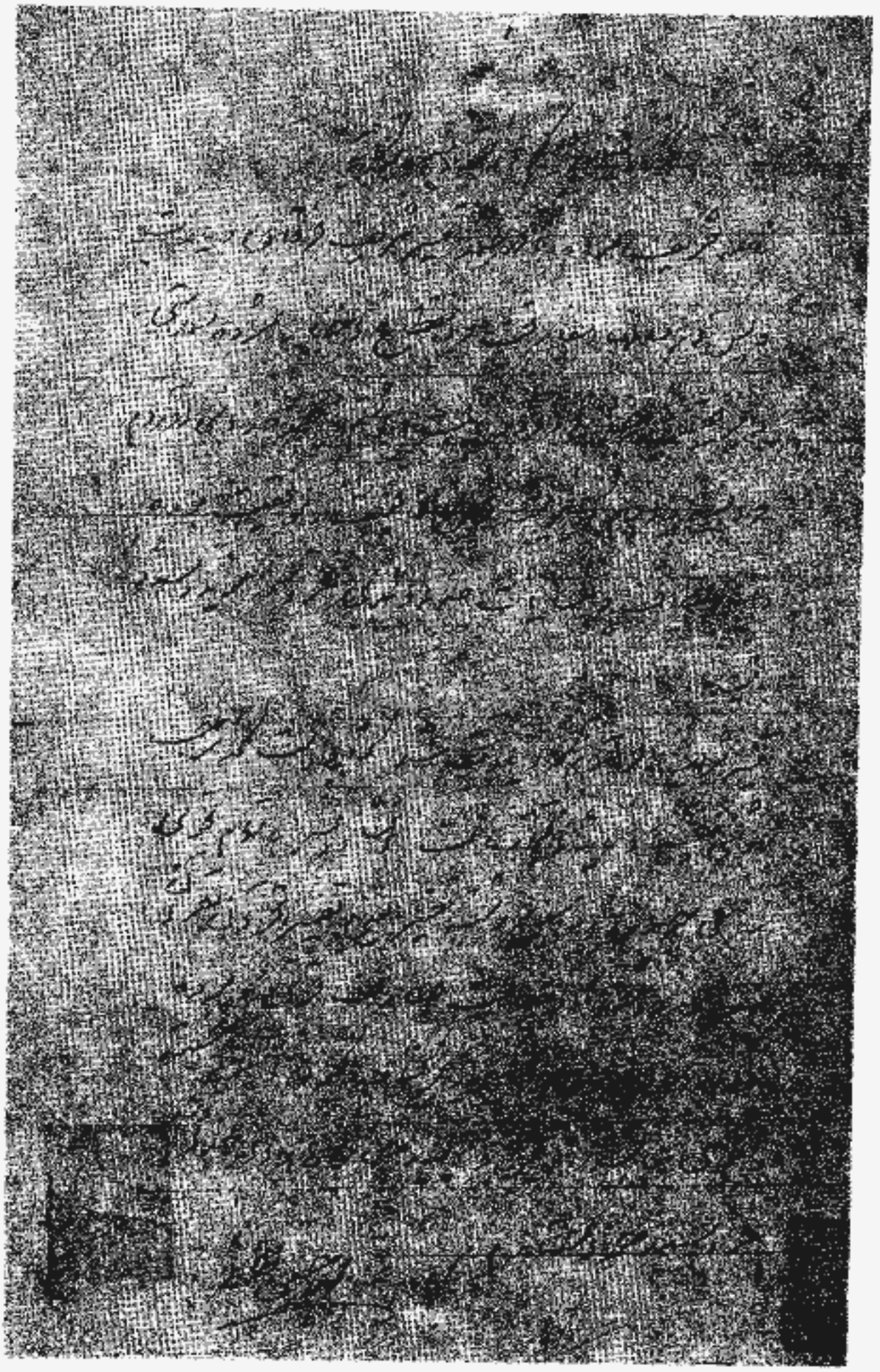

التفسير – أعني : تفسير القرآن بالقرآن – فلا تملّ ولا تكسل ولا تفشل في هذا المشروع العظيم ، خدمة للمعارف القرآنية ، وكشفاً للقناع عن ذخائر هـــذا الكتاب المكنون السماوي ، وأرجو من الله عز اسمه لكم التوفيق وأن يؤيد سماحتكم في هذه السبيل ، والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته .

محمد حسين الطباطبائي

مرکز تحقیقات کامپیوتری علوم اسلامی

(سورة الرحمن – مكية أو مدنية – وآياتها ثمان وسبعون)

بِسْمِ ٱللهِ ٱلرَّحْمٰنِ ٱلرَّحِيمِ . ٱلرَّحْمٰنُ – ١ . عَلَّمَ ٱلْقُرْآنَ – ٢ . خَلَقَ الْإِنْسَانَ – ٣ . عَلَّمَهُ ٱلْبَيَانَ – ٤ . ٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ بِحُسْبَانٍ – ٥ . وَٱلنَّجْمُ وَٱلشَّجَرُ يَسْجُدَانِ – ٦ . وَٱلسَّمَاءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ الْمِيزَانَ – ٧ . أَلَّا تَطْغَوْا فِي الْمِيزَانِ – ٨ . وَأَقِيمُوا الْوَزْنَ بِالْقِسْطِ وَلَا تُخْسِرُوا الْمِيزَانَ – ٩ . وَالْأَرْضَ وَضَعَهَا لِلْأَنَامِ – ١٠ . فِيهَا فَاكِهَةٌ وَٱلنَّخْلُ ذَاتُ الْأَكْمَامِ – ١١ . وَالْحَبُّ ذُو ٱلْعَصْفِ وَٱلرَّيْحَانُ – ١٢ . فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ – ١٣ . خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ صَلْصَالٍ كَالْفَخَّارِ – ١٤ . وَخَلَقَ الْجَانَّ مِنْ مَارِجٍ مِنْ نَارٍ – ١٥ . فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ – ١٦ . رَبُّ الْمَشْرِقَيْنِ وَرَبُّ الْمَغْرِبَيْنِ – ١٧ . فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ – ١٨ . مَرَجَ ٱلْبَحْرَيْنِ يَلْتَقِيَانِ – ١٩ . بَيْنَهُمَا بَرْزَخٌ لَا يَبْغِيَانِ – ٢٠ . فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا

بوحدته آية واحـــدة ، ترمز الى رحمات رحمانية ورحيمته في الاولى والآخرة تستعرضها السورة ، لمسات من الرحمتين ، وإعلانٌ عام في ساحة الكون ينطلق من الرحمان فيتجاوب به الكون كله ، فالكون كله ، والسورة كلها ، معارض ومظاهر لآلاء الرحمان « فبأي آلاء ربكما تكذبان » ؟.

« الرحمن » :

.. انها اولى الأسماء والصفات الإلهية بعد « الله » لا يسمى بهـــا إلا الله إلا زوراً وغروراً ، فهي تشمل كافة الصفات والأسماء الإلهية الفائضة على الخلق عامة ، إذ هي أعم من الرحيم ، فانها لبعض الخلق خاصة ، فقد ذكرت الرحيم فيما ذكرت ، قرينة برحمات خاصة ، ولم تذكر الرحمان إلا عامة أو قرينة برحمات عامة ، مما يؤكد تفسيرها في السنة واللغة بالرحمة العامة ، وفيما تذكر برحمة خاصة ، لا تعني إلا شمولها لها ، وكما تشمل سائر الرحمات لا اختصاصها بها ، فهي على أية حال أشمل من الرحيم [1] . ومن الرحمة العامة : الرحمانية ، رحمة الخلق وهداية الخلق : « الذي أعطى كل شيء خلقه ثم هدى » ومن الهداية ما ترجع اليها من صالح ذاتي أو وصفي وعارضي ، وقـــد تستعرض « الرحمن » قسماً كبيراً من أقسام الرحمتين الرحمانية والرحيمية ، ومن أعظمها :

« علّم القرآن » تتقدم على خلق الإنسان وتعليمه البيان وخلق الأرض للأنام أم ماذا ؟ رمزاً الى أن القرآن هو الرحمة التي تعادل سائر الرحمات وتتقدمها ، فكتب الوحي كلها تقدمات للقرآن ، وخلق الكون كله بما فيه الإنس والجان خلقٌ لمن يتوجب عليه فهم القرآن ، متذرعاً كتاب التكوين آفاقياً وأنفسياً للوصول الى كتاب التدوين : القرآن .

---

(١) لقد ذكرت الرحمان ٧ . مرة والرحيم ٩٥ مرة ، وفي أحاديثنا : الرحمن بجميع خلقه والرحيم بالمؤمنين خاصة ، وكذلك في اللغة — وتجد تفصيل البحث عن الوصفين في بسملة الحمد — علنا نوفق للوصول اليها بتوفيق الله تعالى .

الزاوية الثالثة في مثلث كيان الإنسان ، بما يتطلبه من الفطرة والعقل والفكرة ، ولكي تكون مادة للبيان ، وإلا فممّ وعمّا البيان ؟!

وترى ما هو البيان ؟ لكي يحتل من ميزات الإنسان قمتها ! هل إنه إظهار ما في الضمير من الواقع ومن الطلبات ؟ فقد يشاركه الحيوان ، كلٌّ مع ذوي نوعه وبحسبه ، كما الإنسان مع سائر الإنسان ! أو انه بيانٌ باللسان ، وبيان بالإشارة، وبيان بالقلم، وإلى سائر البيان: كافة الوسائل التي يتذرع بها لـ «بيان كل ما يحتاج إليه الناس» [1] مما يحتاجه صاحب البيان أو غيره من إنسان ، بيان الإفادة والإستفادة ، بيان الإحتجاج أو طلب الحجة على ما يرام ، وترى أن للحيوان هكذا بيان ؟ مهما كان له إظهارٌ لما يتطلبه بإشارة أو لسان ! كلا وانه الإنسان الذي زود بكل بيان وتبيان ، بأصولها ووسائلها وفصائلها وحصائلها ، فكما القرآن فيه تبيان كل شيء ، كذلك الإنسان ، فله أن يتبين من القرآن كل شيء ، ثم يبين على ضوئه كل شيء ، تجاوب كتابي التكوين والتدوين : الإنسان والقرآن ! فإنسان القرآن هو مجمع الكتابين ومرج البحرين ، فيا له من إنسان عالي الكيان !

فقد مُنح من الوسائل بما لم يزوَّد به سائر الحيوان ، إضافة إلى أن ضميره يفوق سائر الضمائر ! فبيانه — إذاً — يفوق سائر البيان ! وهكذا بيان عن هكذا ضمير هو الذي يميّزه عن سواه فيمتاز على سائر الحيوان .

ترى لو لم يكن للإنسان بيان أكان إنساناً كما الآن ؟ فدور البيان — إذاً — دور أعظم كيان ، به يتعلم وبه يعلّم ، به يحتج وبه يحتج له أو عليه ، به يتكامل وبه يكمل ، ثم وكل وسيلة من وسائل البيان ، قلماً ولساناً وسواه ، يتطلب كتاباً ضخماً بدراسة فخمة ، علّها توضّح طرفاً من أطرافه «فبأي آلاء ربكما تكذبان» !

---

(١) تفسير القمي عن أبي الحسن الرضا في تفسير «علمه البيان» .

اسلوب القرآن [١] .

الجواب : ان الحسبان هو الحساب أياً كان ، أفي إرسال العذاب على أهله ، فحسبانه انسه بقدر وحساب دون فوضى ، أو في سراجي الليل والنهار ، ففي خلقهما وجريهما ، ولآخر المطاف في وقفتهما ورجعتهما عند قيامتهما ، فإنهما في كل ذلك بحسبان وميزان « ألا تطغوا في الميزان » !

ثم ترى ألم تكن في السماء شمس أكبر وأضوء من هـــذه ، أو قمر أنور من هذا ؟ فاختصا لذلك بالذكر من بين الشموس والأقمار ؟

أجـل ان هناك شموساً وأقماراً أكبر منهما بكثير وأنور وأحرّ ، ولكنهما أعرف نجمين وأهمها بالنسبة لنا : سكنة الأرض – من حيث الفوائد الظاهرة .

فالشعرى اليمانية – كما سبقت – هي أثقل من شمسنا بعشرين ضعفاً ، ونورها خمسون ضعفاً ، وحجم السماك الرامح ثمـانون ضعفاً ، ونوره ثمانية آلاف ضعف وسهيل أقوى من الشمس بألفين .. ام ماذا ؟ وكما هناك أقمار وأقمار !.

فهذان الكوكبان – كسائر الكواكب وسائر الكون – إنهما بحسبان : في خلقهما وحجمهما ووزنهما ونورهما وحرارتهما وسيرهما ووقفتهما ، في بُعدهما عنا ، وفي الخسوف والكسوف ، وفي كيانهما ككلّ كما هما .

فالذي يصلنا من حرارة الشمس ليس إلا جزءً من مليوني جزء من حرارتها فـلو زادت لاختنقت الأرض أو احترقت ، أو لو نقصت لبردت أو تجمدت ، وعلى التقديرين استحالت عليها الحياة أو صعبت .. وهكذا القمر وسائر النجوم

---

(١) القمي في تفسيره عن الحسن بن خالد عن الإمام الرضا (ع) في الآية : قال : يعذبان قلت : الشمس والقمر يعذبان ؟ قـــال : سألت عن شيء فاتقنه ، ان الشمس والقمر آيتان من آيات الله تجريان بأمره مطيعان له ، ضوءهما من نور عرشه وحرهما من جهنم ، فإذا كانت القيامة عاد إلى العرش نورهما ، وعاد إلى النار حرهما ، فلا يكون شمس ولا قمر .

غير متمنعة على المعرّف ، ولا ممتنعة على المدبر ، ثم وذلك كله – او من ذلك – ما هو عن شعور التسبيح : « ولكن لا تفقهون تسبيحهم » !

وفي تقديم النجم على الشجر في السجود إشارة الى تقدمه عليه في ظاهر السجود ، فيما النجم هو النبات المنبسط على الأرض ، فكله رأس وكله سجود ، مهما كان الشجر ساجداً بعروقه وسوقه الناعمة ، فان أصل الساق قائم وان كان قيامه أيضاً سجوداً فانه قيام بأمر الرحمان !.

فهل تعني هذه الآية ، اليتيمة في نجمها ، ما لا تعنيه آيات النجوم كلها [1] ؟ ودون أية قرينة فيها! اللهم إلا قرينة الشجر؟ كلا ! فعلّ الجمع أرفق، وبالتدليل على السجدة الشاملة أوفق ، وقد تتحمله الآية دون تحميل ، كما وتتحمله اللغة : فالنجم يشمل كل ناجم وطالع ، وطلوع كل شيء بحسبه .

« والسماء رفعها ووضع الميزان » :

ان رفع السماء يوحي بأنها كانت سماء من ذي قبل ثم رفعت ، ترى انها كانت سماء خافضة فرفعت والسماء هي جهة العلوّ ؟ فكيف كانت سماء إذاً ؟ ثم ترى الى أين رفعت ؟ وعلى مَ ؟ وبمَ ؟.

السماء هذه – قبل رفعها – هي الدخان الغاز ، حصيلة تفجرة المادة الام : « ثم استوى الى السماء وهي دخان فقال لها وللأرض ائتيا طوعاً أو كرهاً قالتا أتينا طائعين . فقضاهن سبع سموات . . » (٤١:١٢) وكان الغاز هذا في المادة الام ففتقها الله فانفتقت أرضاً هي زبدُ الأرض الام : مادة الأرضين السبع ، وانفتقت غازاً هي السماء الام : « أو لم يرَ الذين كفروا أن السماوات والأرض

---

(١) إذ ليس في القرآن آية يتحمل النجم فيها ما ينجم من النبات إلا هذه ، وآيات النجوم اثني عشر آية .

المدلول : العدل في كافة زوايا الكون وحواياه ، فلولا الميزان لم يبق لأي كائن كيان ، ولا للانس والجان ، فليدرس الانسان :

« ألا تطغوا في الميزان . وأقيموا الوزن بالقسط ولا تخسروا الميزان » :

« وأنزلنا معهم الكتاب والميزان ليقوم الناس بالقسط » (٥٧ : ٢٥) : فلندرس من كتابي التكوين والتدوين درساً في طغوى الميزان : سلباً : « ألا تطغوا في الميزان » وإيجاباً في تقواه : « وأقيموا الوزن بالقسط ولا تخسروا الميزان » .

فتقوى الميزان هي الحساب العدل به وفيه ، وطغواه هي الفوضى اللاحساب ، وليس ميزانَ البيع فقط ، بل سائر القيم والموازين في سائر جوانب الحياة بمتطلباتها ومنها موازين المعاملات .

فهنا إقامة للوزن بالقسط العدل هي تقواه ، وتخسير للميزان بالقسط اللاعدل ، هو طغواه ، بما لهما من درجات ودركات ، فالحق في الأرض وفي حياة البشر مربوط ببناء الكون ، ومدروس عن ميزان الكون ، فكما الفوضى في وزن سائر الكون تفضي الى القضاء على الكون ، أو شلّ عجلته ودورانه ، كذلك الفوضى في ميزان حياة الانسان تشل دوران حياته كإنسان ، وتخسره ما فضل به على سائر الحيوان وأضل سبيلا .

وترى أن « الميزان » في هذا المثلث [1] بمعنى ؟ كلا ! فالأول هو معيار الوزن تكويناً وتشريعاً ، والثاني ما يمكن فيه الطغيان ، من ميزان التشريع تهريفاً وتحريفاً ، أو خلافاً وعصياناً ، فميزان التكوين لا يقبل الطغيان ، اللهم إلا ما فيه خيار للانسان ، والثالث هو الذي يقبل الإخسار من الميزان ، وزناً وموزوناً ومعياراً ، اللهم إلا في معيار المعاملات ، حيث الإخسار لا يتجه إلى آلة الوزن ،

---

(١) ١ – وضع الميزان ٢ – ألا تطغوا في الميزان ٣ – ولا تخسروا الميزان .

وكما الامتنان في وضع الأرض وسواها خصها : « فبأي آلاء ربكما تكذبان » فليكن الأنام هو الانس والجـــان ، فتعميمه لغيرهما غير فصيح ، كما اختصاصه بالانس غير صحيح ، وما دامت تعمه وغيره لغوياً وسواه فلتكن ، وإلا فلماذا لم يأت باسم الانسان لو كان هو المخصوص كما في خلقه من صلصال كالفخار ؟ : « خلق الانسان من صلصال كالفخار » .

ويا لوضع الأرض لنا مهاداً وقراراً ، من نعمة سابغة لا ندركها ، اللهم إلا حين يثير زلزال ، أو يحير طوفان ، أو يثور بركان ، فقد نشعر ونفكر في مدى عظيم النعمة لوضع الأرض لنا قراراً ، وجعل هذه المجنونة الفرار لنا ذلولاً ، فما هي إلا هباءة سائحة سابحة في بحـــار الأجواء الواسعة لولا وضعها العادل في حركاتها وبركاتها لساخت بأهلها الى دركاتهـا : « وعدل حركتها بالراسيات من جلاميدها وذوات الشناخيب الشم من صياخيد فسكنت على حركاتها من أن تميد بأهلها أو أن تسنح بحملها .. » .

فهي محمولة بعمد لا ترونها ، في جادة فضائية ، جادّةٌ في سيرها ، لولا رحمة الرحمان لانكفأ بنا الى الأعماق فلم يبق منا باق ، فسبحان الذي جعل الأرض للأنام :

« فيها فاكهة والنخل ذات الأكام . والحب ذو العصف والريحان » :

الفاكهة ما تطيب به النفس وتستأنس من المأكول ، واختصت بمـــا تثمره نبات الأرض ، كما الفكاهة حديث ذوي الانس .

واختصاص النخل بالذكر بين سائر الفاكهة ، لأنها قوت على كونها فاكهة ، ومن أفضل القوت وأفضل الفاكهة ، في حالتي اليبوسة والطراوة ، في حين أن سائر الفاكهة ليست قوتاً إلا قليلاً كالعنب والجوز ، كما وأن الحب – الشامل لسائر الحبوب – هي أفضل من النخل ومن الفاكهة ، فمثلث النعم هذا يختلف في زواياها ، من الأدنى الى الأرقى : فاكهة – نخل – حب ، على أن للأولين

من الشعرية المنثورة ، رغم أن القرآن ليس شعراً ، بل ولا نثراً فيما نعرف ، إنه كلام الله خارجاً عن الشعر والنثر في ألفاظه ، كما هو خارج عما عرفه الإنسان في معانيه .

والاستفهام في الآية بالنسبة للثقلين للتنديد والتخجيل، وبالنسبة لآلاء الرب للتجليل ، فآلاء الرب ونعمه ظاهرة فيها ربوبيته ، باهرة رحمته ، إلا النعم التي نبدلها نحن نقماً وكفراً : « ألم ترَ إلى الذين بدّلوا نعمة الله كفراً وأحلّوا قومهم دار البوار » (١٤ : ٢٨) « ومن يبدّل نعمة الله من بعد ما جاءته فإن الله شديد العقاب » (٢ : ٢١١) .

إن تكذيب النعمة دركات ، كما وأن تصديقها درجات : جوانح وجوارح وأعمالاً، والدرك الأسفل من تكذيبها أن تشارك فيه الثلاث: قولاً وقلباً وقالباً، والدرج الأعلى من تصديقها مثلث التصديق ، وبينهما في كل منهما متوسطات .

« خلق الانسان من صلصال كالفخار . وخلق الجان من مارج من نار . فبأي آلاء ربكما تكذبان » .

إن خلق الإنس والجان هو النعمة القمة لهما ، كأصل للقاعدة لسائر النعم التي تتواتر لهما ، فما هو صلصال ، وما هو مارج من نار ؟

الصلصال هو الطين اليابس المنتن الذي يتردد منه الصوت إذا وطئ : « إني خالق بشراً من صلصال من حمإ مسنون » (١٥ : ٢٨) : طين أسود منتن « إنا خلقناهم من طين لازب » (٣٧ : ١١) : شديد الثبوت ، فطين الانسان صلصال من حمإ مسنون لازب : طين أسود نتن لازق كالفخار : الطين المطبوخ بالنار : الخزف ، وهذا هو مخمر الطين وخالصه ، كما الإنسان هو خالص الكون الترابي، وهذا يرمي إلى صنع أول إنسان ، فإن نسله ليسوا من هكذا طين : والترتيب الخلقي أنه كان تراباً ، ثم طيناً ، ثم حمأ مسنوناً لازباً ، ثم صلصالاً كالفخار .

« وخلق الجان » أصل الجان ، دون الأنسال الذرية المخلوقة من إنسانه :

محصور في المادتين ليس إلا ، فمن عظيم آلاءه للانسان أنـــه خلقه من طين نتن فجعله في أحسن تقويم ، وللجان أنه خلقه من نار السموم ، وجعله يتلو الإنسان في التقويم !. « فبأي آلاء ربكما تكذبان » ؟.

« رب المشرقين ورب المغربين . فبأي آلاء ربكما تكذبان » :

فمن آلاء الرحمان ربوبيته الوحيدة للمشرقين والمغربين ، فإن كثرتها فوضى تضاد : « لو كان فيها آلهة إلا الله لفسدتا » كما أن ثبات الشارقات والغاربات دمار للكائنات .

ثم المشرقان والمغربان هنا تجمعان مشرق الشمس والقمر ومغربها : « رب المشرق والمغرب وما بينهما » (٢٦ : ٢٨) ومشرق الشمس ومغربها، مع مشرق سائر الشوارق ومغربها ، ومشرق كلّ مع زميله : الجهة الفرعية شمالا وجنوباً، ومغرب كلّ كذلك ، وأعلى المشارق والمغارب صيفاً وأدناهما شتاء ، في غاية ارتفاع الشمس وانخفاضها : « فلا أقسم برب المشارق والمغارب » (٧٠ : ٤٠)[1] فآيات المشرق والمغرب تتجاوب ، إفراداً وتثنية وجمعاً ، دون تنافر وتناحر .

ثم من آلاء الرب في مشرقي الصيف والشتاء ومغربيها أن الفصول الأربعة مترتبة عليها ، وتتبعه تقلب الهواء وتنوعها، وما يليها من مطر وشجر ونبات.

كما وأن من الآلاء الأربع رباعية التدبير ، وما اليها من آلاء في المشرقين والمغربين نحن نجهلها ، لو اختل شيء منها لاختلت الحيـــاة أو استحالت أو حولت مماتاً .

---

(١) راجع تفسير الآية « فلا اقسم برب المشارق والمغارب » المعارج ج ٢٩ ص ١٤٠ . وفي كتاب الاحتجاج عن أمير المؤمنين (ع) حديث طويل وفيه: وأما قوله « رب المشرقين ورب المغربين » فان مشرق الشتاء على حده ومشرق الصيف على حده . أما تعرف ذلك من قرب الشمس وبعدها ، وأما قوله : « رب المشارق والمغارب » فان لها ثلاثة وستين برجاً تطلع كل يوم من برج وتغيب في برج فلا تعود اليه إلا من قابل في ذلك اليوم .

ثم الحاجز بين الأرضي والسماوي أن يبغيا هو تقدير الرحمان ، المحجور عن الإنس والجان ! وأما الحاجز بين البحر الأرضي والأنهار فليس محجوراً لا عن البصائر ولا الأبصار ، فإنه علو الأنهار على البحار واختلاف أماكنها .

فقد مرج البحرين : أرسلهما طاميين ، وأمارهما مائعين ، فهما يلتقيان بمقاربة مقارفةِ المرج المزج ، وليست بالمزج ، وإنمـــا ضُمّن المرج هنا معنى المزج لأنهما ارسلا رِسلهما الرامي إلى مزجهما ، الواقع بدوافعه تماماً لولا الحجر المحجور ، والبرزخ الحاجز ، الذي يمنعهما عن الانخراط ، ويصد كلاً منهما عن الانفراط ، فلا يبغي أحدهما على الآخر فيقلبه إلى صفته ، أو ينقصه عن حِدّته ، لا الملح الاجاج على العذب الفرات ، ولا العذب على الملح الاجاج ، اللهم إلا في مرج المزج غير الباغي ، كما يمزج ماء البحار بميـــاه الأنهار ، بعدما يصبح بخاراً وأمطاراً ، ويمزج مياه العيون والأنهار بمياه البحار إذ تصب فيها ، ولكنه مرج ومزج بحساب وميزان ، إذ يأخذ كلٌ قدر ما يعطي ، دون بخس في المكيال ولا إخسار في الميزان ، وهذا أيضاً من الحاجز بينهما ، كما الحاجز بين مياه البحر والأنهار ، إلا أنه حجر غير محجور .

ولولا الحاجز بين البحرين : بين العذب والمالح في البحر ، وبين البحار المالحة والأنهار العذبة ، وبين التفاعلات عبر التبدلات ، لبحر الأرض والسماء ، لولاه لتعطلت الحياة أو استحالت ، فالملح الاجاج الذي يغمر ثلاثـــة أرباع الكرة الأرضية ضرورة لتطهيرها بحوها وإفساحها المجـــال للحياة من حيوان البحر وسواه ، والعذب المدخر في مخازن الأرض ، والساري في مساريها ، والكائن في البحار أيضاً كعروق أو أنهار [١] ضرورة للشرب والإنبات ، كلٌ على قدره .

---

(١) كدجلة تدخل البحر فتشقه فتجري خلاله فراسخ لا يتغير طعمها ، وكما تجعل دجلة البحر بحرين ، كذلك هو وسائر البحر بحران ، الأولان مالحان ، والآخران مالح هو المالحان ، وعذب هو دجلة .

الخاطىء مصدقاً القرآن في خروج اللؤلؤ والمرجان من البحرين : عذباً ومالحاً[١] وكما يخرج من أحدهما : المالح ، بسبب العذب : بحر السماء .

وهما ، ولا سيما اللؤلؤ أفخر حلية تلبس ، وهي من لباس الجنة : « يحلون فيها من أساور من ذهب ولؤلؤاً » (٣٥ : ٣٣) وهي من أجل الجمال إذ الغلمان المخلدون بها يشبّهون : « إذا رأيتهم حسبتهم لؤلؤاً منثوراً » (٧٦ : ١٩) .

وترى ما هو أصل اللؤلؤ والمرجان وكيف يخرجان ؟ انهما أعجب حيوانين بحريين وأجلبها ! فاللؤلؤ حيوان صغير ، يهبط إلى أعماق البحر ، لتقيه من الأخطار ، وهو داخل صدفة من المواد الجيرية ، ويختلف عن سائر الكائنات الحية في تركيبه وطريقة معيشته ، فله شبكة دقيقة كشبكة الصياد ، عجيبة النسج ، تكون كمصفاة تسمح بدخول الماء والهواء والغذاء الى جوفه ، وتحول بين الرمال والحصى وغيرها ، وتحت الشبكة أفواه الحيوان ، ولكل فم أربع شفاه ، فإذا دخلت ذرة رمل ، أو قطعة حصى ، أو حيوان ضار عنوة الى الصدفة ، سارع الحيوان الى إفراز مادة لزجة يغطيها بها ، ثم تتجمد مكونة لؤلؤة ! وعلى حسب حجم الذرة التي وصلت يختلف حجم اللؤلؤة »[٢] .

« ولها صنوف عدة ، فأجل نوع منها ما يتكون في الحيوانات الرخوة الصدفية التي تعيش في البحار الحارة ، والحيوان موجود داخل محارتين منطبقتين على بعضهما ، ويوجد منها نحو ثلاثين نوعاً .. واللؤلؤ اللطيف الشكل ، الجميل الماء هو ما يسمى باللؤلؤ الحر أو الصافي ، ذو قيمة تجارية هائلة ، وأغلاه ما كان

---

(١) تفسير الجواهر ج ٢٤ ص ٢٦ ينقل عن مجلة « السياسة الاسبوعية » المصرية ٢٧ رمضان ١٣٤٤ هـ ١٠ أبريل ١٩٢٦ ما يلي : « يتكون اللؤلؤ في أنواع كثيرة من الحيوانات الصدفية أو المحارية التي تعيش في الماء العذب أو في الماء الملح ، وكانت لآلىء الماء العذب شهيرة عند الرومانيين ، وهي تستخرج حتى الآن من بعض جهات في أميركا والصين وغيرها .. » .

(٢) نقلاً عن كتاب « الله يتجلى في عصر العلم » .

متر ، وهو حيوان صغير يبني مع الآلاف من رفاقه مساكن هي أشبه بأغصان الأشجار ، ثم تتكامل حتى تكون منها جزائر ، وإذا اجتمعت جزائر عاشت فيها المرجانات آمنة مطمئنة ، ولو رأيت شجر المرجان لرأيته كظباء الصحراء، له فروع غبراء ، أو برتقالية صفراء ، أو قرنفلية حمراء أو زرقاء تتلاعب بها الأمواج، وتعبث الريح بأغصانها، فكيف إذاً تصبح صخرات مكونات للجزائر المرجانية ؟ سبحان الخلاق العظيم !.

وجزيرة واحدة من تلك الجزائر المرجانية تبلغ فراسخ عدة ، تتكسر على جوانبها الناصعة البيضاء ، أمواج المحيط [١] .

« إن حيوانة المرجانة تثبت نفسها بطرفها الأسفل بصخر أو عشب ، وتفتح فمها التي في أعلى جسمها ، محاطة بعدد من الزوائد يستعملها في غذاءها ، فإذا لمست هذه الزوائد فريسة – وكثيراً ما تكون من الأحياء الدقيقة كبراغيث الماء – اصيبت بالشلل حالا، والتصقت بها، فتنكمش الزوائد وتنحي نحو الفم، حيث تدخل الفريسة الى الداخل بقناة ضيقة تشبه مريء الانسان .. ويتكاثر هذا الحيوان بخروج خلايا تناسلية منه ، يتم بها إخصاب البويضات ، حيث يتكون الجنين الذي يلجأ الى صخرة أو عشب يلتصق به ويكوّن حياة منفردة، شأنه في ذلك شأن الحيوان الأصلي .

ويتكاثر أيضاً بطريقة اخرى هي التزرّر ، وتبقى الازرار الناتجة متحدة مع الأفراد التي تزررت منها ، وهكذا تتكون شجرة المرجان التي تكون ذات ساق سميكة ، تأخذ في الدقة نحو الفروع التي تبلغ غاية الدقة في نهايتها ، ويبلغ طول الشجرة المرجانية ثلاثين سنتيمتراً، ثم الجزر المرجانية – المسبق ذكرها – بتعاون المرجانات » [٢] .

---

(١) تفسير الجواهر ٢٤ ص ٢٦ ، نقلاً عن بعض المصادر .
(٢) في كتاب : الله يتجلى في عصر العلم .

فجواري البحر من آيات الرحمان ورحماته : « ومن آياته الجوار في البحر كالأعلام . إن يشأ يسكن الريح فيظللن رواكد على ظهره إن في ذلك لآيات لكل صبّار شكور » (٤٢:٣٣) أو إن يشأ يغير البترول ، أو أياً من المحروقات فيظللن رواكد على ظهره ، أو يغير الماء ، أو يثير الريح المجنونة ، أو يخل بشيء مما له دخل في جريانها ، فيظللن في ضلال بأصحابها رواكد على ظهره .

فالله هو المسخر لنا الفلك : « وسخر لكم الفلك لتجري في البحر بأمره » (١٤ : ٣٢) « يزجي لكم الفلك في البحر لتبتغوا من فضله » (١٧ : ٦٦) « ألم ترَ أن الفلك تجري في البحر بنعمة الله » (٣١ : ٣١) فمن ذا الذي يحفظها في خضمّ البحر وثبج الموج إلا الرحمان ، ومن ذا الذي يقرها على سطحه المتماوج ، ويجريها بالرياح المتهايج إلا الرحمان « فبأي آلاء ربكما تكذبان » : كهذه المنشآت للإنس والجان ، التي تحمل رحمات من الرحمان .

فلولا أن هناك في البحر منشآت للجان كما للانسان ، أو أنهم يركبون منشآت الإنسان لم تكن هي من آلاء الرب لهما فكيف كان عليهم الامتنان ؟! فالجان إذاً شركاء الإنسان في منشآت البحر كالأعلام : الآثار المُعلمة التي تدل الضُلاّل من قريب أو بعيد ، فكما النجوم هدىً سماوية في ظلمات البر والبحر ، كذلك هذه المنشآت فإنها كالأعلام : أعلام البحر وجباله ، كجبال البر وأعلامه .

فقد كانت الجواري ولا تزال من أعظم النعم وأوفر المنن ، التي يسّرت أسباب الحياة ، وهي من يسر الناقلات : البرية والجوية ، تكليفاً ، ومن أكثرها حملاً وتخفيفاً عن أثقال الحياة .

« كل من عليها فان . ويبقى وجه ربك ذو الجلال والاكرام . فبأي آلاء ربكما تكذبان » :

« كلُّ من عليها » : من ذوي العقول جناً وإنساً أمّن ذا ؟ « مَن عليها » ترى

أن وجه الله هكذا يبقى ، وسائره يبطل ويفنى ، تعالى عن ذلك علواً كبيراً .

ثم الوجه الجسداني ليس ذا الجلال ولا الإكرام ، لأنـــه ذليل فان كسائر الأعضاء ، ومهان دان كسائر من عليها !.

وإنما « وجه ربك » جهة الربوبية ووجهتها ، الظاهرة في المربوبين الربانيين ، الباهرة في أولياء الله المكرمين ، فإنها باقية ببقاء الله وهم عند الله : « ان الذين عند ربك لا يستكبرون عن عبادته » (٧ : ٢٠٦) فالذين هم عند الله ، وليسوا عند أنفسهم ورغباتهم ، وإنما عند ربك ، تحت ظله وفي رعايته ، إنهم باقون قدر ما هم عند ربك ، وفانون قدر ما هم عند أنفسهم : « ما عندكم ينفد وما عنـــد الله باق » (١٦ : ٩٦) « وما عند الله خير وأبقى للذين آمنوا وعلى ربهم يتوكلون » (٤٢ : ٣٦) « وما تقدموا لأنفسكم من خير تجدوه عند الله » (٧٣ : ٢٠) .

فهنا آيتا الفناء والهلاك تتجاوبان ، أن الفناء لمن عليها : ضمير تأنيث تضمر الكائنات كل الكائنات إلا وجه ربك ، والهلاك يشمل كل شيء إلا وجهه : « كل شيء هالك إلا وجهه » فلا باقي إلا وجه الله : ذاته بربوبيته : الكائنة من ذاته ، والكامنة في البعض من مخلوقاته ، ربوبية رحيمية روحانية ، الذين يُتوجه بهم إلى الله ، وتتواجد فيهم مرضات الله وتربياته ، لا ذاته وصفاته ! فهم – إذاً – « أنبياءه وحججه الذين بهم يتوجه إلى الله عز وجل وإلى دينه ومعرفته » [١]

---

(١) عيون أخبار الرضا (ع) في باب ما جاء عن الرضا (ع) يسأل عن الخبر الذي رووه : ان ثواب لا إله إلا الله النظر الى وجه الله تعالى ؟ فقال : من وصف الله عز وجل بوجه كالوجوه فقد كفر ، ولكن وجه الله أنبياءه ... وقال الله عز وجل « كل من عليها فان . ويبقى وجه ربك ذو الجلال والاكرام » وقال عز وجل : « كل شيء هالك إلا وجهه » فالنظر الى أنبياء الله تعالى ورسله وحججه (ع) في درجاتهم ثواب عظيم للمؤمنين يوم القيامة ، وقد قال النبي (ص) : «من أبغض أهل بيتي وعترتي لم يرني ولم أره يوم القيامة» ، وفي تفسير القمي عن علي بن الحسين (ع) « نحن الوجه الذي يؤتى الله منه » .

فناء مَن عليها ، المطمئنين بالحياة الدنيا ، الراضين عنها ، لم يكن لبقاء وجه الله من جلال ولا إكرام ، مهما كان الفناء الأخير من بلاءه دون آلاءه ، ولكنها من وجهة اخرى من آلاءه ، لمن جانبها ، فالفناء دركات ودرجات ، والبقاء بالله درجات « فبأى آلاء ربكما تكذبان » ؟!.

« يسأله من في السماوات ومن في الأرض كلّ يوم هو في شأن . فبأي آلاء ربكما تكذبان » .

السؤال هو الحاجة التي تحرص النفس عليها ، فالسؤال التماسها ممن يستجيبها ، سواء أكان بلسان الذات ، فالمكنات كلها فقيرة الذات إلى الله ، أم بلسان الصفات فكذلك الأمر ، أم بلسان الحال ، فكل تشهد أن كونها في مثلث الكيان دون سؤال ، ودون إجابة ، إنه من المحال ، أم بلسان المقال ، فقد يجاب إذا توفرت شروط الإجابة ، وقد لا يجاب إذا لم تتوفر : « وآتاكم من كل ما سألتموه » (١٤ : ٣٤) لا « كل ما سألتموه » فالأسئلة الحالية والذاتية والصفاتية مستجابة على أية حال ، ولو لم يخطر للسائل ببال ، كمن لا يعرفون الله ، أو لا يوحدونه ، أو الغافلون عنه ، أو الذين قد يسألون ما يضرهم ، وقد لا يسألون ما ينفعهم ، فهو يعطيهم ما يصلحهم استجابة لمثلث السؤال بلا إدراك للسائل فيه ولا مقال ، فهو وحده المجيب ، وسائله لا يخيب ، وما سأل أحد غير الله ، إلا حرم سؤله عند الله ، وماذا يملك مَن دون الله ، حتى يسألونهم مِن دون الله ؟!

« يسأله من » فماذا يسألونه ؟ ومتى ؟ وما هو دليل الإجابة وليست في الآية ؟ ومن هم السائلون ؟.

إن السؤال لا يختص كائناً دون سواه ، إن كان يشمل كافة الطلبات والحاجات ، وقد جيء هنا بـ « مَن » إما تدليلاً على أن الكائن أيا كان لا يخلو عن شعور ، كيف لا و : « إن من شيء إلا يسبح بحمده ولكن لا تفقهون

« يسأله .. كل يوم .. » هل هو كل نهار ؟ أم هو بليله ؟ أم ماذا ؟

إنه كل آن : كل وحدة زمنية عن كل وحدة حركية ، لأصغر ذرة من مادة ، علّها أقل بكثير من الوحدة الالكترونية ٥٠,٠٠٠/١ ثانية في حسابنا ، فكل يوم هنا هو كل وحدة زمنية لا تنقسم[١].

ولا يعني السؤال والإجابة في كل يوم ، أن الله تعالى : المسؤول المجيب — هو أيضاً بذاته في كل يوم ، وإنما الزمان والمكان ظرف فعله ، لا ذاته ، فقد كان إذ لا « كان » ولا زمان ولا مكان ، وسوف يبقى ويكون إذ يفني كل « كان » وكل زمان ومكان ، وهو الآن كما سيكون وكما كان ، خارجاً عن الزمان والمكان ، فلا يشمله زمان ولا مكان ، كما لا يشغله شأن عن شأن .

ثم السؤال هنا في موقف الإمتنان هو دليل الإجابة وإلا فلا إمتنان .

وأخيراً للشأن هنا وجهتان : للاولى ، كما يسأله فيها من في السماوات ومن في الأرض كل يوم هو في شأن .. وللاخرى أو هو أشمل هو شأن الربوبية الشاملة كل شيء ، في أي زمان أو مكان ، تجريداً للاخرى عن السؤال : « كلُ يوم » كما كان في الاولى ، مع سؤال « كلَّ يوم ».

فـ « كل يوم » : آن أو ما زاد او نقص، دهر أو سواه، « هو في شأن » غير ما كان في غيره ، فلا تكرار في فعله ، ولا عـادة ولا تقليد ، ولا مسايرة أو تسيير ، وإنما اختياراً وإبداعاً ، فليس الله ليبقى دون شأن ، لا تنقطع رحمته ما كان هنالك مرحوم ، فقد كان إذ لا كان ، فكان شأنه إذ ذاك ما كان ، ثم

---

(١) لقد تحدثنا عن معنى « يوم » في عدة مجالات ، إنه الزمان أياً كان ، ويتبع القرائن في تحديده ، فشأن الخلق والتدبير يشمل أقل وحدة زمنية ، لأنه من أمر الله « وما أمرنا إلا واحدة كلمح بالبصر » « أو هو أقرب » ومن الأقرب أدنى حركة لأصغر مادة لم نعرفها حتى الآن .

وإن في الأرض فقط[١] ، أو العبء فيها المثقلان الوازران فقط بين المكلفين[٢] ولذلك يفرغ لهما لا سواهما ، فالثقل والفراغ يوحيان أنهما اللذان يدور عليهما رحى التكليف ، والحساب الثواب والعقاب ، وإن كان معهما غيرهما من المكلفين المحشورين ، من أعلاهم غير المعروفين ، وأدناهم فيمن نعرف من سائر الدواب : (وما من دابة في الأرض ولا طائر يطير بجناحيه إلا أمم أمثالكم ما فرطنا في الكتاب من شيء ثم إلى ربهم يحشرون[٣]) (٦ : ٣٨) .

فحساب غير الثقلين ليس في فراغ ، مهما كان لهم حساب ، لتفاهة التكليف وخفته ، أو خفة العصيان وقلته ، وأما الثقلان فيهما المثقلان تكليفاً ووبالاً ، كما هما المثقلان ثواباً وكمالاً ، ثم الفراغ للحساب الجزاء من آلاء الرب للمؤمنين إذ ينتصر لهم يوم الدين من الظالمين، ويثابون هناك على ما عملوا يوم الدنيا ، نعمتان لهم ، ونقمتان لمن سواهم من الظالمين، فالفراغ للحساب لهم من الآلاء وللظالمين بلاء : (فبأي آلاء ربكما تكذبان) .

مركز تحقيقات كامپيوترى علوم اسلامى

* * *

يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ إِنِ اسْتَطَعْتُمْ أَنْ تَنْفُذُوا مِنْ أَقْطَارِ السَّمٰوَاتِ وَالْأَرْضِ فَانْفُذُوا لَا تَنْفُذُونَ إِلَّا بِسُلْطَانٍ — ٣٣ . فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ — ٣٤ . يُرْسَلُ عَلَيْكُمَا شُوَاظٌ

---

(١) ومما يشهد له ما تواتر عن الرسول (ص) « إني تارك فيكم الثقلين » : أي العظيمين «كتاب الله وعترتي » فليكن الانس والجان أيضاً ثقلين بين سائر الخليقة .

(٢) تفسير روح البيان ج ٩ ص ٣٠٠ قال الصادق (ع) .. لأنهما يثقلان بالذنوب .

(٣) راجع ج ١ من الجزء ٣٠ ص ١٤٣ – ١٤٦ في حشر الحيوان .

تُكَذِّبَانِ — ٥٧ . كَأَنَّهُنَّ الْيَاقُوتُ وَالْمَرْجَانُ — ٥٨ . فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ — ٥٩ . هَلْ جَزَاءُ الإِحْسَانِ إِلاَّ الإِحْسَانُ — ٦٠ . فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ — ٦١ . وَمِنْ دُونِهِمَا جَنَّتَانِ — ٦٢ . فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ — ٦٣ . مُدْهَامَّتَانِ — ٦٤ . فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ — ٦٥ . فِيهِمَا عَيْنَانِ نَضَّاخَتَانِ — ٦٦ . فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ — ٦٧ . فِيهِمَا فَاكِهَةٌ وَنَخْلٌ وَرُمَّانٌ — ٦٨ . فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ — ٦٩ . فِيهِنَّ خَيْرَاتٌ حِسَانٌ — ٧٠ . فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ — ٧١ . حُورٌ مَقْصُورَاتٌ فِي الْخِيَامِ — ٧٢ . فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ — ٧٣ . لَمْ يَطْمِثْهُنَّ إِنْسٌ قَبْلَهُمْ وَلا جَانٌّ — ٧٤ . فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ — ٧٥ . مُتَّكِئِينَ عَلَى رَفْرَفٍ خُضْرٍ وَعَبْقَرِيٍّ حِسَانٍ — ٧٦ . فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ — ٧٧ . تَبَارَكَ اسْمُ رَبِّكَ ذِي الْجَلالِ وَالإِكْرَامِ — ٧٨ .

فـ « يرسل عليكما شواظ من نار ونحاس فلا تنتصران » ثم ولا فرار عن النار إلا بسلطان الجبـار على ضوء سلطان من التقوى ، ودون حاجة للنفوذ من هذه الأقطار !.

أم خروجاً من سلطان الله: ملكه وقدرته ؟ فلو كان بعد الأرض والسماوات مكان لم يكن إلا بسلطان الرحمان : « لا تنفذون إلا بسلطان » : في ملك الله وقبضته ، فما محاولة الخروج عن سلطان الله إلا محاولة جنونية مستحالة .

فسواء أكانت محاولة النفوذ من الأقطار يوم الدنيـا أم يوم الدين ، فـ « لا تنفذون إلا بسلطان » : فأين تطير هـذه الحشرة الهزيلة الذليلة ، وإلى أين ، أتحسبها تنجو من عذاب الرحمان ، أو تخرج عن سلطانه ؟ فلتنفذ من الأقطار كل الأقطار ، فهل تفر من النـــار ؟ « يرسل عليكما شواظ من نار ونحاس فلا تنتصران » لا إنتصار الفرار ، ولا إخماد النار ، ولا أي غلبٍ على العزيز الجبار ، فلماذا الفرار ؟!

إن شواظ النار : لسانها اللهيب الخالص الأخضر ، ترسل على الفارين ولو إلى أبعد الأقطار ، والنحاس هنا المذاب السائل من الصفر ، أو الدخان المتصاعد من النـار ، هما يرسلان عليكما ، ولا اليكما ، مما يوحي أن عذاب الله حاضر حاذر ولو خارج الأقطار ، لا يتطلب معونـة الإرسال الى الفار ، ولو استطاع الفرار ؟!.

فالسلطة الإلهية المطلقة هي من الآلاء ، وتحقيق العذاب على المستحقين من الآلاء ، وملاحقة الفارين عن العذاب من الآلاء ، عدلاً أو فضلاً من الرحمان : « فبأي آلاء ربكما تكذبان » فإن البلاء العدل على أهله من الآلاء الفضل على أهل الله .

« فاذا انشقت السماء فكانت وردة كالدهان . فبأي الاء ربكما تكذبان » :

إنشقاق السماء هو اختزامها وافتراقها عن التئامها وصلابتها :

باسرة » (٧٥ : ٢٣) وحتى إذا تكلفت بشاشة ونضارة ، فسيما الوجوه المجرمة معروفة عند أهله، وحتى يوم الدنيا، فالمؤمن ينظر بنور الله فيعرف المجرم بسيماه رغم نضارة النعمة وغزارة النهمة ، فكيف بيوم الطاعة ، إذ الوجوه باسرة ، ورجاسة السرائر في سيماهم ظاهرة، وعمال العذاب، الملائكة الموكلون به هناك، أنظر بنور الله من المؤمنين يوم الدنيا ، فيا له من مشهد عنيف ، ومع العنف الهوان ، إذ تؤخذ بالنواصي : الجباه ، والاقدام ، فيقذفون في النار ، مع كل هوان «فبأي آلاء ربكما تكذبان» إذ لا مغالطة في عرفان المجرمين ، فلا مخالطة لهم بالمؤمنين .

وإنما تؤخذ بالنواصي والاقدام حين ينتهي دور الشفاعة والغفران ، فإنها قبل إبرام الحكم وختام الأمر ، يوم البرزخ ، ويوم القيامة قبل الحساب، أو بينه وبين إبرام العذاب وكما يروى عن الرسول الأقدس (ص) [١] .

« هذه جهنم التي يكذب بها المجرمون. يطوفون بينها وبين حميم آن. فبأي آلاء ربكما تكذبان » :

« هذه جهنم » : نار شديدة التأجج « التي يكذب بهـا » بكونها وكيانها

---

(١) الدر المنثور ٦ : ١٤٥ — أخرج عبد الرزاق في المصنف عن رجل من كندة قال قلت لعائشة أسمعت رسول الله (ص) يقول : انه يأتي عليه ساعة لا يملك لأحد شفاعة ؟ قالت : نعم ، لقد سألته فقال : نعم ، حين يوضع الصراط وحين تبيض وجوه وتسود وجوه وعند الجسر حتى يشحذ حتى يكون مثل شفرة السيف ، ويسجر حتى يكون مثل الجمرة ، فأما المؤمن فيجيزه ولا يضره، وأما المنافق فينطلق حتى إذا كان في وسطه خر في قدميه يهوي بيديه إلى قدميه ، فهل رأيت من رجل يسعى حافياً فيؤخذ بشوكة حتى تكاد تنفذ قدميه ، فإنه كذلك يهوي بيديه إلى قدميه فيضربه الزباني بخطاف في ناصيته فيطرح في جهنم يهوي فيها خمسين عاماً ، فقلت : أيثقل ؟ قال : يثقل خمس خلفات فيومئذ يعرف المجرمون بسيماهم فيؤخذ بالنواصي والاقدام .

يشمل كل واحد ، لا كل اثنين أحدهما من الانس والآخر من الجان ، ومن مقام الرب قيامه الربوبي بالقسط : « شهد الله أنه لا إله إلا هو والملائكة وأولوا العلم قائماً بالقسط » (٣ : ١٨) وقيامه بما نكسب : « أفمن هو قائم على كل نفس بما كسبت» (١٣ : ٣٣) وقيامه بكل متطلبات الحياة : «الله لا إله إلا هو الحي القيوم » (٣ : ٢) قيامات قيمات : قسطاً في الحكم وقسطاً في استنساخ الأعمال ، وقسطاً في الجزاء، فليس خوف مقام الرب إلا من قسطه العدل –لا القسط الظلم– من قيامه بالشهادة والحساب والعذاب ، ثم ومن مقام الرب قيام العبد في موقف الحساب : « يوم يقوم الناس لرب العالمين » (٨٣ : ٦) فمن خاف مقام ربه ، ومقامه عند ربه – جنتان : فلتحق لخائفه جنتان «فبأي آلاء ربكما تكذبان».

ثم وكما الخوف من مقام الرب درجات كذلك جنتاه درجات ،ويعم درجات الخوف أن يتبنى حياته الخوف من مقام الرب ، دون اللامبالاة ، ومن أفضل الخائفين « من علم أن الله يراه ويسمع مايقول ويقول ويعلم ما يعمله من خير وشر فيحجزه ذلك عن القبيح من الأعمال [١] » ومن أدناهم من يقترف أحياناً بعض المعاصي ثم يتوب ، فهو من أهل الجنتين الدانيتين[٢].

---

(١) اصول الكافي عن أبي عبد الله (ع) في الآية .. ثم قال : فذلك الذي خاف مقام ربه ونهى النفس عن الهوى . وفي كتاب الجنة والنار عن جابر بن يزيد عن أبي جعفر الباقر (ع) في الآية : هو أن الرجل يهم على شهوة من شهوات الدنيا وهي معصية فيذكر مقام ربه فيدعها من مخافته ..

(٢) الدر المنثور ٦ : ١٤٦ – أخرج ابن أبي شيبة وأحمد وابن منيع والحكيم في نوادر الاصول والنسائي والبزاز وأبو يعلى وابن جرير وابن أبي حاتم وابن المنذر والطبراني وابن مردويه عن أبي الدرداء ان النبي (ص) قرء هذه الآية فقلت : وان زنى وان سرق يا رسول الله (ص) فقال النبى (ص) الثانية ولمن خاف مقام ربه جنتان فقلت وان زنى وان سرق فقال الثالثة ولمن خاف مقام ربه جنتان ، فقلت وان زنى وان سرق ، قال (ص) نعم وان رغم أنف ابن أبى الدرداء) أقول : تصديق هذه الرواية لا تناسب إلا للجنتين الاخريين . لا الأوليين العاليتين ، ولعل ذلك خطأ من الراوي ان النبى (ص) قرء آية العاليتين « ولمن خاف مقام ربه جنتان » أو إنما يناسب « ومن دونهما جنتان » .

ظواهرها ؟ إنها أحسن وأنضر من استبرق، ولا أنضر لنا يوم الدنيا من استبرق! « وجنا الجنتين » : أثمارهما المجتناة « دان » لا تكلّف إلا قطفاً من دون تكليف إلا طوعاً وعطفاً .

« فيهن قاصرات الطرف لم يطمثهن انس قبلهم ولا جان. فبأي آلاء ربكما تكذبان » .

قد توحي ضمير الجمع هنا دون التثنية المسبقة ، بأن الجنتين هناك هما الجسدانية والروحانية ، والنساء قاصرات الطرف لسن في جنة الرضوان، والجنة الاخرى لأهلها – ككل – جنات، وكما تتكرر فيما يلي « فيهن خيرات حسان » لا « فيهما » فلا تثنية إلا فيما يناسب جنة الرضوان .

فجنا جنة المعرفة دانٍ لأهلها، يجنونها من أشجارها، كجنا غيرها، وكذلك الأفنان ، وعينان تجريان ومن كل فاكهة زوجان .

فكما يتفكه الإنسان من فواكه بأكلها ، كذلك – واحرى – من فواكه تتفكه بها روحه ، وكما يتنضر من الأفنان الأغصان ، كذلك – واحرى – من مختلف أفنان المعرفة والرضوان، وكما يُشرب أو يُغمس في عين جارية بالأبدان، كذلك – واحرى – من عين المعرفة الفائضة بفضل الرحمان في جنة الرضوان ، « فبأي آلاء ربكما تكذبان » .

«فيهن» الجنات الجسدانية – بنات « قاصرات الطرف » من القصر الكمال، لا القصور النقص : فهن ، مقصورة أطرافهن على أزواجهن : أطراف العيون والقلوب ، فلا تهوي إحداهن إلا زوجها ، ولا تنظر إلا إليه [1]، فإنهن عفيفات

---

(١) الدر المنثور ٦ : ١٤٧ – أخرج ابن مردويه عن جعفر بن محمد عن أبيه عن جده عن النبي (ص) في الآية : لا ينظرن إلا إلى أزواجهن وفيه ١٥١ عن مجاهد في الآية قال : مقصورات قلوبهن وأبصارهن وأنفسهن على أزواجهن في خيام اللؤلؤ لا يرون غيرهن .

أحسنتم أحسنتم لأنفسكم وإن أسأتم فلها» (١٧: ٧) على أن الحسنة لنا من الله، فإنه الهادي للحسنى، مهما كان لنا حول في الإحسان، فـ « هل جزاء من أنعم الله عليه بالتوحيد والإسلام إلا الجنة »[١]؟ فليس يعني الإحسان إلا ايجاد الحسن والاتيان به على ضوء شريعة الله، أو العقل المؤيد بها، لا كل تراه حسناً كما تهواه، فإنه قد يكون إساءة، أو لا إساءة ولا إحساناً! فيا علينا للرحمان من امتنان فيما أحسن إلينا من آلاء فاضلة، ونعماء فاحلة يسميها جزاء الإحسان! « فبأي آلاء ربكما تكذبان »؟

ثم آية الإحسان لا تختص المسلمين الصالحين بجزاءهم يوم الدين، فإنها تعمهم والكافرين، كما تعم يوم الدنيا ويوم الدين، مهما كان من أفضله وأتمه للمؤمنين، ليوم الدين، وكما يروى عن الرسول (ص): أنزل عليّ هذه الآية سجلة في سورة الرحمان في المسلم والكافر سواء: « هل جزاء الإحسان إلا الإحسان »[٢]: سواءٌ يوم الدنيا لا يوم الدين.

فقد « جرت في الكافر والمؤمن والبر والفاجر سواء، ومن صنع إليه معروف فعليه أن يكافىء به، وليس المكافأة أن يصنع كما صنع حتى يربي، فإن صنعت كما صنع كان له الفضل بالابتداء »[٣].

---

(١) الدر المنثور ٦ : ١٤٩ – أخرجه بـ « الإسلام » ابن مردويه عن جابر بن عبد الله عنه (ص) و بـ (التوحيد) جماعة منهم ابن أبي حاتم وابن مردويه والبيهقي عن ابن عمر عنه (ص) والترمذي والبغوي والديلمي وابن النجار عن انس عنه (ص) وعبد بن حميد وابن المنذر وابن أبي حاتم وابن مردويه عن ابن عباس عنه (ص).

كما وأخرجه الصدوق في التوحيد عن موسى بن جعفر عن آبائه عن علي (ع) انه سمع النبي (ص) يقول:

(٢) الدر المنثور ٦ : ١٤٩ – أخرجه ابن عدي وأبو الشيخ وابن مردويه والبيهقي في شعب الايمان والديلمي عن ابن عباس قال: قال رسول الله (ص):

(٣) تفسير العياشي بإسناده عن أبي عبدالله (ع) يقول: آية في كتاب الله مسجلة: هي « هل جزاء الإحسان إلا الإحسان » جرت.

« مدهامتان . فبأي آلاء ربكما تكذبان » .

فهناك الاوليان فيهما ذواتا أفنان ، وهنا الاخريان فيهما مدهامتان : خضراوان [١] ضاربتان الى السواد ، فأين أفنان : أغصان مختلفة الألوان ، من : خضراوتان ؟.

« فيهما عينان نضاختان . فبأي آلاء ربكما تكذبان » .

فهناك عينان تجريان ، وهنا نضاختان : ناضبتان بالماء ، وهذا دون الجريان.

« فيهما فاكهة ونخل ورمان . فبأي آلاء ربكما تكذبان » .

فهناك « من كل فاكهة زوجان » ثانيهما غير متشابه ، وهنا « فاكهة ونخل ورمان » هي اولاهما المتشابه لما في الاولى ، دون غير المتشابه .

« فيهن خيرات حسان . فبأي آلاء ربكما تكذبان » .

فهنا خيرات حسان ، تقارف قاصرات الطرف في بعض الخيرات ، وتفارقها في البعض ومن المفارقات هنا :

« حور مقصورات في الخيام . فبأي آلاء ربكما تكذبان » .

هنا مقصورات الطرف بقصر أزواجهن لهن وقصر الخيام ، وهناك قاصرات الطرف من ذواتهن دون قصر الأزواج ولا قصر الخيام ، فأين اذاً مقصورات من قاصرات ؟! فهذه من المفارقات ومن ثم المقارفات :

« لم يطمثهن انس قبلهم ولا جان . فبأي آلاء ربكما تكذبان » .

ولأن الطمث – أياً كان – هو نقص الانثى ، فـــلا يناسب الاحسان ولا الحسان في الجنان ، اللهم إلا هامشياً لمن يتذوقها .

---

(١) الدر المنثور ٦ : ١٤٩ ، أخرج الطبراني وابن مردويه عن أبي أيوب الأنصاري قال سألت النبي عن قوله : مدهامتان ، قال : خضراوان .

الأبسطة – خضر ، علّها الاستبرق التي كانت بطائن الفرش هناك ، أو فضول المجالس[١] .

وعبقري حسان : نادرة حسنة : زرابي أو طنافس أو ثياباً موشاة أو الديباج،أو أية حسان نادرة،فأين جنتان وجنتان «فبأي آلاء ربكما تكذبان».

(تبارك اسم ربك ذو الجلال والاكرام) .

أجمل ختام لسورة الرحمان، قد يكون الاسم المتبارك فيه أيضاً هو الرحمان، الذي افتتحت به سورة الرحمان، خير بداية وخير ختام، ولأن الآلاء المستعرضة فيها وسواها ، كلها من رحمـــة الرحمان ، أكانت رحمانية أم رحيمية فهو اسم ربوبي من أشمله الرحمان ، ويا له من اسم متبارك الكيان في كل زمان ومكان ، ويا لمسماه من جلال وإكرام ، جلال في ذاته وصفاته ، وإكرام برحمته وجلاله لمخلوقاته !.

مرکز تحقیقات کامپیوتری علوم اسلامی

(١) الدر المنثور ٦ : ١٥٢ ، أخرج عبد بن حميد عن علي بن أبي طالب .

وَحُورٌ عِينٌ ــ ٢٢ . كَأَمْثَالِ ٱللُّؤْلُوءِ الْمَكْنُونِ ــ ٢٣ . جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ــ ٢٤ . لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْواً وَلَا تَأْثِيماً ــ ٢٥ . إِلاَّ قِيلاً سَلاَماً سَلاَماً ــ ٢٦ . وَأَصْحَابُ ٱلْيَمِينِ ، مَا أَصْحَابُ ٱلْيَمِينِ ــ ٢٧ . فِي سِدْرٍ مَخْضُودٍ ــ ٢٨ . وَطَلْحٍ مَنْضُودٍ ــ ٢٩ . وَظِلٍّ مَمْدُودٍ ــ ٣٠ . وَمَاءٍ مَسْكُوبٍ ــ ٣١ . وَفَاكِهَةٍ كَثِيرَةٍ ــ ٣٢ . لَا مَقْطُوعَةٍ وَلَا مَمْنُوعَةٍ ــ ٣٣ . وَفُرُشٍ مَرْفُوعَةٍ ــ ٣٤ . إِنَّا أَنْشَأْنَاهُنَّ إِنْشَاءً ــ ٣٥ . فَجَعَلْنَاهُنَّ أَبْكَاراً ــ ٣٦ . عُرُباً أَتْرَاباً ــ ٣٧ . لِأَصْحَابِ ٱلْيَمِينِ ــ ٣٨ . ثُلَّةٌ مِّنَ ٱلْأَوَّلِينَ ــ ٣٩ . وَثُلَّةٌ مِّنَ ٱلْآخِرِينَ ــ ٤٠ . وَأَصْحَابُ ٱلشِّمَالِ مَا أَصْحَابُ ٱلشِّمَالِ ــ ٤١ . فِي سَمُومٍ وَحَمِيمٍ ــ ٤٢ . وَظِلٍّ مِّنْ يَحْمُومٍ ــ ٤٣ . لَا بَارِدٍ وَلَا كَرِيمٍ ــ ٤٤ . إِنَّهُمْ كَانُوا قَبْلَ ذَٰلِكَ مُتْرَفِينَ ــ ٤٥ . وَكَانُوا يُصِرُّونَ عَلَى الْحِنْثِ ٱلْعَظِيمِ ــ ٤٦ . وَكَانُوا يَقُولُونَ أَئِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَاباً وَعِظَاماً ءَإِنَّا لَمَبْعُوثُونَ ــ ٤٧ . أَوَ آبَاؤُنَا ٱلْأَوَّلُونَ ٤٨ . قُلْ إِنَّ ٱلْأَوَّلِينَ وَالْآخِرِينَ ــ ٤٩ . لَمَجْمُوعُونَ إِلَىٰ مِيقَاتِ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ ــ ٥٠ . ثُمَّ إِنَّكُمْ أَيُّهَا ٱلضَّالُّونَ الْمُكَذِّبُونَ ــ ٥١ .

ثم « خافضة رافعة » قد تكون وصفاً لـ « كاذبة » : الذي يكذب بها خفضاً لها عن دورها الموعود ، في الحساب العدل والعقاب ، والفضل والثواب ، أو رفعاً لها عن الكيان والوجود : أن لا قيامة فلا حساب ، فلا ثواب ولا عقاب!.

أو أنها خبر محذوف المبتدء: « هي خافضة رافعة »: خافضة أقواماً ترفّعوا يوم الدنيا دونما حق أو صلاحية فرفضتهم إلى النار وبئس القرار ،ورافعة آخرين تنزلوا عما يحق لهم ، فرفعتهم إلى الجنة[1] ونعم القرار ، ولأن الواقعة ظاهرة حق وحساب دون الدنيا الفوضى اللاحساب !.

أو أن الوصفين تشملان الواقعة والكاذبة بالمعنيين ، فقد تتحملها الجملة أدبياً ومعنوياً : فلا كاذبة للواقعة خفضاً ولا رفعاً ، بل هي خافضة لمكذبيها رافعة لمصدقيها .

وقد يتخطى نفي الكاذبة لها يومَ الواقعة ، إلى ما قبلها ، أن تكون « ليس لوقعتها كاذبة » وصفاً للواقعة قبل وقوعها[2] كما تصفها ليوم وقوعها : أن ليس لوقعة الواقعة قبلها ، من يبالغ في التكذيب بها يوم الدنيا ، كما ليس لها كاذبة يومها ، سواء ، إذ لا سناد لمكذبيها يبالغون به في تكذيبها، إلا ظنوناً وأوهاماً لا تملك إلا التشكيك بها ، لا التأكيد من عدم وقوعها ، وهذا ما يبرر المبالغة في الكاذبة ، إذ لا يكذب بها الواقع فيها ، المتواجد عندها ، فضلاً عن أن يبالغ في تكذيبها ، حتى يبرر نفي المبالغة .

---

(١) الخصال للصدوق عن الزهري قال : سمعت علي بن الحسين عليه السلام يقول في الآية : خافضة خفضت والله بأعداء الله في النار ، رافعة رفعت والله أولياء الله إلى الجنة .

وفي الدر المنثور ٦ : ١٥٣ عن محمد بن كعب : تخفض رجالاً كانوا في الدنيا مترفعين وترفع رجالاً كانوا في الدنيا منخفضين ، ومثله عن السدي وقتادة .

(٢) ذلك وإن كانت الجملة منكرة لا تأتي وصفاً إلا لنكرة، فان الواقعة أيضاً ليست معرفة حيث اللام فيها ليست تعريفاً ، وإنما هي موصول ، كما يقال : الذي يقع ، ترى الجملة هذه معرفة أم نكرة ؟.

« إذا رُجت الأرض رَجّاً . وبُسّت الجبال بَساً . فكانت هباء منبثاً » .

... نموذج من مواصفات الواقعة في الأرض والجبـــال ، فرجرجة الأرض واضطرابها ، وانبساس الجبال وهباءها ، هذا وذاك من مئات المئات من واقعات الواقعة التي تشمل الأرض والسماوات ، فلا تبقي ولا تذر .

إن للأرض رجفات أربع ورجرجات: دائبة هي حركاتها المتداخلة المعدّلة، وموضعيته هي زلازلها قبل الواقعة، ومدمرة هي رجة الإماتة كما هنا ، ومعمرة هي رجة الإحياء بعدها، ورجة الإماتة هي الهائلة المخوفة ، كما توحي لها «رجّاً» تعني عظيماً مهولاً ، محولاً للأرض إلى غير الأرض : « يوم تبدّل الأرض غير الأرض والسماوات » [1] .

وبسّ الجبال إرساءها وتسييرها — « فكانت هباء »: ذرات في الهواء[2] — وتفتيتها وبثّها فكانت «منبثاً» كالعهن المنفوش ، أفهذه الجبال الراسية تتحول هباء ، بعد ما رست قواعدها في الأرض، وعلت رؤوسها في الهواء ؟ أجل ومع الأرض والجبال السماء .

ترى ثم ماذا بعد قيامة التدمير ؟ انهـــا قيامة الإحياء والتعمير ، وانقسام المكلفين الى أزواج ثلاث ، حسب الأعمال والقابليات :

« وكنتم أزواجاً ثلاثة » : أقراناً تحشرون إلى الساهرة جنب بعض ، وإنما تتلثّكم سيرة مفارقات الأعمال والنيات ، دون أن ينظر إلى صورة الأشكال أو مفارقات الأعمال ولمّا .

---

(١) راجع تفسير سورة الزلزال ج ٣، ص ٤٠٦ — ٤٠٧ .

(٢) الدر المنثور ٦ : ١٦ أخرج عبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر عن علي بن أبي طالب (ع) قال : الهباء المنبث رهج الذرات ، والهباء المنثور غبار الشمس الذي تراه في شعاع الكوة .

ترى لأن الثاني خبر الأول ؟ ومن شأن الخبر التنكير : « سابقون » وأن يفيد ، وما هي افادة حمل الشيء على نفسه ، حملا ذاتياً أولياً لا يُعنى إلا في المنطقيات دون المعرفيات ! أو انه وصف له ؟ فكذلك الأمر ! فالوصف يزيد الموصوف معناً ، لا أن يكرره دون معنى ولا جدوى ! أو أنهما وصفان للزوج الثالث من « أزواجاً ثلاثة » فالأول يعني السبق في الاولى ، والثاني سبق الاخرى نتيجة الاولى جزاء الحسنى بالحسنى ؟ فهذا ما يقتضيه أدب اللفظ والمعنى ، فالسابقون بالخيرات : « ومنهم سابق بالخيرات بإذن الله » (٣٢:٣٥) إيماناً وعملا صالحاً في الاولى ، هم السابقون بالخيرات جزاء فضلا في الاخرى : « الذين يسارعون في الخيرات وهم لها سابقون » (٢٣ : ٦١) فهم في صراع الحق والباطل سراع الى الحق وسبّاق اليه دون مماطلة ومماهلة ، ولا تلعثم وتوان فـ « اولئك المقربون » إلى الله زلفى ، أئمة الهدى ، بدوّامة التقى ، فلهم العقبى الحسنى كما أحسنوا في الاولى .

فالسابقون سبقوا أصحاب الميمنة في كافة ميادين سباق التقوى حالاً ومقالاً وإيماناً ، من حمل الرسالات الإلهية أصالة بالوحي ، أو خلافة عن أصحاب الوحي ، ومن سنّ السنن الحسنة التي ظلت سبلا للخيرات لأهل الخيرات ، ومن أي سباق في أية صبغة إلهية [١] فأصبحوا هم المقربين لهم الأرواح العليا [٢] ،

---

(١) كالسباق الى اجابة دعوات المرسلين، كما في الدر المنثور ٦ : ١٥٤ أخرج ابن أبي حاتم وابن مردويه عن ابن عباس في آية « السابقون » قال : يوشع بن نون سبق الى موسى ، ومؤمن آل ياسين سبق الى عيسى ، وعلي بن أبي طالب سبق الى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ، وفيه عنه انها نزلت فيهم وكل رجل منهم سابق امته وعلي أفضلهم سبقاً .

(٢) في أمالي الشيخ المفيد عن أمير المؤمنين عليه السلام في آية السابقين : « فأما ما ذكره من أمر السابقين فانهم أنبياء مرسلون وغير مرسلين جعل فيهم خمسة أرواح : روح القدس وروح الايمان وروح القوة وروح الشهوة وروح البدن،فبروح القدس بعثوا أنبياء مرسلين وغير=

كالأولين ، فالمقربون منهم قلة دون الأولين ، فأين عدد النبيين السابقين ، وهم أئمة السابقين الأولين ، وأين هم المعصومون في هذه الامة وهم أئمة السابقين الآخرين ؟ ومن ثم أوصياء كلّ والأوفياء من أصحاب كلّ ، السابقين الى الإيمان برسالاتهم ، أين هم بجنب الأوصياء الاثني عشر في هذه الامة ، والأوفياء السابقين القمة فيهم؟! مهما كان السابقون القلة أعظم درجة من السابقين الثلة وأتم عدداً ، ولكن هؤلاء أكثر عدداً .

إذاً فالسابقون السابقون ، هم ثلة من الأولين وقلة من الآخرين ، ولقد اصطلحت « الآخرون » لأهل الرسالة الأخيرة ، كما ان رسولها رسول الساعة ، ورسول آخر الزمن ، وامتها هي الامة الأخيرة ، وانعطافاً الى سائر آيات الأولين والآخرين : « قل إن الأولين والآخرين لمجموعون الى ميقات يوم معلوم » (٥٦ : ٤٩) كما وأن استعراض أحوال القيامة ، الشاملة لأهل الجمع أجمع يشهد لهكذا تفسير ، ذلك ، وكما يشهد له أئمة السابقين الآخرين صلوات الله عليهم

= عبدالله رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فيقوم عمرو بن الحمق الخزاعي ومحمد بن أبي بكر وميثم بن يحي التمار مولى بني اسد واويس القرني ، قال : ثم ينادي المنادي : أين حواري الحسن ابن علي ابن فاطمة بنت محمد بن عبدالله رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم؟ فيقوم سفيان بن ليلى الهمداني وحذيفة بن اسيد الغفاري ، قال : ثم ينادي : أين حواري الحسين بن علي ؟ فيقوم من استشهد معه ولم يتخلف عليه ، قال : ثم ينادي : أين حواري علي بن الحسين ، فيقوم جبير بن مطعم ويحي بن ام الطويل وأبو خالد الكابلي وسعيد بن المسيب ، ثم ينادي : أين حواري محمد ابن علي وحواري جعفر بن محمد عليهما السلام ، فيقوم عبدالله بن شريك العامري وزرارة بن اعين وبريد بن معاوية العجلي ومحمد بن مسلم وأبو بصير ليث المرادي وعبدالله بن أبي يعفور وعامر بن عبدالله بن جذاعة وحجر بن زائدة وحمران بن اعين ، ثم ينادي سائر الشيعة مع سائر الأئمة عليهم السلام يوم القيامة فهؤلاء أول السابقين وأول المقربين وأول المتحوبين من التابعين .

أقول : والمذكورون ليسوا هم الحاصرون ، وإنما القمة منهم ، أو أن هناك مهمة دعت الى اختصاصهم بالذكر .

ثم ترى أهم من ولد المقربين ، ولكي لا يكونوا مهانين بما يخدمون ؟ علهم هم : « ويطوف عليهم غلمان لهم كأنهم لؤلؤ مكنون » (٥٢ : ٢٤) إذ توحي اللام باختصاصهم بهم ، أم انهم اختصوا بالمقربين دونما قرابة بينهم ، وليس في تطوافهم عليهم تطفيف عن شأنهم وإنما ترفيع ولا تخفيف ، ولا سيما من كان منهم من ولد المشركين وكما يروى .

ثم ويكون طوافهم « بأكواب » : أقداح ، « أكواب كانت قواريراً . قوارير من فضة قدّروها تقديراً » (٧٦ : ١٥) .

« وأباريق » : آنية لها خراطيم وعُرى ، كلٌ لما يناسبه من شراب « وكأس من معين » : خمر هي مأخوذة من عين جارية متلمعة : « يطاف عليهم بكأس من معين . بيضاء لذة للشاربين. لا فيها غول ولا هم عنها ينزفون » (٣٧ : ٤٧)[1].

« لا يصدعون عنها » : صداع الرأس « ولا ينخرفون » : فراغ العقل .

« وفاكهة مما يتخيرون . ولحم طير مما يشتهون . وحور عين كأمثال اللؤلؤ المكنون جزاء بما كانوا يعملون » .

فاكهة حسب التخير : انتخاباً لأحسنها تفكهاً ، ولحم طير من أي نوع يشتهون ، وبأية طبخة يريدون ، أو انطباخة دون طبخ ، فالفاكهة تُختار لأنها عند الشبع ، واللحم يشتهى ، فانه عند الجوع ، فليس تعبير الاختيار والإشتهاء ، اشتهاءٌ فوضى في التعبير ، وإنما اختيار ببلاغة العليم الخبير .

« وحور عين » : جمع عيناء : واسعة العيون الجميلة ، تحير الناظر اليها . « كأمثال اللؤلؤ المكنون » المصون عن كل لمسة ونظرة ، أو أية عارضة ، لم تثقبه يد ، ولم تخدشه عين ، كذلك الحور العين إذ « لم يطمثهن انس قبلهم ولا جان » ويزيدهن لطفاً انهن طائفات حول أزواجهن[2] .

---

(١) راجع ص ٢٢٧ ج ٣٠ من التفسير : خمر الدنيا والآخرة .

(٢) لأن «وحور عين» عطف عل «ولدان مخلدون» يطوف عليهم ولدان مخلدون وحور عين.

بأسمائه الحسنى وصفاته العليا ، وهل يأنس المقربون – وفي جنة الرضوان – إلا بقيلات تقربهم زلفى الى الحنان المنان ؟

ومن قيله محاوراتهم فيما بينهم وسواهم من أهل الجنان ، أنيسة حنونة أليفة ليس فيها إلا سلام سلام ، فهم يَسمعون سلام كما يُسمعون سلام !.

وترى ما هو وجه التكرار في « سلاماً » ؟ قد يكون رمزاً الى مختلف السلام من الله ومن أهل دار السلام ، أو انه سلام لا يحمل ساماً كما في سلام المنافقين والذين في قلوبهم مرض ، وإنما سلام يحمل سلاماً بكل ما له من معنى صادق لائق ، وقد يكونان هما المعنيّان .

ثم ومن هنا نتبين أن « سلاماً » خير تحية وإكرام ، فلنستنّ بسنة أهل الجنة هنا فيسلم بعضنا على بعض .

« **وأصحاب اليمين ما أصحاب اليمين** » : هم أصحاب الميمنة المسبقين ، يؤتون كتابهم بيمينهم وكما عاشوا يمين الكتاب والدين ، وترى كيف سموا « أصحاب الميمنة » عند ذكر الأقسام ، و « أصحاب اليمين » عند ذكر الإنعام؟ علّه لأن الميمنة هي سبب اليمين ، فلولا ميمنة الدنيا ويمنها بيمينها ، لم يؤتوا في الاخرى كتابهم بيمينهم ، كما لولا مشأمة المشئومين يوم الدنيا لم يؤتوا كتابهم بشمالهم أو وراء ظهورهم .

ثم وأصحاب اليمين لهم درجة بعد السابقين ، ترى « ما أصحاب اليمين » في حالهم وحلهم وترحالهم ؟.

« **في سدر مخضود** »: شجر النبق « يخضده الله من شوكه »[1] فيستظل به

(١) الدر المنثور ٦ : ١٥٦ ، أخرج الحاكم وصححه البيهقي في البعث عن أبي أمامة قال كان أصحاب رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يقولون : ان الله ينفعنا بالأعراب ومسائلهم ، أقبل أعرابي يوماً فقال يا رسول الله ! لقد ذكر الله في القرآن شجرة مؤذية وما كنت أرى أن في الجنة شجرة تؤذي صاحبها، فقال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وما هي؟قال: السدر =

الثمر والورق ، قرناً إلى قدم ، ثم نضد أغراسه ، فهو في مثلث النضد : بعضه على بعض ، وهو فاكهة وإدام مع بعض ! وما ألطفه أكلاً وهو حار الطبع ، تحت سدر مخضود وهو بارد الطبع .

« **وظل ممدود** » : « وندخلهم ظلاً ظليلاً » (٤ : ٥٧) فهو ظليل ممدود ، منبسط لا يتقلّص ، دائم لا تنسخه أو تتفرج به شمس أو سواها ، بسقف وأشجار وخيام أم ماذا ؟ مما يدل – مع سدر مخضور – على وجود الشمس في الجنة ، هذه التي تكور ثم ترجع ، أم سواها من شمس يستظل عنها أهل الجنة فيها فـ « لا يرون فيها شمساً ولا زمهريراً » (٧٦ : ١٣) .

« **وماءٍ مسكوب** » : مصبوب من علٍ دون انقطاع ، أو جارٍ في الأنهار نابعة دون أخاديد وأحفار .

« **وفاكهة كثيرة . لا مقطوعة ولا ممنوعة** » : كثيرة الطعوم والألوان ، وكثيرة الأنواع والأعداد ، وكثيرة المدة والمدى دون انقطاع ولا امتناع ، لا تقطع لأنها من الرحمة الواسعة اللامحدودة ، ولا تمنع ، ولماذا تمنع ؟ أبخلاً من المضيف ؟ أم مرضاً من الضيف ؟ فلا بخل أبداً ، ولا مرض هناك .

ومن « ظل ممدود » وأحرى – ظل الله الممدود على أهل الله في دار كرامة الله : (ألم ترَ إلى ربك كيف مد الظل) (٢٥ : ٤٥) ومن « ماء مسكوب » اصول العلم الإلهي التي بها حياة أهل الجنة الروحانية ، ومن (فاكهة ..) فاكهة المعرفة والعلم ، التي يتفكه بها أهلوها[١] .

---

(١) روى سعد بن عبد الله القمي باسناده عن نصر بن قابوس قال : سألت أبي عبد الله (ع) عن قول الله عز وجل « وظل ممدود وفاكهة كثيرة لا مقطوعة ولا ممنوعة » قال : يا نصر ! كانه والله ليس حيث يذهب الناس ، إنما هو العلم وما يخرج منه . أقول : إنه من باب بيان أفضل المصاديق وأخفاها .

انس قبلهم ولا جان » إذاً فهن سواء في خلود البكورة بما أنشأهن الله فجعلهن أبكاراً ، ومن ثم :

« عرباً أترابـاً » .. « وعنـدهم قاصرات الطرف أتراب » (٣٨ : ٥٢) « وكواعب أتراباً » (٧٨ : ٣٣) فما هي العرب وما هي الأتراب ؟

فالعرب جمع عَروبة وهي المعرِبة بجمالها وأقوالها عن عفافها وتعشقها لزوجها فهن المتعشقات لهم والمتغنجات ، الجاذبات لهم والمنجذبات المتغزلات :

يعربن عند بعولتهن إذا خلوا وإذا هم خرجوا فهن خفـار

فهن عُرُب بكافة مظاهر الزوجية ومآربها ومعاربها ، وبكافة مزاهر الجمال مع أزواجهن ، وخفار مع سواهم ، ومن عُرب مقالهن عربية كلامهن ولغتهن [1] فإنها أجمل اللغات ، وهي لغـــة أهل الجنة ، فهن عُرُب في الأقوال والأعمال والأحوال !

والأتراب هن لِدات منشآت مع بعض، مماثلات متوافيات السن والجمال مع لداتهن، ومع أزواجهن، متكافآت معهم في شؤون الزوجية ، عبر عنهن بالاتراب لمماثلتهن التراثب : ضلوع الصدر المتقاربات المتقاربات : « أنشأناهن » :

« عرباً أترابـاً لأصحاب اليمين » فهن أتراب لأصحاب اليمين كما هن أتراب مع بعض ، وترب العمر بـين الزوجين وإن كان مرغوباً عنه في الدنيا ، ولكنه مرغوب فيه في الاخرى، لبقاءهما على حالها هناك، وتغيرهما عن أحوالها هنا [2].

---

(١) الدر المنثور ٦ : ١٥٩ – أخرج ابن أبي حـاتم عن جعفر بن محمد عن أبيه رضي الله عنه قال : قال رسول الله (ص) في قوله عرباً : قـال : كلامهن عربي ، وفي كتاب صفة الجنة والنار عن جابر بن يزيد عن أبي جعفر (ع) في حديث أوصاف أهـل الجنة : صاروا .. وعلى لسان محمد العربية .

(٢) ان مماثلة العمر بين القرناء من المرغوب فيه مبدئياً ، كتقارب العقلية والفكر كتقارب الجسم ، وكونها مرغوباً عنها بين الزوجين إنما هو باعتبار المستقبل حيث يستقبلان الشيخوخة ، والمرأة أسرع فيها ، والرجل بحاجة دائماً إلى شابة تؤنسه، وأما إذا بقيا في عنفوان العمر فالمماثلة مرغوب فيها دون ريب .

ثلة الآخرين : أصحاب اليمين ، ان الامة الإسلامية ككلّ اكثر عدداً من سائر الامم ، فأطول زمناً منهم ، فدور الرسالات الواجدة برسلها بين الامم ، اكثر انتاجاً من دور الفترة الرسالية ، وإذا كان أصحاب اليمين من الرسالة الأخيرة ثلة كالأولين ، من حيث العدد ، فليكن الأولون قلة من حيث الزمن يجنبهم ، أو ان اكثر الثلة في الدولة الأخيرة الإسلامية المهدوية ، فلا تتطلب هذه الثلة زمناً أطول ، فبالإمكان أن يكون زمن الأولين أطول من زمن الآخرين ، لا ندري !

« **وأصحاب الشمال ما أصحاب الشمال** » ؟ وقد يكفي تعريفاً بهم انهم أصحاب المشأمة الشمال ، إذ يؤتون كتبهم بشمائلهم إمارة السقوط ، كما يؤتى أصحاب اليمين بأيمانهم علامة النجاح ، وثم هنا الإجابة عن « أين مكانهم في القيامة » :

« **في سموم وحميم . وظلّ من يحموم . لا بارد ولا كريم** » :

« في سموم » فالسَمّ والسُمّ كل ثقب ضيق كسم الخياط ، فالسموم هو النار والريح ، الحاملتا السُمّ ، لطيفتا التأثير ومبالغتاه ، تدخلان البواطن ثقباً ونقباً ، فالهواء هناك ساخنة هباء تنفذ المسام بشواظ سامّة فتشوي الأجسام ، فكيف إذاً النار !

ثم الماء هناك « حميم » كالنار ، لا يبرد ولا يروي ولا يغني من اللهب ، لأنه نفسه لهب ، وإذا كان المتسمم المحموم قد يخف عن سمّه وحمّه بظلّ ، فلهؤلاء المناكيد « وظل من يحموم » : دخان لافح خانق : « لا ظليل ولا يغني من اللهب » (٧٧ : ٣١) « لا بارد » يخفف عن وطأ السموم والحميم « ولا كريم » معتدل قد يعدل من شظا حمّته ، أو يخففه عن قمته ، وإنما يزيده تسمماً وخنقاً – ولماذا هذا العذاب الخناق : ؟ لـ :

« **انهم كانوا قبل ذلك مترفين . وكانوا يصرون على الحنث العظيم . وكانوا**

ومما يدفعهم إلى الترف اصرارهم على الخلف والنقض العظيم: «وكانوا يصرون على الحنث العظيم» فالحنث هو الخلف وهو النقض وهو الميـــل عن الحق إلى الباطل، والقول غير الحق، والذنب، فالحنث العظيم هو العظيم من كلّ، ولا أعظم من نكران وجود الله، والشرك بالله، وتكذيب رسالات الله، ونكران يوم الله.

ان حنث نكران القيامة هنا مفرد بالذكر، ولأن الأصل في نكران سواه إنكاره لا سواه، ولكي يخلصوا عن عبء التكاليف الإلهية.

فنكران الالوهية الحقـــة حنث عظيم بكل معانيه الخمسة: فهو خلفٌ للفطرة التي فطر الله الناس عليها، ونقض لميثاق الفطرة وحكم العقل، وميل عن الحق الذي تتوفر له كافـة البراهين، إلى الباطل الذي ترفضه كل البراهين، فهو قول بغـــير حق، وذنب عظيم لا أعظم منه، وكما يتلوه متفرعاً عليه حنث نكران الرسالات ونكران يوم القيام.

هؤلاء المترفون، كان حياتهم الترف، والاصرار على الحنث العظيم، ومنه نكران اليوم العظيم: **«وكانوا يقولون أإذا متنا وكنا تراباً أإنا لمبعوثون. أو آباءنا الأولون. قل ان الأولين والآخرين لمجموعون إلى ميقات يوم معلوم».**

تقوّل عن استبعاد وبكل اصرار واستبداد: (أإذا متنا) وصرنا تراباً، ثم مضى زمن بعيد عن الكينونة الترابية: (وكنا تراباً) فبعد هـذه المدة وهذا التحول (أإنا لمبعوثون) كما كنا من قبل: تنكـّر للبعث المؤكد المشار إليه باللام (لـ) تأكيداً للنفي، مقابلة الاصرار بالاصرار! (أو آباءنا الأولون) الذين هم أبعد منا زمناً، فهم في أمر مريج من ثالوث الاستبعاد: بُعدين زمنيين بَعد بُعد أصل البعث [1].

---

(١) اقنومه الأول الموت والثاني الكينونة الترابية الماضي عليها زمن يعبد لهم. والثالث لمن هو أبعد منهم زمناً: آباؤهم الأولون.

أفصبراً على الجوع المنهك المهلك ولحد الموت ؟ فـلا موت هنا ولا فوت ، أم لو قدر على الصبر فلا يطعم الزقوم ؟ إنه طعامه شاء أم أبى ! فليس طعام الإكرام حتى يختار ، إنه طعام العقاب فلا بد منه ولو يختار ، وكذلك طعام الدوام في العذاب فليأكله بالاجبـار ، فالضالون المكذبون إذاً بين واجبين أمـام ذلك الطعام ، ذاتي ضرورة الحاجة إلى الأكل ، ومفروض ضرورة العقاب والبقاء إلى أجل مفروض .

ومما يوحي باضطرارهم الثاني في أكله (فمالئون منها البطون) فالأولي منه يفرض ما يبقي الرمق لأملأ البطون .

ثم أن ثالوث : حرارة الجحيم ، وشائكة الزقوم للحلوق والبطون ، وملأ البطون ، لتدفع إلى الماء ، فترى ماذا يشربون ؟ :

« **فشاربون عليه من الحميم** » : الماء البالغ الحرارة : (وسقوا ماء حميماً فقطع أمعاءهم) (٤٧ : ١٥) وبعدما تقطعت وتفسخت بالزقوم ، عذاباً فوق العذاب ، وترى — إذاً — يشربون منه قليلاً ؟ كلا :

« **فشاربون شرب الهيم** » : الهُيام داء يأخذ الابل من العطش [١] ، فالهيم هي الابل المراض المصابة بداء الإستسقاء وفي الرمضاء ، إذ لا تكاد ترتوي من الماء ، فهم — إذاً — بطونهم مليئـة من الزقوم ثم من الحميم ، عذاباً دائبـاً لا يخف ، ولا يخفف عن العطش والجوع ، رغم ملىء الطعـــام وملىء الشراب دونما انقطاع .

---

(١) وقد يسمى كل من ، أو ما يشرب الماء الكثير ، هيماً كتلال الرمول الساخنة من حر الشمس ، فإنها أيضاً هيم لا ترى من الماء ، وكما يروى عن الإمام الصادق (ع) قال : ثلاثـة أنفاس في الشراب أفضل من نفس واحدة في الشرب، ويكره أن يشبه بالهيم — قيل وما الهيم؟ قال : الرمل ، وفي نقل آخر عنه : هي الابل ، وهو الموافق لأصل اللغة .

مَحْرُومُونَ ـ ٦٧ . أَفَرَأَيْتُمُ ٱلْمَاءَ ٱلَّذِي تَشْرَبُونَ ـ ٦٨ . ءَأَنتُمْ أَنزَلْتُمُوهُ مِنَ ٱلْمُزْنِ أَمْ نَحْنُ ٱلْمُنزِلُونَ ـ ٦٩ . لَوْ نَشَاءُ جَعَلْنَاهُ أُجَاجاً فَلَوْلاَ تَشْكُرُونَ ـ ٧٠ . أَفَرَأَيْتُمُ ٱلنَّارَ ٱلَّتِي تُورُونَ ـ ٧١ . ءَأَنتُمْ أَنشَأْتُمْ شَجَرَتَهَا أَمْ نَحْنُ ٱلْمُنشِئُونَ ـ ٧٢ . نَحْنُ جَعَلْنَاهَا تَذْكِرَةً وَمَتَاعاً لِلْمُقْوِينَ ـ ٧٣ . فَسَبِّحْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلْعَظِيمِ ـ ٧٤ . فَلَا أُقْسِمُ بِمَوَاقِعِ ٱلنُّجُومِ ـ ٧٥ . وَإِنَّهُ لَقَسَمٌ لَوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ ـ ٧٦ . إِنَّهُ لَقُرْآنٌ كَرِيمٌ ـ ٧٧ . فِي كِتَابٍ مَكْنُونٍ ـ ٧٨ . لَا يَمَسُّهُ إِلَّا ٱلْمُطَهَّرُونَ ـ ٧٩ . تَنْزِيلٌ مِنْ رَبِّ ٱلْعَالَمِينَ ـ ٨٠ . أَفَبِهَذَا ٱلْحَدِيثِ أَنتُمْ مُدْهِنُونَ ـ ٨١ . وَتَجْعَلُونَ رِزْقَكُمْ أَنَّكُمْ تُكَذِّبُونَ ـ ٨٢ . فَلَوْلاَ إِذَا بَلَغَتِ ٱلْحُلْقُومَ ـ ٨٣ . وَأَنتُمْ حِينَئِذٍ تَنظُرُونَ ـ ٨٤ . وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنكُمْ وَلَكِنْ لَا تُبْصِرُونَ ـ ٨٥ . فَلَوْلاَ إِنْ كُنتُمْ غَيْرَ مَدِينِينَ ـ ٨٦ . تَرْجِعُونَهَا إِنْ كُنتُمْ صَادِقِينَ ـ ٨٧ . فَأَمَّا إِنْ كَانَ مِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ ـ ٨٨ . فَرَوْحٌ وَرَيْحَانٌ وَجَنَّةُ نَعِيمٍ ـ ٨٩ . وَأَمَّا إِنْ كَانَ مِنْ أَصْحَابِ ٱلْيَمِينِ ـ ٩٠ . فَسَلَامٌ لَكَ مِنْ أَصْحَابِ ٱلْيَمِينِ ـ ٩١ . وَأَمَّا إِنْ كَانَ مِنَ ٱلْمُكَذِّبِينَ ٱلضَّالِّينَ ـ ٩٢ . فَنُزُلٌ مِنْ حَمِيمٍ ـ ٩٣ .

فتصديق المعـــاد الحساب الجزاء واجب في أُطر أربع : إمكانية : المماثلة، إمكانية : الأولوية ، الضرورة ذاتياً عقلاً وعـــدلاً ، والضرورة الوعدية « فلولا تصدقون » ؟!

هذه هي سنة الله في خلق الإيمـان الصادق باستعراض المواد الأولية للكون وإرجاعنا إليها في خلقها وتطويرها ، ولكي نتخطى من التفكير فيها إلى مـــا يتوجب علينا تصديقه ، وكما يخلق هـــذا الكون الغامض من مواده الأولية البسيطة .. دون أن يكلفنا الخوض في فلسفات معقدة بعيدة عن الأفكار ، غريبة الأوطار ، فـــإن شريعة الله لا تخص الفلاسفة العقليين ولا التجريبيين ، بل هي شاملة للجنة والناس أجمعين ، كلٌ يعرفها بقدره ، ويستدل لهـا بقدره ، كالمـــاء والهواء المستفيد منهما الناس في أُطر على سواء ، وفي أخرى حسب المستطاع ، والماء هو الماء والهواء هي الهواء .

يتحدث هنا في آيات ست عن مَن خلقهم ؟ وكيف خلقهم ؟ وكيف يميتهم ثم ينشئهم ؟ وما هو الرباط بين الموت والحياة بدءً وعوداً ، برهنّا هنا وهناك على إمكانية وضرورة المعاد الحساب ، مبتدءً ببرهان قصير في لفظه ، كثير في معناه وعمقه : « نحن خلقناكم فلولا تصدقون » ومن ثم إلى سائر التفاصيل والتعاليل :

« أفرأيتم ما تمنون . ءأنتم تخلقونه أم نحن الخالقون » :

(ءأنتم تخلقونه) منياً ، ثم – بعـــد تطورات جنينية – إنساناً (أم نحن الخالقون) اياه – منياً وإنساناً .

فمهما كنت أنت الممني ، فلست أنت خالق المني ، وأين خالق من ممني ؟! فإن كنت تحسبك زوراً وغروراً انك الممني خالقٌ للمني ؟ فمم خلقته ؟ ومتى ! وكم عدد خلياته ذكراً وأنثى ؟ وهـــل أمنيته لتخلق منه ذكراً أم أنثى أو خنثى أم ماذا ؟

(أفرأيتم ما تمنون ..) [١] رؤية اخرى في ما تمنون تجعلكم تصدقون بيوم الدين ، فلقد تسلل المني من أجزاء البدن ، التي هي كلها حية حياة الإنسان ، وبانفصالها عنها تموت عن هذه الحياة ، وباستقرارها في الرحم وتنقلاتها من حالة إلى اخرى ترجع إليها في صورة إنسان آخر حياة اخرى تماثل الاولى ، فكما الله يحيي هنا ويميت ثم يحيي مرة اخرى ، كذلك واحرى في الحيـــاة الاخرى : (ولقد علمتم النشأة الاولى فلولا تذكرون) !

وإذا كانت الحياة بتقديرها من الله ، فهـل الموت وهو انتهاء دور من الحياة ليس بتقدير الله ؟ ولكي يكون مسبوقاً لا يقدر على إعادتها :

« نحن قدرنا بينكم الموت وما نحن بمسبوقين. على أن نبدل أمثالكم وننشأكم فيما لا تعلمون . ولقد علمتم النشأة الاولى فلولا تذكرون » .

فهو السابق في الإحياء ، ثم الإماتـــة ، فكيف يكون مسبوقاً عاجزاً عن تحقيق ما قدره من آجال ، دون تقدم لها ولا تأخر : (ولا يحسبن الذين كفروا سبقوا إنهم لا يعجزون) (٨ : ٥٩) (ام حسب الذين يعملون السيئات أن يسبقونا ..) (٢٩ : ٤) (ما تسبق من امة أجلها وما يستأخرون) (١٥ : ٥) .

ام كيف يكون مسبوقاً على تبديل أمثالهم وإنشاءهم فيما لا يعلمون ؟

إنه سابق هنا وهناك ، وفي كل تحقيق وتبديل وإنشاء كما يشاء ! دون سبق عليه في سباق استباق الآجال ، ولا سباق تناثر الأبدان بعد تحقق الآجال ، ولا سباق ضلال الأجزاء وتناحرها ، ولا سباق أصل الموت ، فـلا تتغلب الأسبابُ وتسبقُ مسببَ الأسباب ، دون تحقيق مـا توجّب ووعده من تبديل الأمثال والإنشاء الجديد ، فليس الموت خارجاً عن تقديره ، أو انه بتقدير غيره ، حتى يكون مسبوقاً في حوادث الموت ، فتفلت عنه أزمة الاحياء بعد الموت، بل هو

---

(١) الفاء هنا وفيما بعده تفريع للأدلة الفرعية للمعاد على دليل الأصل « نحن خلقناكم » .

أمثالكم..» (وما نحن بمسبوقين على أن نبدل أمثالكم وننشأكم فيما لا تعلمون): فإن تبديلكم أمثالكم غرض من تقدير الموت ، وهو مقدور لنا ميسور .

فليس الهدف من تقدير الموت إنقطاع الحياة وحصول الفوت ، ولا أننا مسبوقون مغلوبون في التبديل والإنشاء ، بل المنشأ في النشأة الاخرى ، والمثل المبدل اليه ، خير من النشأة الاولى صفاءً فبقاءً : (فلا أقسم برب المشارق والمغارب إنا لقادرون . على أن نبدل خيراً منهم وما نحن بمسبوقين . فذرهم يخوضوا ويلعبوا حتى يلاقوا يومهم الذي يوعدون) (٧٠ : ٤٣) : يوم تبديلهم خيراً منهم أبداناً ، صفاءً فبقاءً ، فشراً لهم عقاباً وجزاءً .

إن الخاطبين في آيات تبديل الأمثال ليسوا هم الحاضرين يوم نزول القرآن ، بل الأولين والآخرين المجموعين إلى يوم الدين ، فهم أجمعون يبدّلون أمثالهم ، التي هي خير منهم ، كما وهم أجمعون ينشأون فيما لا يعلمون [١] لا أن كل جماعة تبدّل مثلَها أن يخلفها مثلُها ، فإنه تبديل بالمثل ، وليس تبديل المثل [٢] بل وليس تبديلاً أيضاً فإنه في أصل اللغة تغيير شيء عن حاله ، وإنما هو إبدال : جعل شيء مكان آخر [٣] .

---

(١) فضمير الجمع هنا وهناك يعني كل الجمع ، لا ان الأول يعني الخاطبين « أمثالكم » والثاني كل الجموع « وننشأكم » إلا أن يعني بالجمع الثاني نفس الأول ، ويوم الإنشاء الآخر يوم الجمع – لا جماعة خاصة .

(٢) التبديل مما يتطلب مفعولين أحدهما مذكور هنا : أمثالهم ، فالأول محذوف هو هم . وإذا كان المقصود جعل اخلاف لهم أمثال فالواجب لغوياً أن يقول أن يبد لهم بأمثالهم ، وآيات التبديل والإبدال أقوى شاهد على ذلك : « عسى ربنا أن يبدلنا خيراً منها » « عسى ربه أن طلقكن أن يبد له أزواجاً خيراً منكن » « فأردنا أن يبد لهما ربهما خيراً منه زكاة » بخلاف آيات التبديل التي تنحو منحى تحويل الحال .

(٣) لسان العرب للمنظوري ج ١ ص ١٧٦ ، كما وفي الآية « كلما نضجت جلودهم بدلناهم جلوداً غيرها » فهي هي وهي غيرها و « اولئك يبدل الله سيئاتهم حسنات » بخلاف آيات الإبدال كما مضت .

إن البدن الجديد يشابه القديم : أنه على مثاله ، وأنه كان فيه ، ويفارقه أنه خلاصة منه ، دائبة مع الروح مدى الحياة ، قابلة للخلود ، بعيدة عن الفساد ، بخلاف العتيق البائد غير الخالد ، الناقص والزائد ، إذاً فالجديد خير من العتيق صفاء وجلاء ، وإن كان أبلى منه بلاء إن كان من أهل البلاء ، ولكنه خير جزاء إن كان من أهله ، خيراً على خير .

وقد يروى صحيحاً عن الإمام جعفر الصادق عليه السلام : سئل عن الميت يبلى جسده؟ قال : (نعم – حتى لا يبقى لحم ولا عظم إلا طينته التي خلق منها فإنها لا تبلى تبقى مستديرة في القبر حتى يخلق منها كما خلق أول مرة[1]) وكما يروى عنه في البدن المعاد : (هي هي وهي غيرها) .

نبذة عن تبديل الأمثال كما يخطر ببال :

إن الروح المفاقة بعد صعقتها تعود يوم القيامة الكبرى إلى شخص هذا البدن الذي صار رفاتاً ، تعود إليه بعد خلقه ثانياً على مثال صورته الاولى ، متخلصاً متحللاً عما زاد على أجزاءه الأصيلة ، التي خلق منها أول مرة : (كما بدأكم تعودون) (٧ : ٢٩) (كما بدأنا أول خلق نعيده) (٢١ : ١٠٤) فالعود على مثال البدء في خلق أول إنسان ، وكل إنسان .

فكما ان كل إنسان مخلوق من سلالة من طين وهي الماء المهين (المني) وهو سلالة وصفوة من كافة أجزاء الإنسان ، التي هي سلالة من مختلف الأغذية ، التي تسللت أولاً من طين تحول غذاءً نباتاً وحيواناً ، فالمني إذاً سلالة من طين ، من طيات هذه التحولات ، ومن ثم النطفة سلالة من هذا الماء المهين ، تجعل في قرار مكين من المبيض ، لكي تنمو وتصبح جنيناً بعد طي مختلف الصور خلقاً بعد خلق ، وهذا في الخلق الأول لكل إنسان إلا الأول .

---

(١) بحار الأنوار للعلامة المجلسي ج ٢١ ص ٤٣ – ح ٧ وفيه ج ٣٧ ح ٥ « والبدن يصير تراباً منه خلق » أي الطينة المشار اليها في الحديث .

هذا من تبديل الأمثال في الاخرى، كما وان هناك تبديلاً للأمثال في الاولى : (أفرأيتم مـا تمنون ..) إذ يأخذ المني من الاصلاب والترائب ، ثم يخلق منها أمثالكم . فـإذ خلق من منيك مثلك ، فقد خلقك مثلك ، وكذلك الله يخلقك مثلك من منيك وطينتك يوم القيامة ، وإن كان فرق بين مثل ومثل ، فهنا من منيك مثلك ولداً لك، وهناك منيك الذي خلقت منه أول مرة، تخلق منه مرة أخرى مثل الاولى ، فما أوضحه مثالاً خلق الأمثال يوم الدنيا بخلق الأمثال في الاخرى !

فكما ان (ما نحن بمسبوقين على أن نبدل) كم (أمثالكم) في الاولى (وننشأكم فيما لا تعلمون) في التطورات الجنينية ، كذلك واحرى (ما نحن بمسبوقين على أن نبدل) كم (أمثالكم) في الاخرى (وننشأكم فـيما لا تعلمون) فلتدرسوا للنشأة الاخرى من الاولى :

(ولقد علمتم النشأة الاولى فلولا تذكرون) :

درساً في مرحلتين من النشأة الاولى : (نحـــن خلقناكم فلولا تصدقون) (أفرأيتم مـا تمنون ..) درس الأولوية في المرحلة الاولى ولأن النشأة الاخرى أهون منها وأحرى ، ودرس المماثلة التامة في المرحلة الثانية : خروج المني من الأجزاء الحية وانفصاله عن الحياة الانسانية ، ثم رجعه إليها عـــبر التطورات الجنينية، دروس حاضرة حاذرة من كتاب تكوينكم تذكركم النشأة الاخرى.

فـ (عجب كل العجب لمن أنكر النشأة الاخرى وهو يرى النشأة الاولى)[1]!

«أفرأيتم ما تحرثون. ءأنتم تزرعونه أم نحن الزارعون. لو نشاء لجعلناه حطاماً فظلتم تفكّهون . إنا لمغرمون . بل نحن محرومون » .

---

(١) اصول الكافي باسناده إلى أبي حمزة قال : سمعت علي بن الحسين (ع) يقول :

ثم يميتكم ، أنه سوف يحييكم لكي تحصدون بعدما تحصدون ؟ ولتجزى كل نفس بما تسعى .

« أفرأيتم الماء الذي تشربون . ءأنتم أنزلتموه من المزن أم نحن المنزلون . لو نشاء جعلناه اجاجاً فلولا تشكرون » .

« الماء الذي تشربون » يختص هنا بالذكر بين سائر الماء ، لأنه أصل الحياة المباشرة للانسان ، ثم بواسطة النبات والحيوان حياة ثانوية مكملة لها .

فهل أنتم الشاربون أنزلتموه من المزن : السحاب المثقل بالماء ، أم الله ؟ فمن هذا الذي يزجي سحاباً من أبخرة المياه فيبسطه في السماء ، ويسقي به من يشاء ؟ ومن الذي خلق عنصر الماء من قبل وحوّله إلى مختلف الحالات ، وجعله أصل الحياة ؟ أنتم أم الله ؟ « فلولا تشكرون » ؟.

« لو نشاء جعلناه أجاجاً » : بدل العذب الفرات : مالحاً مراً حاراً بأشده لاهباً ملتهباً كالنار ، حاملاً لعنة الموت لا رحمة الحياة ، يؤج بكم إلى عجيج الصرخات[1] ، ولكنه جعله لكم عذباً فراتاً سائغاً شرابه ، مهما جعل من دونه ملحاً أجاجاً لغير الشرب من مصالح الحياة « أفلا تشكرون ؟ » .

وكما أن هذا الماء يحمل الحياة ، بضمّه ـ وهو ميت ـ إلى أجزاء ميتات ، فلولا تصدقون أن الله يرسل هذا الماء إلى رميمكم ورفاتكم فيرجعكم إلى الحياة ؟. « أفلا تشكرون » : عقلياً أن تصدقوه في نبإ المعاد ، وعملياً أن تقدموا خيراً لأنفسكم ليوم المعاد ؟

« أفرأيتم النار التي تورون . ءأنتم أنشأتم شجرتها أم نحن المنشئون . نحن جعلناها تذكرة ومتاعاً للمقوين » .

علّ ذكر المني والماء والنار يوحي بأن النشأة الاخرى سوف تكون في

---

(١) هذه كلها معاني الاجاج كما في لسان العرب لابن المنظور الافريقي .

حطب وزيت وبترول أم مـــاذا ؟ « ءأنتم أنشأتم شجرتها أم نحن المنشئون ؟ » أنت يا رب ! ولماذا ؟

« نحن جعلناها تذكرة » : لإمكانية المعـاد ، فكما أنها من اصول الحياة في المبدأ ، كذلك هي في المعـاد ، أن تتعاون مع الماء في الطينة فيرجع كلٌ ببدنه الأصيل ! فهذه تذكرة .

ومن ثم تذكرة لنار المعاد ، التي تورى على من قدمتها يداه ، وأن الله ليس بظلاّم للعبيد ...

« ومتاعاً للمقوين » : أقوى : دخل في قواه : مفـــازة ، وهي كذلك من الأضداد من القوة نفياً وإثبـــاتا . فالغني مقوٍ لكونه ذا قوة ، والفقير مقوٍ لكونه بلا قوة ، ثم المفازة قد تكون مفازة الأسفار القريبة من هنا إلى هناك دنياً ، أم سفر بعيد من الدنيا إلى الآخرة ، فالدنيا إذاً كلها مفازة وقواء ، كما وأن أصحابها كلهم ذوو قواء : فقراء وأغنياء ، مفازة واسعة – زماناً ومكانا – يتجول فيها الخلق أغنياء وفقراء ، ويجتازونها إلى الساهرة على سواء .

فالنار التذكرة للخلق أجمعين ، هي أيضاً متاع للمقوين ، في سفر قريب أم بعيد . المقوين الواجدين القوة والغنى ، والمقوين الفاقدين لها أو إحداهما ، فالحاجة إلى النار حاجة عامة للناس أجمعين ، مستضعفين كانوا أم مستمتعين ، وعلى حد تفسير الرسول الأمين ﷺ : (لا تمنعوا عباد الله فضل الماء ولا كلاءً ولا ناراً ، فإن الله تعالى جعلها متاعاً للمقوين وقوة للمستضعفين وقواماً للمستمتعين) [1] . مهما كان مقوي الدنيا في مفازاتها أحوج اليها .

---

(١) الدر المنثور ٦ : ١٦١ – أخرجه الطبراني وابن مردويه وابن عساكر عن واثلة قال قال رسول الله (ص) : ...

الفوضى يوم الحساب ، وعن كل ما لا يليق بعظمة الربوبية الفاضلة العـــادلة بغير حساب .

وتُرى هل يختلف «ربك» عن « رب العالمين» أفهناك أرباب متشاكسون ؟! كلا ! وإنما يوجه الخطاب هنا – على أوجه الوجوه – إلى أعظم أسماء الربوبية العينية : الرسول الأقدس محمد ﷺ ، فباستطاعته أن يسبح ربه باسمه العظيم ، وهو أيضاً من اسمه العظيم ، وهو أعرف من سواه باسم ربه العظيم : رب عظيم واسم عظيم ، يسبح به رسول عظيم ، ولكي يكمل التسبيح فيقتدي به مَن سواه من العالمين .

« فلا اقسم بمواقع النجوم . وانه لقسم لو تعلمون عظيم . انه لقرآن كريم » :

تحدثنا عن اللاقسم في مواضعها ، وانه حقاً نفي للقسم لا قسمٌ ، إيحاءً بالإستغناء عنه لما له يُقسم . وإن كان القسم عظيماً فإن المقسم له أعظم وأغنى ، فكرم القرآن وسعته ، الزاهر المتظاهر اللامع ، أظهر من مواقع النجوم وألمع ، لمن كان له بصر ، فما هي هذه النجوم بمواقعها ، التي يستعظم الله أن يقسم بها ، وإن كان لما هو أعظم منها ؟.

ترى انها نجوم السماء : الكواكب الطالعة فيها ، الآخذة مواقعها ، رصداً للراصدين ، وهداية للمهتدين[1] : « وهو الذي جعل النجوم لتهتدوا بها في ظلمات البر والبحر » (٦ : ٩٧) ؟ ونجوم القرآن أهدى ، وهدايتها أعمّ وأبقى ! فلماذا يقسم بها كمثال لإثبات كرم القرآن وسعته في هداه ، وزهرته وعُلاه ؟.

---

(١) اصول الكافي بإسناد القمي عن مسعدة بن صدقة قال قال أبو عبد الله (ع) في قول الله عز وجل : « فلا اقسم بمواقع النجوم » قال : كان أهل الجاهلية يحلفون بها فقال الله عز وجل : « فلا اقسم بمواقع النجوم » قال : عظم أمر من يحلف بها .

أقول : يشهد على ما في المتن إذ كان المقصود كل النجوم ، والحديثان كما ترى صريحان انه نفي للقسم ، خلافاً لمن يحاول تحويله الى القسم تحميلاً لا يتحمله القرآن .

وهل يقسم بنجوم القرآن لإثبات كرم القرآن ؟ قد يجوز وهو أحرى ! فإنه من برهنة الشيء على نفسه، فكما الشمس تدل على نفسها ، وهي أحرى شاهد لها، كذلك نجوم القرآن بمواقعها ، القلوب الواقعة هي فيها ، الواعية لها ، انهـا تدل على « إنه لقرآن كريم » .

« فلا أُقسم » هنا ، لا قسمٌ ضمّن فيها القسم [1] لا بمواقع النجوم كلها ، وإنما بنجوم القرآن ، « وإنـه لقسم لو تعلمون عظيم » : عظيم في دلالته ، عظيم في جلالته ، عظيم في معناه ، عظيم في هداه .

إنه تصريح باللاقسم وتلويح بالقسم بمواقع نجوم القرآن ، وما أحلاه تعبيراً ، عن لماعة نجوم القرآن وبلاغتها، وكما يروى عن أفضل مواقعها: الرسول الأقدس ﷺ : « .. له نجوم وعلى نجومه نجوم .. فيه مصابيح الهدى ومنار الحكمة ودليل المعرفة لمن عرف الصفة، فليُجلِ جالٍ بصرَه ، وليَبلغ الصفة نَظَرُه، يَنجُ من عَطب ، ويتخلص من نشَب ، فإن التفكر حياة قلب البصير ، كما يمشي المستنير في الظلمات بالنور .. » [2] .

فمهما كان القسم بسائر النجوم عظيماً ، لأنها دلالات ظاهرة ، وشهادات على عظمة القدرة ، وسعة الحكمة لمن يوقمها في مواقعها ، فيهتدي بهـا راصدوها ، ويندحر مسترقوا السمع للملأ الأعلى ، وهي إضافة الى ذلك ظاهرة في أنفسها في طلوعها وغروبها وانفضاضها وانقضاضها ، ولكنها حق العظمة وعظمة الحق في الدلالة على كرم القرآن ، ليس إلا في نجوم القرآن ، وقليل هؤلاء الذين يعلمون ، وكثيرون يجهلون ، أن القرآن نور ينير لنفسه ، فلا يستنير بسواه ، وحتى الرسول لرسالته لا يستدل بسواه ، فهو نور لمن ارسل به، ونور لمن ارسل اليه،

---

(١) راجع ص ١٥٩ ج ٣٠ – الفرقان وكذلك الآيات ٦٩ : ٣٨ – ٤٣ و ٩٠ : ١ و ٨٤ : ١٦ و ٧٥ : ١–٣ و ٧٠ : ٤٠–٤١ – فانها آيات سبع تحدثنا عن اللاقسم فيها .

(٢) اصول الكافي ج ٢ ص ٦٠٠ – الطبعة الجديدة عنه (ص) ...

(٨١ : ١٩) كريم في آياته ، كريم في معطياته ، غير ضنين ولا لئيم ، فالكرم هو التوسع في المحاسن الكبيرة ،فلا يُنقص عن كرمه ، ولا يُمس من كرامته فإنه :

« في كتاب مكنون . لا يمسه إلا المطهرون » :

ترى ما هو الكتاب المكنون ، الكائن فيه القرآن الكريم ، ليكنّه عما يمسّ منه إلا المطهرون ؟ وما هو المسّ ومن هم المطهرون ؟.

علّ « كتاب مكنون » هو لوح محفوظ : « بل هو قرآن مجيد . في لوح محفوظ » (٨٥ : ٢١) [١] ، وليس في كتاب ثابت عند الله غير لائح لأحد ، ولا عند رسول الله ﷺ لائحاً له وخلفاء المعصومين غير لائح للآخرين ، أو لائحاً لجمع الأولين غير لائح للآخرين ، إنما « في لوح » : صفحة لائحة ظاهرة لمن يتمجد به من المكلفين ، من الجنة والناس أجمعين وإلى يوم الدين ، آياته لائحة ، بيناته واضحة ، ورغم أنه في لوح ، ويتناول الكل ، فهو «محفوظ» و «مكنون» عن لعبة اللاعبين ، وتحريف المحرّفين ، فكيان القرآن أياً كان هو أنه في حفاظ الله وكنانه : « إنا نحن نزّلنا الذكر وإنا له لحافظون » (١٥ : ٩) .

وترى أهو محفوظ كذلك عند من يقرأه عن ظهر الغيب غالطاً أو عامداً ، أو يكتبه كذلك وينشره بغية تحريفه ؟.. كلا ، إنما في « كتاب مكنون » و « كتاب » هو الثابت فليس إلا الحق ، فهو قرآن كريم في ثابت بإذن الله ، مكنون بكنان الله ، آخذاً من ام الكتاب ، وإلى كتاب قلب الرسول ﷺ وقلوب ممثليه المعصومين ، وكتب ألسنتهم ، ثم وكتب صدور الحفاظ ، فالغالط يرجع لمّا يظهر غلطه ،والعامد يفضح إذ يُرى خلاف ما يَراه الحفاظ والمؤمنون ، والكاتب غلطاً ، جاهلاً أو عامداً ، لا يبقى كتابه سنداً ، فربما ينشر يُدحر ، وكما دحر المسلمون القرآن المحرّف الذي نشره الاسرائيليون ،وكيف ينجح قرآن

---

(١) راجع تفسير الآية في ج٣٠ ص ٢٧٠ ، والآية : «لا تحرك به لسانك» ج٢٩ ص٢٨٠ .

معنى وبصيرة ، ولا يتذوقونه واقعا ... وإلى هنا « لا » نافية تنفي واقع المسّ هكذا في مختلف المس ، كلٌ على حسبه .

ومن ثم تكون « لا » ناهية تنحو نحو النهي عن مسّه ، خطه ورسمه ، إلا المطهرون عن الكفر ، فلا يمسه كافر ، اللهم من يحاول التطهر به ، لا مسّه أو المس منه ، وإلا المطهرون عن أحداث وأخباث « فلا يمس القرآن إلا طاهر »[1] .

ولا غريب من القرآن أن يجمع بين النفي والنهي في حرف واحد ، أو انها نافية تعني في موارد النهي مبالغة النهي[2] .

فالطهارة المشروطة في حليـــة مس القرآن خطاً ، تعمُّ الطهارة عن الكفر وطهارة الحدثين ، وضوءاً وغسلا ، والطهارة عن أية نجـــاسة في المحل الماسّ ، دون اختصاص بالحدثية ، خلافاً لبعض الفقهاء ، وفاقاً لإطلاق المس والطهارة . تأمَّل .

فـ « لا يمسّه إلا المطهرون » مسّ النور والخير ، ولا مسّ السوء والشر ، فالمطهرون داخـــلون في مسّه ، وغيرهم خارجون عن مسّه وعن المسّ من كرامته[3] .

كيف وهو مكنون بكنان الله أينما كان !.

« **تنزيل من رب العالمين** » .. إنه كتعليل لعدم مسّه إلا من المطهرين ، فما

---

(١) الدر المنثور ٦ : ١٦٢ — أخرج الطبراني وابن مردويه عن ابن عمر قال قال رسول الله (ص) : ... وأخرج ابن مردويه عن معاذ بن جبل مثله وعن ابن حزم الأنصاري عن أبيه عن جده عنه (ص) مثله. وأخرج عبدالرزاق وابن أبي داود وابن المنذر عن عبدالله بن أبي بكر عن أبيه قال في كتاب النبي (ص) لعمرو بن حزم : « ولا تمس القرآن إلا على طهور » .

وفي الاستبصار بإسناده عن أبي الحسن (ع) قال : المصحف لا تمسه على غير طهر ولا جنباً ولا تمس خطه ولا تعلقه ، إن الله تعالى يقول : « لا يمسه إلا المطهرون » .

(٢) والاتيان بالخبر وقصد الانشاء عادة جارية فيما يراد تأكيد الانشاء ، فلا يخبر بالنفي هنا فيما ينهى ، يعني انه من المنع لدرجة كأنه لا يقع أصلا .

(٣) الاستثناء على الأول متصل إذ يمسونه ، وعلى الثاني منفصل إذ لا يمسونه .

وترى والقرآن هو الكتاب كيف يكون في كتاب ، فما هو كتاب و كتاب ؟

الجواب: أن الكتاب المكنون هو المكتوب فيه الكتاب، والقرآن الكتاب هو المكتوب ، ففرق بين مكتوب ومكتوب فيه ، وسواء أكان المكتوبُ القرآنَ المسجل بقلم النور على البيت المعمور : القلب المحمدي أم ماذا ، أو كان القرآن المفصل بألفاظه أو معـــانيه أم ماذا ، وإذا كان المكتوب فيه مكنوناً فالمكتوب أكنّ وآمن .

ثم « المطهرون » يعمّ من طهّروا أنفسهم ونفوسهم فطهرهم الله تطهيراً ، كمن تشملهم آية التطهير .

ومن طهروا نفوسهم فأيدهم الله فيما طهروا ، كمن يحذون حذوهم ويتلون تلوهم من الأولياء المكرمين .

ومن تطهروا – أخيراً – عن الأحداث والأخباث، فلو قال «إلا المتطهرون» لم يشمل إلا الآخرين ، وأما « المطهرون » فهو يشمل الأولين والآخرين ، لأن الطهارة فيها تعم الثلاث [١] .

ثم « تنزيل من رب العالمين » : يخص القرآن المفصل النازل نجوماً ، بعد المحكم النازل ليلة القدر [٢] مما يدل على عدم اختصاص الكتاب المكنون بالقرآن المحكم، بعد نزوله ، عند النبي، أو قبله عند الله، أنه مكنون عند الله وعند نبي الله فقط لا ! بل هو محفوظ أينما حلّ وارتحل ، وإلى القرآن المفصل ، عند النبي وعنـــد المؤمنين وإلى يوم الدين [٣] .

وبما أن مسّ القرآن باللسان من أخفى المسّ وأخفه، فالنهي عن هكذا مسٍّ

---

(١) التطهير الالهي ، والتطهير البشري ، وما بينهما من تطهير إلهي وبشري .

(٢) لأن التنزيل هو النزول التدريجي بخلاف الأنزل فانه دفعي .

(٣) راجع سورة القدر ج ٣ ص ٣٧١ – ٣٨١ من الفرقان .

« فلولا اذا بلغت الحلقوم . وأنتم حينئذ تنظرون . ونحن أقرب اليه منكم ولكن لا تبصرون . فلولا ان كنتم غير مدينين . ترجعونها ان كنتم صادقين » :

هل ان الله أقرب الى المحتضر أم أنتم؟ انه «أقرب اليه منكم» بل ومنه أيضاً: قيوما بحيطة العلم والقدرة « ولكن لا تبصرون » : لا رؤية البصر : أنتم ولا أي محتضر ، فان هـــذا القرب ليس من المبصر ، ولا رؤية البصيرة اليقين إلا من المحتضر، آمن أو كفر، إذ يجد نفسه بين يدي من هو أقدر منه وأقرب اليه منه، وأما أنتم الناكرون، الناظرون الى المحتضر فلا تبصرون لا بالبصيرة ولا بالبصر، فهلاّ تذكرون من المحتضر أنه على نفسه ليس أقدر من الله وسوف يأتي دوركم على سواء .

وإذ ليس الله أقرب اليه منكم ، وأنتم أقرب اليه ، وتحبون حشره ورجعه ! « فلولا .. ترجعونها ان كنتم صادقين » في نكران الدينونة الحساب ؟

« فلولا .. ترجعونها » الروح « ان كنتم صادقين » « إذا بلغت الحلقوم » : « اذا بلغت التراقي . وقيل من راق .. » (٧٥ : ٢٦) « وأنتم حينئذ تنظرون» الى المحتضر يستغيث بلسان القال أو الحال ، وهو ممن يخصكم ، أو ينفعكم رجعه الى الحياة لتجربوا أنكم أنتم السابقون لو تزعمون « فلولا ان كنتم غير مدينين »: غير محمولين على مكروه موتا أو سواه ، أو كنتم غير عباد عاجزين ، أو غير مجزيين بأعمالكم[1] «ولولا ترجعونها ان كنتم صادقين»: في هذه الدعاوي الزور، وفي عدم دينونة الحساب ، فمن يدين بأنه مدين لا يدعي سبقه على رب العالمين في تقدير الموت ، فلا يفكر ولا يحاول في رجعٍ أيا كان ، ولكن الذي لا يدين بأنه مدين ، لأنه ناكر سبق الله في الحياة والموت وفي تبديل الأمثال بعد الموت، فليدرأ الموت وكل سوء عن نفسه وعمن يخصه :

---

(١) المفردات للراغب ، يذكر هذه المعاني الثلاث للمدين .

حين تقف قدرة الإنسان – أو أيا كان – وكل محاولاته ، يقف علمه وينتهي دوره المختار ، فتنفرد القدرة الإلهية وعلمه وأمره ويخلص الأمر كله لله وهنالك يخسر المبطلون (فلولا ترجعونها إن كنتم صادقين) :

« فاما إن كان من المقربين . فروح وريحان وجنة نعيم . وأما إن كان من أصحاب اليمين . فسلام لك من أصحاب اليمين . وأما إن كان من المكذبين الضالين . فنزل من حميم وتصلية جحيم » :

جولة ثانية تختصر الاولى ، وتزيد عليها في الجزاء بين الموت والمعاد ، فالاولى تستعرض الجزاء منذ القيامة الكبرى : (إذا وقعت الواقعة .. فأصحاب الميمنة) . وهذه تستعرضها منذ الاحتضار والموت وإلى القيامة ، (فلولا إذا بلغت الحلقوم) .

في هذه الجولة نرى المقربين في مثلث الرحمة ، علّ الروح والريحان للبرزخ ، وطبعا جنة نعيم وهي الخلد للآخرة [١] ، كما وان المكذبين الضالين في مثنى : (نزل من حميم) علّها للبرزخ ، و (تصلية جحيم) وليست إلا للآخرة [٢] ومن ثم لأصحاب اليمين وهم الامة الوسطى بينهما ، واحد يعم سلام الاكرام والانعام ، منذ الموت إلى يوم القيام .

وترى مـــا هما الروح والريحان ؟ ان الرّوح والرُوح من أصل واحد ، ثم اختص الثاني بالنفْس ، والأول بالنَفَس المتنفّس ، وهما ما به الحياة ، حياة الأصل للرُوح ، وحياة النزهة للرَوح ، فالمقربون يتنفسون بالموت عن خنق ما كانوا وحنقه ، ثم يزيدهم رُوحا ورَوحا وريحاناً ، وعل الرَوح هنا رحمة نفسانية روحانية ، ونسمة من جنة الرضوان ، ونفحة من معرفة الرحمان ، ويا لهـــا

---

(١) امـــالي الصدوق باسناده إلى موسى بن جعفر عن أبيه الصادق جعفر بن محمد (ع) في حديث : «فاما ان كان من المقربين فروح وريحان» يعني في قبره «وجنة نعيم» يعني في الآخرة .

(٢) اصول الكافي وأمالي الصدوق بهذا الاسناد « واما ان كان من المكذبين الضالين فنزل من حميم » يعني في القبر « وتصلية جحيم » يعني في الآخرة .

الزفير ، ولا دعة مزيحة ، ولا قوة حاجزة ، ولا موتة ناجزة ، ولاسنة مسلية بين أطوار الموتات وعذاب الساعات) [١] .

ثم وتصلية جحيم هي إيقادهـــا بوقود أجسادهم وأرواحهم الجهنمية : « وأولئك هم وقود النار » (٣ : ١٠) فسائر أهل النار وهم هوامش الضلالة يحرقون بنارهم كما احترقوا يوم الدنيا ، ثم ومنهم من ينجو مع الناجين فيلحق بأصحاب اليمين ، ومنهم .. ثم لا يبقى في النـار إلا الوقود حتى يتم جزاءهم الوفاق ، ثم تخمد النار ويموت الوقود ، المؤبدون ثم لا يحيون .

« إن هذا لهو حق اليقين . فسبح باسم ربك العظيم » :

« وإنه لحق اليقين . فسبح باسم ربك العظيم » (٦٩ : ٥٢) لا علم اليقين فقط ولا عين اليقين ، وإنما حق اليقين ، الذي ليس فوقه يقين ، و « هذا » هو الله ، وهو كتاب الله ، وهو يوم الله ، لا ريب في أي من هذا وذاك ، فالمقربون لهم في ذلك حق اليقين ، وأصحاب اليمين لهم عين اليقين أو عـــلم اليقين ، ثم للمكذبين الضالين عـين اليقين إذ يدخلون الجحيم « ثم لترونها عين اليقـين » (١٠٢ : ٧) وكان لهم أن يرونها قبل يوم الدين : علم اليقين أو عين اليقين أو حق اليقين .

ومهما يتعرض علم اليقين وهو اليقين العلم ، للخطأ أو الإهمال في متطلبات اليقين ، أو تخطأ عين اليقين أو تهمل مهما كان أقل خطأ وإهمالاً من علم اليقين ، فليس حق اليقين وهو اليقين الحق ، الثابت الصامد ، مما يخطىء أو يهمل ، لأنه واضح وضح النار وأوضح .

---

(١) نهج البلاغة للسيد الرضي عن أمير المؤمنين علي (ع) : ...

يَدْعُوكُمْ لِتُؤْمِنُوا بِرَبِّكُمْ وَقَدْ أَخَذَ مِيثَاقَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ — ٨ . هُوَ الَّذِي يُنَزِّلُ عَلَى عَبْدِهِ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ لِيُخْرِجَكُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَإِنَّ اللهَ بِكُمْ لَرَؤُفٌ رَحِيمٌ — ٩ . وَمَا لَكُمْ أَلاَّ تُنْفِقُوا فِي سَبِيلِ اللهِ وَلِلهِ مِيرَاثُ السَّمٰوَاتِ وَالْأَرْضِ لَا يَسْتَوِي مِنْكُمْ مَنْ أَنْفَقَ مِنْ قَبْلِ الْفَتْحِ وَقَاتَلَ أُولٰئِكَ أَعْظَمُ دَرَجَةً مِنَ الَّذِينَ أَنْفَقُوا مِنْ بَعْدُ وَقَاتَلُوا وَكُلاًّ وَعَدَ اللهُ الْحُسْنٰى وَاللهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ — ١٠ . مَنْ ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللهَ قَرْضاً حَسَناً فَيُضَاعِفَهُ لَهُ وَلَهُ أَجْرٌ كَرِيمٌ — ١١ .

مرکز تحقیقات کامپیوتری علوم اسلامی

« سبح لله ما في السماوات والأرض وهو العزيز الحكيم » :

هنا وأحياناً في غيرها « سبح » وهنالك في مواضيع « يسبح » إيحاءً باستمرارية تسبيح الكائنات غابراً ومستقبلاً وحاضراً دون فكاك ، وأيا كان التسبيح ومن اي كان .

و « سبح » مما تُعدّى بنفسها ، فلماذا عُدّيت هنا باللام وأحياناً بنفسها ؟

لأن اللام توحي بالإختصاص ، فلا تسبح ما في السماوات والأرض إلا لله ، لا له ولسواه ، فليُحمل عليها المعدّى بنفسها : « وتسبحوه بكرة وأصيلا » فلا تسبيح إلا لله .

والتسبيح هو الإمرار السريع دون تباطيء ، من السبح : المرّ السريع في

« سبح لله .. وهو العزيز .. » : غالبٌ لا يُغلَب « الحكيم » : فلا يجهل أو يَخطأ أو يظلم ، عزيز حكيم : في ألوهيته وربوبيته .. وفي أنه مسبّح .

« له ملك السماوات والأرض يحيي ويميت وهو على كل شيء قدير » :

«له ملك» المَلكية المالكية الحقة دون زوال فلا يزول وهو لا يزال « مُلك السماوات والأرض » المعبرة عن الكائنات كل الكائنات «يحيي ويميت» : كأبرز مظاهر الربوبية المطلقة ، لا فحسب ، بل : « وهو على كل شيء قدير » ما هو شيء أو يمكن أن يكون شيئاً ، قدرة متعلقة بالممكنات في كافة الجهات .

فيا لتسبيح المملوك العبد للملك المالك بالحق من حلاوة وطلاوة، كيف لا و:

« هو الأول والآخر والظاهر والباطن وهو بكل شيء عليم » :

آية فريدة منقطعة النظير ، ليست إلا هي وإلا هنا كما هي ، اللهم إلا في البعض من اتجاهاتها بعبارات اخرى ، تعني السرمدية الإلهية : أزلية وأبدية ، والحيطة العلمية والقيومية المطلقة .

وهذه الأسماء الأربعة من مظاهر السرمدية والحيطة المطلقة الإلهية ، كوناً وكياناً وعلماً وقدرة وقيومية أم ماذا .

«هو الأول» لا سواه، وترى أنه أوّل بالنسبة لسواه في الزمان أو المكان، تقدماً فيهما على أيّ كان ؟ ولا زمان له ولا مكان ، فهو الذي كوّن المكان والزمان !.. أو أنه أوّل في الحدوث ؟ وليس له حدث ، وإنما أحدث الأشياء وكان إذ لا كان ، فلم يَحدث هو أيا كان ، وان كان حدوثاً بلا زمان !

كلا: « إنه الأول لا عن أولٍ قبله وعن بدءٍ سبقه.. ولكن قديم أول وقديم آخر »[1] : أولية القِدمة والأزلية ، فلو سألت عن ربك متى كان ؟ فالجواب

---

(١) الكافي عن علي بن ابراهيم القمي بإسناده الى ميمون اللبان سمعت أبا عبد الله (ع) وقد سئل عن الأول والآخر فقال : « .. وآخر لا عن نهاية ... » .

ومكان، فلا يعتريه هو زمان ولا مكان ، فقد كان إذ لا « كان»، لا زمان ولا مكان ، ثم خلق الزمان والمكان ، وخلق فيهما كلّ « كان » .

هذا ، ولكنّا الأولية الأزلية لزامها أوليّات الالوهية كلهـا ، فالأزل خارج عن كل زمان ومكان ، مهما كان معه – لخلقه – زمان ومكان .

إن الزمان مهما كان وأياً كان ، هو محدود لا محـالة لتصرّمه ، وإن أجزاءه محدودة ، ومجموعة المحدودات محدودة لا محالة ، فله أول وهو حين خلق، وآخر حين ينقضي .

وأما الأزلي الذات ، وغنيّها عن كافـــة الذوات ، المفتقرة اليه الذوات ، المبتدَأة المبتدَعة في الذوات وفي الصفات ، هـــذا الأزلي ليس له حدّ ولا أية حالات ، إنما أزلي لا أولي ، أولٌ ليس له أول ، وآخرٌ ليس له آخر :

« والآخر » آخر كما هو أول ، فالأول أزل والآخر أبـــد والجمع سرمد : « آخر لا عن نهاية .. ولكن قديم أول وقديم آخر ، لم يزل ولا يزول بلا مدى ولا نهاية ، ولا يقع عليه الحدوث ولا يحول من حال الى حال .. »[1] .

« إنه ليس شيء إلا يبدأ ويتغير أو يدخله التغير والزوال ، وينتقل من لون الى لون ، ومن هيئة الى هيئة ، ومن صفة الى صفة ، ومن زيادة الى نقصان ، ومن نقصان الى زيادة إلا رب العالمين ، فإنه لم يزل ولا يزال بحالة واحدة ، هو الأول قبل كل شيء ، وهو الآخر على ما لم يزل ، ولا تختلف عليه الصفات والأسماء كما تختلف على غيره ، مثل الإنسان الذي يكون تراباً مرة ، ومرة لحمـــاً ودماً ، ومرة رفـاتاً ورميماً ، وكالبسر الذي يكون مرة بلحاً ، ومرة بسراً ، ومرة

---

(١) الكافي عن القمي بإسناده الى أبي عبدالله (ع) وقـــد سئل عن الأول والآخر فقال : « الأول لا عن أول قبله وعن بدء سبقه ، وآخر لا عن نهاية كما يعقل من صفة المخلوقين ، ولكن قديم أول قديم آخر خالق كل شيء » .

ثم هو آخر نظراً الى سلسلة السلوك المعرفي ، فهو آخر منـــازل السالكين ، وغاية الباغين .

وترى إذا انحصرت به الآخرية الأبدية كما الأوليـــة الأزلية ، فما هو دور الأبدين في الجنة إذ وُعد لهم « عطاءٌ غير مجذوذ ؟ » .

أقول : إن أبديتهم لو كانت بمعنى اللانهاية ، انها زمنية عارضية غيرية ، فهم آبدون بفضل الله ورحمته ، فمن ذواتهم هم بائدون لا يملكون أبداً ولا حيـاة ، فهم في أبدهم لهم آخر في ذواتهم ، كما وأن لزام الزمن لكيانهم يحكم بأن لهم آخراً كما لهم أول ، وهـــذه تختلف عن الآخرية الأبدية الإلهية اختلاف العدم عن الوجود ، فقد « كان الله ولم يكن معه شيء » ، والآن كما كان وسوف يكون كما كان ، لا يقارنه أيٌ كان ، وليس معه شيء أياً كان ، ليس معه في أي زمان أو لا زمان ، وإنما كيان كل «كان» : إنه من جلوات قدرته ، وكما لا تختلف حاله تعالى بعد الخلق عما كان قبله في السرمدية ، كذلك أحوال الخلق فإنها لا تختلف من حيث الفقر والعدم الذاتي ، لا تختلف بعد خلقها عما قبل ، اللهم إلا بظهور الوجود ، دون استقلال ولا لحظة ، فضلاً عن الأبدية ، اللهم إلا بفضل الله .

ومن الفوارق بين الأبدين ، أن الإلهي منهما لزام الأزلية ، والثـــاني لزامه الحدوث والبداية .

هذا ، ولكن الحق أن لا أبدية للخلق وإن كانت عرضية ، فان الزمان محدود أياً كان ، وما له بداية لا بد أن تكون له نهاية مهما جهلناها ، ومن ميزات اللانهاية أنها لا تقبل الزيادة والنقصان كما اللابداية . ترى لو نقص من زمن الجنة سنة أو زيدت ، ألا تنقص اللانهاية لهـــا ولا تزيد ؟ فإن لا ، فلتكن زيادة سنة ونقيصته على سواء ! وإن بلى ، فهذا ينافي اللانهاية اللامحدودية [1] .

---

(١) راجع كتابنا (حوار) بحث الأبدية والأزلية ص ٤٣ . وهنـا أحاديث تدل على زوال كل شيء ، كما أخرجه في الدر المنثور ٦ : ١٧١ في دعاء الرسول (ص) « .. والكائن بعـدما لا يكون شيء .. » .

ولا ظاهرَ من الله إلا آياته ودلالاته ، ثم هو باطن فيما سوى آياته ودلالاته ، وليس باطناً يحل في سواه ، أو لأنه دقيق لا يُبصر فإنه «لا يُحس ولا يُحسّ ولا يُمس ولا يدرك بالحواس الخمس» .

يا من هو اختفى لفرط نوره ... الظاهر الباطن في ظهوره

وجوده من أظهر الأشياء ... وكنهه في غاية الخفاء

— فإنه ظاهر في التعريف ، باطن في التكييف .

فسبحان «الذي بطن من خفيات الامور وظهر في العقول ، بما يُرى في خلقه من علامات التدبير» «الظاهر فلا شيء فوقه ، والباطن فلا شيء دونه»[1]:

لا شيء فوقه في الظهور بمعنييه ، ولا باطن دونه بمعانيه ، فكل باطن لغموضه ورموزه ، لدقته وصغره ، لبعده زماناً أو مكاناً ، أو لأي من أسباب البطون ، انه يرجى ظهوره لمن يهيء أسبابه ، إلا الله ، وكل ظاهر قد يخفى على العقول إلا الله ، إذ الكائنات كلها دلالات وآيات بينات دالات على الله ، فهو أظهر من كل شيء ، ولإحاطته على كل شيء ، وأبطن من كل شيء ، ولإحاطته من ورائه وإنه أقرب إلى كلّ شيء من نفسه ، « عميت عين لا تراك .. ألغيرك من الظهور ما ليس لك !

انه ليس من معاني بطونه تغيّبه عن الخلق أو تغيب الخلق عنه ، فإنه بكل شيء عليم وهو معكم أينما كنتم والله بما تعملون بصير :

---

(١) بين الأقواس مقتطفات من الخطب التوحيدية لأمير المؤمنين (ع) في نهج البلاغة ، وفي الدر المنثور ٦ : ١٧١ عنه (ص) «أنت الأول فليس قبلك شيء وأنت الآخر فليس بعدك شيء وأنت الظاهر فليس فوقك شيء وأنت الباطن فليس دونك شيء ، وفيه كان من دعائه (ص) : يا كائن قبل أن يكون شيء والمكون لكل شيء والكائن بعد ما لا يكون شيء أسالك بلحظة من لحظاتك الواقرات الراجيات المنجيات» .

المقدور هو ما تتعلق به القدرة لصلوحه ، أو يمكن أن تتعلق به لإمكانه ، وأما المعلوم فيكفيه تعلق العلم فيشمل المحالات الذاتية ، وكما يشمل الممكنات ، ليس لأن العلم أوسع من القدرة ، وإنما لأن المقدور أضيق من المعلوم ، لا لنقصان في القدرة ، وإنما لقصور في المحال، فإنه ليس شيئاً في القدرة مهما كان شيئاً في العلم.

« هو الذي خلق السماوات والأرض في ستة أيام ثم استوى على العرش يعلم ما يلج في الأرض وما يخرج منها ومـــا ينزل من السماء وما يعرج فيها وهو معكم أينما كنتم والله بما تعملون بصير » .

.. آيات سبع تحمل « ستة أيام » لخلق السماوات والأرض ، ومن ثم آيات في « فصلت » تفصّل هـــذه الستة على خلقها سبعاً وسبعاً ، فهي هي إذاً أحرى بالبحث والتنقيب عن : كيف تنقسم الستة على السبع والسبع ؟ دون سائر السبع التي تحمل « ستة أيام » دون تفاصيل كما هنا، اللهم إلا أن نشير إلى حصيلة موجزة عما نفصلها في « فصلت » :

انها ستة أوقات وأدوار زمنية مضت على خلق السماوات والأرض، وليست هي على سواء ، ولا نصيب منها لأدوار التكامل الأرضي والسماوي ، وإنما لخلق الزبد الأرضي : مادتها الأم ، والدخان السماوي كذلك ، ولتحويلها إلى سبع وسبع ، ولخلق الأنجم في السماء الاولى ، أم ماذا ؟!

فـلا تناحر بين آيات الستة أيام ، وآيات فصلت : ثمانية أيام ، فأربعة منها لدور التكامل الأرضي ، والباقية : اثنان لخلق الأرض « .. خلق الأرض في يومين » وآخران لقضاء السماء سبعاً — وعلّه مع الأرض : «ثم استوى إلى السماء وهي دخان فقال لها وللأرض ائتيا طوعاً أو كرهاً قالتا اتينا طائعين . فقضاهن سبع سماوات في يومين وأوحى في كل سماء أمرهـا وزينا السماء الدنيا بمصابيح وحفظا ذلك تقدير العزيز العليم » . فاليومان الباقيان من الستة — إذاً — لخلق وراء الخلقين ، علّ أحدهما لخلق الدخان السماوي، أو والزبد الأرضي ، والثاني

وآتيتم الزكاة وآمنتم برسلي وعزّرتموهم وأقرضتم الله قرضاً حسناً.. » (٥:١٢) وهذه معية مشروطة لا تعمُّ الجميع !.. أو معية النصرة في الحرب : « فلا تهنوا وتدعوا الى السّلم وأنتم الأعلون والله معكم ولن يَتِرَكم أعمالكم » (٤٧ : ٣٥) وليس الكل محـــاربين ، ولا مؤمنين أقوياء صامدين في الحرب حتى يستحقوا النصر !. أو معية الحفظ عن العـــدو الضاري وهو على الدرب : « إذ يقول لصاحبه لا تحزن إن الله معنا » (٩ : ٤) ولا يستحقها المؤمنون كلهم فكيف بسواهم ! كلا .

وإنما معيّات عامة تشمل — على أقل تقدير — المخاطَبين من الجنـة والناس أجمعين ، من معية علمية فهو أعلم بهم من أنفسهم : « ويستخفون من الناس ولا يستخفون من الله وهو معهم » (٤:١٠٨) ومعية القدرة القيومية « وما من دابة إلا هو آخذ بناصيتها» (١١:٥٦) والمعية الخالقية، إذ الخلق لا يستغني عن الخالق بعد خلقه ، فهو كما كان وأحوج مما كان ، استبقاءً لما أوتي : « يا أيهـا الناس أنتم الفقراء الى الله والله هو الغني الحميد » ، ومعية الشهادة على الأعمال أم ماذا : « أولَم يكفِ بربك أنه على كل شيء شهيد » (٤١ : ٥٣) .

ومعية الحفاظ على العباد : « له مُعَقّبات من بين يديه ومن خلفه يحفظونه من أمر الله » (١٣ : ١١) وما اليها من معيات إلهيات كما تليق بذاته وصفاته المقدسة ، دون معية زمانية أو مكانيه ، بمداناة أو حلول أم مـاذا ! فقد « كان لم يزل بلا زمان ولا مكان وهو الآن كما كان ، لا يخلو منه مكان ولا يشتغل به مكان »[1] ، فمعنى كونه في كل مكان مع كل إنس وجان ، هو معيـــة العلم والقدرة والخالقية والحفاظ على الخليقة .

---

(١) اصول الكافي بإسناده عن الامام الكاظم موسى بن جعفر (ع) قال : إن الله تبارك وتعالى كان ... ولا يكون من نجوى ثلاثـــة إلا هو رابعهم ولا خمسة إلا هو سادسهم ولا أدنى من ذلك ولا أكثر إلا هو معهم أينما كانوا ، ليس بينه وبين خلقه حجاب غير خلقه ، احتجب بغير حجاب محجوب واستتر بغير ستر مستور ، « لا إله إلا هو الكبير المتعال » .

« يولج الليل في النهار ويولج النهار في الليل » : نقصاً من الليل فزيادة في النهار كما في الصيف ، ونقصاً في النهار فزيادة في الليل كما في الشتاء ، كحقيقة الولوج ، وكذلك التقاءهما في وقتي الطلوع والغروب ، تداخل الليل في النهار غروباً ، كأنه والج فيه ، وتداخل النهار في الليل طلوعاً كأنه يلجه ، حركة دائبة منظمة لطيفة ، تدل بلطف على محرّك منظّم لا تأخذه سنة ولا نوم .

«والله عليم بذات الصدور» : صاحب الصدور ، علّه القلب الذي يصاحب الصدور وهو فيه « ولكن تعمى القلوب التي في الصدور» أو وسائر ما يصاحب الصدور من العقول والألباب ، أو أنه الروح صاحب الصدر ، بكافة جنودها الروحية المدركة ، فالله عليم بهذه الذات فضلاً عن الصدور ، فان حصائلها بمصادرها تصدر من سائر جنود الروح .

« آمنو بالله ورسوله وانفقوا مما جعلكم مستخلفين فيه فالذين آمنوا منكم وأنفقوا لهم أجر كبير » :

آية فريدة في كرامة الإستخلاف في الإنفاق ، تكويناً أن هيأ لنا ربنا وسائل الإنفاق بما هبانا ، وتشريعاً أن أمرنا بالإنفاق كما أنفق علينا ، تخلّقاً بأخلاق الله ، ولنكون مَثَلاً لله مهما لن نكونَ مِثلَه !.

فالأموال التي نملكها ليست لنا إلا خلافة مسموحة من ربنا ، تتداول بيننا في معاملات ووراثات فإنفاقات فلسنا إذاً فيها إلا كأدات :

ويكفيك قول الناس فيما ملكته لقد كان هذا مرة لفلان

إنها أمانات فسح لنا مجالات بتصرفات فيها ضمن حدود الشرع ، ننفقها على مستحقيها الآخرين كما ننفقها على أنفسنا ، فلا ننسى أولا وأخيراً أنها لله وأننا فيها مستخلفون ، فلا نتخلف عن حدود الخلافة في الأمانة .

إلا وهم مشركون » (١٢ : ١٠٦) فللإيمان عقيدياً وعملياً مراقي ودرجات لا بد أن يتدرج اليها بمساعي ومحاولات دائبة .

ثم وماذا عليه لو خص بالكافرين أو شملهم ، إذ يأمرهم بالإيمان بعد استعراض دلائل الإيمان وملزماته ، فلهم أن يعرفوا وحي القرآن ببيناته ، ومنه أمرهم بالإيمان ، فطالما البينات تقنعهم للإيمان ، فهنا يأمرهم بحقيقة الإيمان ، إذ لا يكفي الإيمان البدائي لمثل الإنفاق في سبيل الله ، إذاً فالخطاب يشمل الناس أجمعين مؤمنين وكافرين ! ومن ثم يندد بالكافرين منهم :

« وما لكم لا تؤمنون بالله والرسول يدعوكم لتؤمنوا بربكم وقد أخذ ميثاقكم ان كنتم مؤمنين » :

فالتنديد هنا بسلب الإيمان وليس بنقصانه ، فـ « ما لكم » ما داؤكم ؟ وما دواؤكم ؟ فلو « لا تؤمنون بالله » ؟ ودوافع الإيمان تحيط بكم ؟ من دعوة رسولية تملك من كافة البينات المخرجات من الظلمات الى النور «والرسول يدعوكم لتؤمنوا بربكم » ومن استجابة الفطرة للميثاق المأخوذ عليها من الله « وقد أخذ » الله «ميثاقكم إن كنتم مؤمنين» : بالدعوتين : برسول الفطرة التي فُطر الناس عليها، وبرسول الله الذي يدعوكم بإقامة وجوهكم اليها : « وأقم وجهك للدين حنيفا فطرة الله التي فطر الناس عليها ذلك الدين القيم ولكن أكثر الناس لا يعلمون » (٣٠ : ٣٠) ثم وقليل هؤلاء الذين يعلمون فيؤمنون، ثم قليل المؤمنون العاملون الذين يعملون .

فمن يحترم عقله، ويؤمن بفطرته الإنسانية، عليه أن يصغى لمن يوقظ فطرته، ويذكره مهمته في دوره الانساني السامي ، فليستجب دعوة الرسول الداعي الى دعوة الفطرة ، و « ذلك الدين القيم ولكن أكثر الناس لا يعلمون » !.

إنه ليست دعوات الرسل بالتي تجانب وتنافر دعوة الفطرة ، وإنما تجانسها

ظلمات مهما كانت أخف ، فالرسول يتلو عليهم آيات الله البينات ، ليخرجهم الله بها من الظلمات إلى النور ، قضية الرأفة والرحمة .

وما أسماه تعريفاً بالرسول : « عبده » إذ تحلل عن عبودية وعبادة ما سوى الله ، واختص نفسه بالله ، فاختص لذلك اكرم كرامات الله : أن يحمل أشرف وأسمى رسالات الله .

ان هناك ظلمات تُظلِم على الفطرة الانسانية فتَظلمها ، فإذا أخرج الانسان عنها بمذكرات الآيات البينات فهو إذاً في النور الذاتي ، وليس وراء ذاته إلا ما يزيد فطرته جلاءً واعتلاءً ، فالفطرة غير المحجوبة هي النور ، وهي المرقى إلى ساير النور « نور على نور يهدي الله لنوره من يشاء » .

لذلك (ليخرجهم من الظلمات الى النور) لا (فيدخلهم النور) فإنه من دواخل ذاته فهو داخل فيه محجوباً أو غير محجوب ، فإذا ارتفعت الحجب الظلمات فهو إذاً في النور ، دونما حاجة إلى طي مسافة بينه وبين النور ، فإنما يبتدىء بفطرة الله التي فطر الناس عليها ذلك الدين القيم ولكن اكثر الناس لا يعلمون ، وينتهي الى الله النور ، منتهى لا نهاية له ، فلا بدّ للسالك الى هذا النور أن يستمر في السير ، ناسياً نفسه وذاكراً ربه .

« وما لكم ألا تنفقوا في سبيل الله ولله ميراث السماوات والأرض لا يستوي منكم من أنفق من قبل الفتح وقاتل اولئك أعظم درجة من الذين انفقوا من بعد وقاتلوا وكلا وعد الله الحسنى والله بما تعملون خبير » .

هنا الخطاب الأول العتاب خاص بضعفاء الايمان، الذين يتثاقلون عن الانفاق في سبيل الله ، قاتل أم لم يقاتل ، أنفق في غير سبيل الله أو لم ينفق وإن كانوا درجات .

« وما لكم ألا تنفقوا » ولستم إلا مستخلفين فيما رزقتم ، ثم ولا يبقى لكم

يرجح الميزان ، وإنما هو الظرف والباعث وما يمثله من حقيقة الايمان [١] .

«و» إن كان (كلاً وعد الله الحسنى) ولكنما الجزاء الحسنى درجات كما الاعمال والنيات الحسنى في اليسر والعسر درجات (والله بما تعملون خبير) .

ومن ثم كما ان المناصرين في ساعة العسر مع النبي (ص) أفضل درجة ممن ناصره ساعة اليسر ، فالذين ينصرون الاسلام بعد دوري الرسالة والامامة ، وظروفهم كمن قبل الفتح أو أعسر ، فهم أفضل درجة من أنفق من قبل الفتح وقاتل ، إذ هم كانوا في ظلال الرسول (ص) حاضراً بآياته البينات ، والآخرون غُيّب عن زمن الرسول (ص) وإنما صمدوا في الايمان لما رأوه وسمعوه من قرآنه المبين وتبيانه المتين ، فأحاديث التفضيل بين مَن قبل الفتح ومَن بعده لا تشملهم [٢] بل وتفضلهم كآياته على مَن قبل الفتح . فحسناهم أفضل من حسناهم صورة طبق الأصل (وكل إنسان يعمل على شاكلته) فليجزَ كذلك حسب شاكلته (ولا يظلمون نقيراً) .

---

(٢٠١) الدر المنثور ٦ : ١٧٢ – أخرج سعيد بن منصور عن زيد بن اسلم قال : قال رسول الله (ص) يأتيكم قوم من ههنا – وأشار بيده إلى اليمن – تحقرون أعمالكم عند أعمالهم ، قالوا : فنحن خير أم هم؟ قال: بل أنتم ، فلو ان أحدهم أنفق مثل أحد ذهباً ما أدرك مد أحدكم ولا نصيفه ، فصلت هذه الآية بيننا وبين الناس : « لا يستوي منكم من أنفق من قبل الفتح وقاتل اولئك أعظم درجة من الذين أنفقوا من بعد وقاتلوا » وأخرج مثله ابن جرير وابن أبي حاتم وابن مردويه وأبو نعيم في الدلائل عن عطاء بن يسار عن أبي سعيد الخدري عنه (ص) وأخرج احمد عن انس في حديث عنه (ص) دعوا لي أصحابي فوالذي نفسي بيده لو أنفقتم مثل احد أو مثل الجبال ذهباً ما بلغتم أعمالهم ، وأخرج ابن أبي شيبة والبخاري ومسلم وأبو داود والترمذي عن أبي سعيد الخدري قال : قال رسول الله (ص) : لا تسبوا أصحابي فوالذي نفسي بيده لو ان أحدكم أنفق مثل احد ذهباً ما أدرك مد أحدهم ولا نصيفه .

أقول : وكل هذه مقارنة بين من كانوا زمن النبي قبل الفتح وبعده ، وأما الذين أتوا ويأتون بعده فلا ، فلا فضل إذاً إلا للأفضل أعمالاً ، حسب الظروف والنيات ومدى الصعوبات .

على ضوء الهداية الإلهية ، فإنه أعـــلم بصالحنا منا ، فإقراض الله ، والإنفاق في سبيل الله ، والتصدق لله ، هذه كلها تنحو منحى سبيل الانسان وصالحه ، فالله هو الغني ونحن الفقراء ، فما أكفر عبداً وأجهله أن يتغامض عن هذه العظات ، ولا يتذكر بتلكم الموعظات ، فيعيش حياته ويلات وويلات !.

وكما الانفاق هو الافناء ، ان يؤتي ما أوتي من ماله او مالكه لله دون ابتغاء جزاء او شكور ممن سوى الله، كذلك الإقراض هو الاقطاع : ان تقص وتقطع مما لك قرضاً حسناً ، إن واجباً او ندباً ، قرضاً ترجع فيه او لا ترجع ، حسناً متحللاً عن كل سوء .

ومن أركان الحسن في القرض أن يكون بنية حسنة : لوجه الله : (إنمـــا نطعمكم لوجه الله) وبطيبة نفس ، وأن يكون مما تحبون : (لن تنالوا البر حتى تنفقوا مما تحبون) ومن الحلال ــ فـ (لا يقبل الله صدقة من غلول) (ولا تيمموا الخبيث منه تنفقون ولستم بآخذيه إلا أن تغمضوا فيه) وبعيداً عن الرئاء والمن والأذى : (لا تبطلوا صدقاتكم بالمن والأذى كالذي ينفق ماله رئاء الناس) وألا يعتز في نفسه مذللاً للمستقرض ، فـــإن الله هو المستقرض مهما كان لعباده المحاويج : (ولا تمنن تستكثر) وألا يماطل في ادائه ما يجد سبيلاً الى اداء عاجل وان يؤجل الى ميسرة ان كان قرضاً يرجع، دون مراجعة ولا مخاجلة او مخالجة، وان يتحرى الأحوج اشخاصاً وجهات إلهية ، وان يخفيها تحرجاً عن الرئاء ، او يبديها تحريضاً لمن سواه شرط الاخلاص : (ان تبدوا الصدقات فنعما هي وان تخفوها وتؤتوها الفقراء فهو خير لكم) (٢ : ٢٧١) فتلك عشرة كاملة في اصول القرض الحسن .

وكما ان الإقراض من مضاعفات الرحمة وكرم السجية ، كذلك الله يعـــد المقرض مضاعف الرد وكريم الاجر ، ولأن الاجر موعـــده الحياة الاخرى ، فليكن المضاعف ، او من المضاعف ، في الحياة الدنيا ، ان يربي الله ماله ضعفاً او اضعافاً : (يمحق الله الربا ويربي الصدقات) (٢: ٢٧٦) يربيه مادياً ، ويربيه

ٱلْحَقِّ وَلَا يَكُونُوا كَٱلَّذِينَ أُوتُوا ٱلْكِتَابَ مِنْ قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمُ ٱلْأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَاسِقُونَ — ١٦ .
إِعْلَمُوا أَنَّ ٱللَّهَ يُحْيِي ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ ٱلْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ — ١٧ . إِنَّ ٱلْمُصَّدِّقِينَ وَٱلْمُصَّدِّقَاتِ وَأَقْرَضُوا ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا يُضَاعَفُ لَهُمْ وَلَهُمْ أَجْرٌ كَرِيمٌ — ١٨ .
وَٱلَّذِينَ آمَنُوا بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِ أُولَٰئِكَ هُمُ ٱلصِّدِّيقُونَ وَٱلشُّهَدَاءُ عِندَ رَبِّهِمْ لَهُمْ أَجْرُهُمْ وَنُورُهُمْ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ ٱلْجَحِيمِ — ١٩ . إِعْلَمُوا أَنَّمَا ٱلْحَيَاةُ ٱلدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَزِينَةٌ وَتَفَاخُرٌ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِي ٱلْأَمْوَالِ وَٱلْأَوْلَادِ كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ ٱلْكُفَّارَ نَبَاتُهُ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَاهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَكُونُ حُطَامًا وَفِي ٱلْآخِرَةِ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَغْفِرَةٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَانٌ وَمَا ٱلْحَيَاةُ ٱلدُّنْيَا إِلَّا مَتَاعُ ٱلْغُرُورِ — ٢٠ .
سَابِقُوا إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا كَعَرْضِ ٱلسَّمَاءِ وَٱلْأَرْضِ أُعِدَّتْ لِلَّذِينَ آمَنُوا بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِ ذَٰلِكَ فَضْلُ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَاءُ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ — ٢١ .

من ربكم وأنزلنا اليكم نوراً مبيناً » (٤ : ١٧٤) وهو إيمان ناتج عن ذلك البرهان: « أفمن شرح الله صدره للاسلام فهو على نور من ربه » (٣٩ : ٢٢) وهو العمل الصالح الناتج عن الإيمان . ومن ثم هو نور الفرقان الناتج عن خالص الإيمان : (إن تتقوا الله يجعل لكم فرقاناً) (٨ : ٢٩) : مربع النور : (نور على نور يهدي الله لنوره من يشاء) !.

ترى ولماذا (بين أيديهم وبأيمانهم) دون سائر الجهات الأربع أو الست ؟.. لأن هذا النور غير سائر النور ، نور البصيرة وليس البصر ، وإن كان يهدي – فيما يهدي – البصر . ولأن طريق الجنة يُمنة ووِجاه ، وطريق النار يسرة ووراء ، وكما عن الرسول ﷺ : (بينا أنا على حوضي انادي هلم ، إذ اناس أخذتهم ذات الشمال فاختلجوا دوني ، فانادي ألا هلمّ فيقال : انك لا تدري ما أحدثوا بعدك ، فأقول سحقاً)[1] . فلا نور لأصحاب الشمال لا وجاهاً ولا يمنة ، وإنما تأخذهم النار من ورائهم وذات الشمال .

وقد تختص (بين أيديهم) بالسابقين المقرّبين ، الذين هم وجه بلا قفا ولا أية جهة اخرى إلا وجه الله ، ومن ثم يتوجهون اليه ، ويتجهون إلى رحمته ورضوانه ، و (بأيمانهم) لأصحاب اليمين الذين هم وجه من وجه ، وإذا اتجهوا عن الأمام فإلى اليمين ، فانه الدين ، وإن كان أدنى من المقربين .

أو ان قِسم الإيمان والعمل الصالح والفرقان تكون بالأيمان ، فان المؤمن يُؤتى كتابه بيمينه ، وقسم الهداية تكون بين الأيدي ومنه الهداة إلى الله ، وقد توحي له (بين أيديهم) نفسها فانه النور المفصول عن ذواتهم بين الأيدي ، وهم الهداة خارج الذوات ، و (بأيمانهم) لا عن أو من أيمانهم ، فانه النور الذاتي اللامع بالأيمان ، فهو الإيمان والعمل الصالح والفرقان الناتج عنهما[2] .

وأما الشمال ووراء الظهر فلأصحاب الشمال إذ يؤتون كتابهم فيها، ثم لا إمام لهم أمامهم إلا الأئمة الذين يدعون الى النار ، جهنم يصلونها وبئس القرار .

---

(١) تفسير روح البيان لاسماعيل حقي البروسي ج ٩ ص ٣٥٩ – ٣٦٠ .

(٢) الخصال للصدوق بإسناده الى أبي خالد الكابلي قال قال أبو جعفر (ع) في قوله : =

العظيم على ضوء النور الذي التمسوه يوم الدنيا ، وتمه الله في الاخرى : (بشراكم اليوم جنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها ذلك هو الفوز العظيم) .

فهذا دور المؤمنين ، فما هو إذاً دور المنافقين ؟ إنه النكسة وظلمة الركسة :

« يوم يقول المنافقون والمنافقات للذين آمنوا انظرونا نقتبس من نوركم قيل ارجعوا وراءكم فالتمسوا نوراً فضُرب بينهم بسور له باب باطنه فيه الرحمة وظاهره من قِبَله العذاب) :

هناك المؤمنون والمؤمنات في منظر طريف ظريف ، وهنا المنافقون والمنافقات في منظر هائل عنيف ، في حيرة الضلالة ومَهانة الإهمال ، متعلقين بأذيال المؤمنين والمؤمنات قائلين : (انظرونا نقتبس من نوركم) وأنّى لهم الاقتباس ، ولات حين مناص ، من الظلمات التي عاشوها حياتهم !.

وترى ما هذه النظرة التي يلتمس منها قبسات النور ؟ إنها ليست نظرة البصر فإنها غير مفيدة ، وهي حاصلة في حوارهم ، وإنما هي نظرة البصيرة المتأملة الشفيعة الى الله أن يُقبسهم من نورهم ، لذلك لم تعدّ بـ (إلى) المؤدية معنى نظر البصر : (انظرونا) : تأملونا لهذه البغية ، وليس مجرد التأمل (في) : (أولم ينظروا في ملكوت السماوات والأرض) (٧:١٨٥) أو التأمل (كيف): (أولم يسيروا في الأرض فينظروا كيف كان عاقبة الذين من قبلهم) (٣٠:٩).

(ولا نظر الانتظار : (وجوه يومئذٍ ناضرة ، إلى ربها ناظرة) (٧٥:٢٣) اللهم إلا انتظارهم ليلحقوهم الى الجنة على نورهم كما هم مسرعون ، وأنّى لهم وهم مظلمون مبطئون !.

أو انتظار الشفاعة لمن ينظرونهم أمل الشفاعة ، ولكنه أيضاً النظر (إلى) وهنا النظر (انظرونا) فهو نظر يفيد الاقتباس من ذلك النور .

وقد التمسوا محالاً فاجيبوا بمحال مضاعف : (قيل ارجعوا وراءكم فالتمسوا نوراً) فليس هذا النور بالذي يلتمس هنا ، ولا بالذي يقتبس من أهل النور هنا ، وإنما يُلتمس (وراءكم) يوم الدنيا التي خلفتموها وراءكم ظهرياً ، ومن ثم يقتبس منه هنا ، أو كان أصله من هناك ثم يتمم هنا بشفاعة أو التماس ، ثم

(فضُرب بينهم بسور له باب باطنه فيه الرحمـــة وظاهره من قِبَله العذاب) :

'ترى ما هذا الحجاب ، وما هذا الباب ، وما هو باطن الرحمـــة وظاهر العذاب ؟؟

هل انه حجاب الأعراف ؟: (وبينهما حجاب وعلى الأعراف رجال يعرفون كلا بسيماهم ..) (٧ : ٤٦) قـــد يكون ، وليكن حجاباً دائباً لا يستطيع أصحاب النار اختراقه يمنة أو يسرة أو من علٍ ، فليكن سوراً دائرياً أو مثله ، لا طولياً له جانبان منتهيان ، فانهما له بابان ، فـلا حاجة فيه الى باب ، ولكنه (سور له باب) فالسور توحي بحجاب يحيط من الجوانب كلهـا ، فانها الحائط المشتمل ، والبـاب – أياً كان – توحي أن لا سبيل الى داخل السور إلا منه ، اذاً فهي حائط محيط بأهل الجنة ومحاط بأهل النار ، والباب هذه بابها الى الجنة ، فهي باب الرحمة ، وباطن السور فيه الرحمـــة : واقعها إذ يعيش أهلها النور ، وبشارتها ، إذ هم يخرجون من بابها الى الجنة ، وظاهر السور (من قبله) قِبَل نفس السور (العذاب) واقعه إذ يعيش أهله الظلمات ، ومستقبله إذ يستقبلون فيه النار .

فلن يدخل السور ، ولن يقرب الى باب السور ، إلا أهل النور ، وأما المظلمون فهم خارج السور ، وناثون عن باب السور ، فالمؤمنون هم في مربع النور : معهم ، وفي السور ، ومن باب السور ، والى الجنة النور ، والمنافقون ومعهم الكافرون هم محرومون عن النور بما حرموا أنفسهم .

وهذا من الفصل يوم الفصل بين المؤمنين وسواهم ، ثم هناك فصائل اخرى تفصل بينهم تلو بعض ، أو مع بعض حتى يتم الفصل ، حين استقر أهل الجنة في الجنة وأهل النار في النار ، ثم لا تراثي ولا حوار .

(الفرقان – ١٠)

(.. بلى) فيما لا يفيد هنا ، و (لا) فيما يفيد : (ولكنكم فتنتم أنفسكم وتربصتم وارتبتم وغرتكم الأماني حتى جاء أمر الله وغركم بالله الغرور) .

لكنكم عشتم مربع الظلمات بدلا عن مربع النور: فتنة الأنفس، والتربص، والارتياب والغرور ، وأين مربع الظلمات من مربع النور !.

(فتنتم أنفسكم) : أنفسكم أنتم عن برهاني الفطرة والرسالة ، فخسرتم النور الأول ، والتهيتم عن النور المبين ، و (فتنتم) المؤمنين الذين هم كأنفسكم قضية الايمان لو كان: (ان الذين فتنوا المؤمنين والمؤمنات ثم لم يتوبوا فلهم عذاب جهنم ولهم عذاب الحريق) (٨٥ : ١٠) وليتكم ما لبثتم في هذه الفتنة فرجعتم الى نور الفطرة والرسالة ، ولكنكم (وتربصتم) وتلبثتم ماكثين في هـذه الفتنة الالتهاء فقست قلوبكم : (ولا تكونوا كالذين اوتوا الكتاب من قبـــل فطال عليهم الأمد فقست قلوبهم) (٥٧ : ١٦) (بلى من كسب سيئة فأحاطت به خطيئة فاولئك أصحاب النار هم فيها خالدون) (٢ : ٨١) (كلا بل ران على قلوبهم ما كانوا يكسبون) (٨٣ : ١٤) فالتربص في الفتنة تعمقها وتزيدها ركسة عن الحق ، تربصتم بأنفسكم في الفتنة وتربصتم بالمؤمنين الدوائر : (الذين يتربصون بكم فان كان لكم فتح من الله قالوا ألم نكن معكم وان كان للكافرين نصيب قالوا ألم نستحوذ عليكم ونمنعكم من المؤمنين فالله يحكم بينكم يوم القيامة) (٤ : ١٤١) (ومن الأعراب من يتخذ ما ينفق مغرماً ويتربص بكم الدوائر عليهم دائرة السوء والله سميع عليم) (٩ : ٩٨) ، كذلك وتربصتم عن التوبة والإنابة الى الله ، ثالوث التربص المنحوس .

ولو أنكم رجعتم عن الفتنة المتربصة بكم وبالمؤمنين، والمتربصين عن التوبة ، ورجعتم الى الله ، قفزة الى الفطرة قبل انكسافها بالمرة ، لرجع لكم نور العلم فالايمان ، ولكنكم (وارتبتم) إذا استأصلت الفطرة عن نورها فأظلمت ، فأوصلتكم الفتنة المتربصة المستقرة الى الريبة ، ريبة في كل حق ناصع ، أو إيماناً

يؤخـذ منكم ..) (فلن يقبل من أحدهم ملء الأرض ذهباً ولو افتدى به) (٣ : ٩١) رغم (لو أن لهم ما في الأرض جميعاً ومثله معه لافتدوا بـــه) (١٣ : ١٨) (فاليوم لا يؤخذ منكم فدية ولا من الذين كفروا) : (ان الذين كفروا لو أن لهم ما في الأرض جميعاً ومثله معه ليفتدوا به من عذاب يوم القيامة ما تقبل منهم ولهم عذاب أليم) (٥ : ٣٦) (يود المجرم لو يفتدي من عذاب يومئذ ببنيه) (٧٠ : ١١) .

(مأواكم النار) في دار القرار ، كما كان مأواكم في دار الفرار (هي مولاكم): أملك بكم وأولى بأخذكم ، فكأنها تملككم رقـاً ، ولا تحرركم عتقاً ، وكما كنتم ارقاء لموجبات النار ، جهنم تصلونها وبئس القرار .

لقد حان الآن أن ينحى المنافقون نحو الإيمان ، فتخشع قلوبهم لذكر الله لو كانت لهم قلوب ، فالمؤمنون أجدر بذلك وأحرى :

« ألم يـــأن للذين آمنوا أن تخشع قلوبهم لذكر الله وما نزل من الحق ولا يكونوا كالذين اوتوا الكتاب من قبل فطال عليهم الأمد فقست قلوبهم وكثير منهم فاسقون » .

انه ليس المنافقين والكافرين فقط هم الذين ينسيهم الشيطان ذكر الله، فيخطوا بهم خطواته ، بـل هو إلى تضليل المؤمنين أرغب ، فحيا إلى مطاردة الشيطان ان ندحره عن صدورنا وقلوبنا فإنه الوسواس الخناس :

بخشوع القلب يخشع القالب ، وقد يخشع القالب والقلب لاهٍ ، ورين القلب لا يزيله ويجليه إلا ذكر الله، ذكر يأخذ بأزمة القلب ويستكن في زواياه، فليس ذكر اللسان إلا من بواعث ذكر القلب ، وإلى أن يصبح العبد كله ذكراً لله !

فالذكر الذي لا يخشع به القلب ، هو قالب الذكر وليس قلبه ، وإنما حقيقة الذكر هي التي تقلّب القلب إلى الله ، وتفرغه عما سوى الله .

يتباطئون، ومَن سواهم من مبلغي رسالات الله إنما يصدرون عنهم غيباً وحضوراً فقد يتباطئون أو يخطئون ، مما يقلّل من تأثيرات العظات ، فتتعاظم القساوات في ثالث الأدوار ، دور الانتظار الذي نعيشه ، إذ لا رسول ولا إمام حاضراً ، وإنما منتظراً ليأتي ويقوّم الأود، فهذا الدور من أخطر الأدوار تقاسياً للقلوب، ومن أكثرها مسؤوليات على عواتق المسلمين ، فإذا يؤثر طول الآماد في الفترات الرسالية في قساوات القلوب ، والرسالة غير منتهية ، والفترة محدودة ، فماذا يكون أحوالنا في دور الانتظار وقد انتهت الرسالة والرسالات ، وختم دور الإمامات ، والفترة طائلة لحد غير معروف ، ولحد الآن الف وستة وستون سنة تمضي على الغيبة التامة لدور الإمامة ، ولم يسبق له مثيل طولاً ، ولا يأساً قاطعاً عن تجديد الرسالات .

فإذ تأنّ آية الأنّ على المؤمنين زمن الرسول [١] وعلى اسماعهم تأن الآيات من أقوى الرسالات الإلهية ، فنحن الغيّب عن ذلك الزمن ، وعن زمن أئمة تلكم الرسالة ، نحن أحرى وأجدر وأفقر إلى هذه الرنة الموقظة ، فلنأخذها نصب عيوننا ، وصغي أذاننا ونقول : بلى يا رب ! قد آن لنا أن تخشع قلوبنا لذكرك وحقيق لمن له قلب أن يصعق ويتفتت لما يسمعها كبعض الأولين [٢] .

---

(١) الدر المنثور ٦ : ١٧٤ – أخرج ابن مردويه عن انس مرفوعاً إلى النبي (ص) قال : استبطأ الله قلوب المهاجرين بعد سبع عشرة من نزول القرآن فأنزل الله : ألم يأن .. وفيه أخرج ابن مردويه عن عائشة قالت : خرج رسول الله (ص) على نفر من أصحابه في المسجد وهم يضحكون فسحب رداءه محمراً وجهه فقال : أتضحكون ولم ياتكم أمان من ربكم بانه قد غفر لكم ولقد أنزل علي في ضحككم آية: « ألم يان للذين آمنوا أن تخشع قلوبهم لذكر الله » قالوا : يا رسول الله (ص) ! فما كفارة ذلك ؟ قال : تبكون قدر ما ضحكتم وفيه أخرج ابن مردويه عن ابن مسعود ان رسول الله (ص) قال : لا يطولن عليكم الأمد فتقسو قلوبكم إلا ان كل ما هو آت قريب ، إنما البعيد ما ليس بآت .

(٢) روح المعاني للالوسي ج ٢٧ ص ١٨٠ : روى السلمي عن حمد بن أبي الحواري قال : بينا كنا في بعض طرقات البصرة إذ سمعت صعقة فاقبلت نحوها فرأيت رجلاً قد خر مغشياً عليه=

بذكر اللسان ، ومن ثم بكل هؤلاء الذين وقفوا عن الحراك في تحكيم ذكر الله في قلوبهم ، أو يتباطؤن في الحراك ، مهما انقلب ذكرٌ من الله إلى قلوبهم ، فليس لذكر الله حد ولا نهاية ، وعلى السالك أن يتسارع في هذه السبيل حتى يتوفاه الموت ، ومن ثم يُسرع بالعجلة التي قدمها لنفسه .

(ألم يأن) : ألم يأت آن وحين (للذين آمنوا) بألسنتهم دون قلوبهم ، أو بقلوبهم أحيانا دون أخرى ، أو ببعضها دون الآخر ، أو بدرجة دون تزايد (أن تخشع قلوبهم لذكر الله) كل ما يذكر الله (وما نزل من الحق) قرآنا وأيا كان ، (ولا يكونوا كالذين اوتوا الكتاب من قبل) من اليهود والنصارى (فطال عليهم الأمد) : الأجل والفترة بين الرسالات (فقست قلوبهم) شاءوا أم أبوا (وكثير منهم فاسقون) وهم العامدون الضالون المضللون . فقليل منهم ضالون جهلاً وقصوراً فهم ليسوا بفاسقين ، وقليل من هؤلاء القلة مؤمنون صامدون رغم طول الآماد وبواعث القساوات ، وهنيئا لهذه القلة المؤمنة ، اللهم اجعلنا من هؤلاء القلة من الملة الحنيفة المحمدية ، وفي أقسى الزمن وأطول الفترات : دور الانتظار ، نظرة الانتصار .

وترى هل من فرج بعد الإنكسار بما تقاست القلوب في فترة الانتظار ، وماتت الأرض ؟ اللهم نعم :

«اعلموا أن الله يحيي الأرض بعد موتها قد بينا لكم الآيات لعلكم تعقلون» .

إن إحياءَ الأرض بعد موتها ، لا بعد إماتتها ، توحي ان موتها منها ، وإحياءها من الله ، فهي إذاً الحياة الروحية ، بعد موتها عنها بما قست القلوب[1]

---

(١) الكافي باسناده عن ابي ابراهيم موسى بن جعفر (ع) في الآية : قال : ليس يحييها بالقطر ولكن يبعث الله عز رجل رجالاً فتحيي الأرض لاحياء العدل ولإقامة الحد فيها انفع في الأرض من القطر اربعين صباحاً .

أقول : سلب الاحياء بالقطر عله سلب الحصر ، وكما يزعمه البسطاء ، فإن الآية تشملها وان تلويحاً .

المهدي (ع) وثلاثمائة وثلاثة عشر رجلاً اصحاب الألوية ، إضافة الى من يرجعهم الله من سائر المؤمنين الأشداء رجعة الاستعداد او الاستدعاء! اللهم اجعلنا منهم احياءً او امواتاً .

« ان المصدقين والمصدقات وأقرضوا الله قرضاً حسناً يضاعف لهم ولهم أجر كريم » :

مزيد تأكيد لإقراض الله قرضاً حسناً متصدقاً فيه وفي سواه من إنفاق في سبيل الله ، والتصدق هو التجافي عن حق لمن يحتاجه ، بتكلف ، كأن يحبه كثيراً ، أو يحتاجه دون ضرورة أم ماذا .

« والذين آمنوا بالله ورسله اولئك هم الصديقون والشهداء عند ربهم لهم أجرهم ونورهم والذين كفروا وكذبوا بآياتنا اولئك أصحاب الجحيم » :

ان الصديقين والشهداء عند الله ليسوا أناساً خصوصاً تحتكر لهم هذه المقامات، وتحجز لهم لأنهم أصحاب القرابات الى الرسول ﷺ أو أياً من ميزات اللهم إلا القُربات : الإيمان بالله ورسوله وان كان له درجات، فالصديق والشهيد عند الله هو الذي بلغ الذروة من الإيمان عقيدياً وعملياً ، فإن الاسلام شريعة لا مجال فيها للطبقيات في نيل الدرجات .

ومن المؤمنين الذروة من فرّ بدينه من أرض الى أرض مخافة الفتنة على نفسه ودينه [1] مما يدل على أن دينه أعز عنده مما سواه، وان كانوا هم أيضاً درجات.

صحيح أن المؤمن لن يصل الى درجة النبيين ، إلا أن له أن يضاهيهم فيصل

---

(١) الدر المنثور ٦ : ١٧٦ أخرج ابن مردويه عن أبي الدرداء قال قال رسول الله (ص) : « .. كتب عند الله صديقاً فإذا مات قبضه الله شهيداً وتلا هذه الآية ثم قال : والفارون بدينهم من أرض الى أرض يوم القيامة مع عيسى بن مريم في درجته في الجنة » .

وهم كذلك شهداء الله وحججه يوم الدنيا، يدلون اليه، مجاهدين في التدليل عليه، مثلث الشهادة الصادقة للصديقين وحسن اولئك رفيقاً.

هؤلاء لهم أجرهم كما سعوا، ونورهم كما قدموا ولا يظلمون فتيلاً «والذين كفروا» بالله ورسله «وكذبوا بآياتنا»: رسلاً ورسالات بسائر الآيات «اولئك أصحاب الجحيم»: نار شديدة التأجج، كما هم كانوا ناراً على أصحاب النعيم.

«اعلموا انما الحياة الدنيا لعب ولهو وزينة وتفاخر بينكم وتكاثر في الأموال والأولاد كمثل غيث أعجب الكفار نباته ثم يهيج فتراه مصفراً ثم يكون حطاماً وفي الآخرة عذاب شديد ومغفرة من الله ورضوان وما الحياة الدنيا إلا متاع الغرور»:

ان الحقيقة في الحياة الدنيا، وراء كل ما يبدو فيها هي الحياة الخاسية الزهيدة الجوفاء، دون بقاء ولا وفاء، تجمعها «انما حياة الغرور»: غرور لعب ولهو وزينة وتفاخر وتكاثر، ومن ثم هي (في الآخرة عذاب شديد) لمن أبصر اليها فأعمته عن حقيقتها، وهي هي (مغفرة من الله ورضوان) لمن أبصر بها فبصرته، فهي من طبعها حياة الغرور لمن لا يحدّ البصر، وهي ثانية حياة المغفرة والرضوان لحديدي البصر! فعلى السالك السبيل من هذه القنطرة الخطرة أن يعمق النظر ويحد البصر، لكي لا يغره بالله الغَرور في هذه الحياة الغُرور.

انها حياة ذات وجهين ووجهتين: باطنها فيه الرحمة وظاهرها من قِبَله العذاب، وكما تُضرب هي سوراً بين أهل الجنة والنار يوم القرار.

فبإمكان الانسان أن يجعل من الحياة الدنيا حياةً عُليا، أن يقنطرها للاخرى، ويستخدمها للإرتقاء في مراقي العبودية والتقى، فان الدنيا مدرسة الآخرة!.

«كمثل غيث أعجب الكفار نباتُه»: هل الكفار هنا هم الزرّاع إذ يكفرون البذر ويسترونه تحت التراب ؟ وقد يناسبه الغيث والنبات ! ولكنها إذاً آية يتيمة في هكذا كفر بين آيات الكفار كلها [١] ! أم هم الكافرون الساترون الحاجبون الفطرة عن نور الحق ، والساترون سائر الحق بحجب التكذيب والإنكار ؟

قد يلائمه سائر آيات الكفار ، وغير فصيح ولا صحيح أن يعني به في هذه اليتيمة غير ما عنى به في سائر العشرين آية ، فلماذا لم يقل الزرّاع لو كان معنياً من الكفار ، كما في سائر آيات الزرّاع [٢] ؟ وقد قورن بالكفار في واحدة منها : « يعجب الزرّاع ليغيظ بهم الكفار » (٤٨ : ٢٩) ! ولكنما العجاب من نبات الغيث لا يخص الكفار ، زرّاعاً أم غير زرّاع ، بل يعجب المؤمن والكافر ، ولا سيما الزرّاع مؤمنين أو كافرين !

قد يعني به الزرّاع هنا مضمّنا الكفار ، تورية وإلماعاً الى إعجابهم بالحياة الدنيا ، فالغيث يعجب الزراع وأحرى ، ويعجب الكفار زراعاً وسواهم ، وأين عجب من عجب ؟ عجبٌ كافر وهو عجاب كافر ، وعجبٌ مؤمن وهو عجابٌ مؤمن ، عجبٌ لاهٍ ، وعجب من رحمة الله .

« ثم يهيج » النبات « فتراه مصفرّاً ثم يكون حطاماً » : كسراً هشيماً تذروه الرياح ، وهكذا ينتهي شريط الحياة الدنيا العاجلة الزهيدة ، ثم هي « وفي الآخرة عذاب شديد » للزراع الكافرين المعجبين بظاهر الحياة الدنيا ، اللاعبين اللاهين المتزينين المتفاخرين المتكاثرين « ومغفرة من الله ورضوان » للزراع المؤمنين ، الذين استفادوا من غيث الحياة إغاثة لها عن دنياها ، فما زخرفوها أو دنّسوها بغرورها وزورها ، بل أنبتوها من هذه المرة الكأداء نباتاً حسناً ،

---

(١) وهي احدى وعشرون آية لا يحتمل معنى الزرع إلا في هذه .

(٢) وهي اربعة عشر آية .

وهكذا يجب أن تكون مسارع الحياة ومصارعها إلى الله ، لا إلى اللهو .

وهل هناك من فرق بين آيتي آل عمران والحديد ؟ إن هـــذه تقدّر عرض الجنة كعرض السماء والأرض، إذاً فليست هي في السماوات والأرض، ولا كعرضها، وإنما كعرض السماء والأرض ، وعلّها السماء الاولى أو أية سماء ؟ ولأنها للمتقين .

وتلك تقدّر عرضها السماوات والأرض، فهي إذاً فيهما وكسعتهما ، بالسماوات السبع ، ولأنها للسابقين فهي أوسع ؟.

أقول : لا هذا ولا ذاك ، فان جنة المتقين والسابقين وأيّ من المؤمنين هي فوق السماء السابعة : (ولقد رآه نزلة اخرى . عند سدرة المنتهى . عندها جنة المأوى) (٥٣ : ١٥) مهما كانت لها درجات حسب الدرجات ، وسدرة المنتهى هي منتهى الكون المحيط بسائر الكون ، ومن الافق الاعلى لصاحب المعراج قبل مقام أو أدنى ، هـــذه الجنة فرشها عرش السماء السابعة و (سقفها عرش الرحمان) [1] .

ولو كانت هي في السماء والأرض لم يكن عرضها كعرض السماء والأرض ، ولا عرض السماوات والأرض ، وإنمـا (جنة هي السماوات والأرض) ! فالسماء هناك هي السماوات هنـا وكما في غيرها ، إلا إذا قيّدت بالدنيا (السماء الدنيا) أم ماذا ، والعرض هو السعة ، لا ما يقـــابل الطول ، فان السماوات والأرض ليست عرضاً مقابل الطول ، وإنمـا هي سعة جامعة للعرض والطول، فـ (جنة عرضها السماوات والأرض) تعني سعتها ليس إلا .

وبعـــد كل ذلك فشكل السماوات والأرض دائري كروي لا طول له ولا عرض ، وإنما محيط وسطح وحجم ، وإن الجنة معدّة الآن للمتقين والذين آمنوا

---

(١) كما يروى عن الرسول (ص) تفسير الفخر الرازي ج ٢٩ ص ٢٥٣ .

فالواجب تهيئة الوسائل لغفران الله كما يحق ، وبما يشاء الله ويرضى ، فـ (اولئك جزاؤهم مغفرة من ربهم وجنات تجري من تحتها الأنهار (٣:١٣٦) (وعد الله الذين آمنوا وعملوا الصالحات لهم مغفرة وأجر عظيم) (٥ : ٩) (اولئك الذين امتحن الله قلوبهم للتقوى لهم مغفرة وأجر عظيم (٤٩ : ٣) (إن الذين يخشون ربهم بالغيب لهم مغفرة وأجر كبير) (٦٧ : ١٢) ... هؤلاء ممن تحق لهم المغفرة فالجنة .

وترى ان الإيمان بالله ورسله كتقوى عقائدي كافٍ في استحقاق فضل الجنة ؟ كلا ، اللهم إلا بتقوى عملية وكما في آية آل عمران : (أُعدّت للمتقين) وان آية الصدّيقين والشهداء اكتفت بذكر الإيمان بالله ورسله ، ولا ريب أن إيمانهم قمة الإيمان ، وإن كانوا أيضاً درجات .

* * *

مرکز تحقیقات کامپیوتری علوم اسلامی

مَا أَصَابَ مِنْ مُصِيبَةٍ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَا فِي أَنْفُسِكُمْ إِلَّا فِي كِتَابٍ مِّنْ قَبْلِ أَنْ نَّبْرَأَهَا إِنَّ ذٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ ــ ٢٢ . لِكَيْلَا تَأْسَوْا عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُوا بِمَا آتَاكُمْ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ ــ ٢٣ . ٱلَّذِينَ يَبْخَلُونَ وَيَأْمُرُونَ النَّاسَ بِٱلْبُخْلِ وَمَنْ يَتَوَلَّ فَإِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْغَنِيُّ ٱلْحَمِيدُ ــ ٢٤ . لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِٱلْبَيِّنَاتِ وَأَنْزَلْنَا مَعَهُمُ ٱلْكِتَابَ وَٱلْمِيزَانَ

« ما أصاب من مصيبة في الأرض ولا في أنفسكم إلا في كتاب من قبل أن نبرأها إن ذلك على الله يسير . لكيلا تأسوا على ما فاتكم ولا تفرحوا بما آتاكم والله لا يحب كل مختال فخور » :

فما هي المصيبة المعنية هنا ؟ وما هو الكتاب؟ وما هو الرباط بين ترك الأسى والفرح وبين المصيبة المكتوبة ؟:

المصيبة هي النائبة النازلة التي تصيب دون خطأ ، الرامية المصيبة الهدف ، وهي الرحمة المصيبة أهلها ، من الصّوب : نزول المطر ، فهي تجمع إصابة الحسنة والسيئة : « ما أصابك من حسنة فمن الله وما أصابك من سيئة فمن نفسك » (٤ : ٧٩) .

وهذه الإصابات كلٌ باذن الله: «ما أصاب من مصيبة إلا باذن الله» (٦٤:١١) و « كلٌ من عند الله » (٧٨ : ٤) ولكنها الحسنة من الله كما هي من عند الله ، والسيئة من نفسك وان كانت باذن الله ومن عند الله ، فالله أولى منا بحسناتنا ، ونحن أولى منه بسيئاتنا .

مرکز تحقیقات کامپیوتری علوم اسلامی

وإصابة السيئات قد تكون لأهلها بما كسبت أيديهم : « وما أصابكم من مصيبة فبما كسبت أيديكم ويعفو عن كثير » (٤٢ : ٣٠) إصابة بذنوبهم : « أن لو نشاء لأصبناهم بذنوبهم » (٧ : ١٠٠) : « ظهر الفساد في البر والبحر بما كسبت أيدي الناس ليذيقهم بعض الذي عملوا لعلهم يرجعون » (٣٠ : ٤١) .

وإذا تصيب المصيبة السوء غير أهلها ، فقد تكون امتهانا لهم بما لم ينهوا وسكتوا ورضوا ، كالتاركين الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، فهم قد تصيبهم ما تصيب أهل السوء من إصابات السوء ، وقد تكون امتحاناً وتكفيراً عن سيئات كما لأصحاب اليمين ، أو تكون ترفيعاً لدرجات كما للسابقين المقربين، وكل ذلك تشمله آيتنا هذه ، وآيات الكسب تخص غيرهم ممن لهم يدٌ في السوء

تتغلب على مشيئته في شيء ، ولا تُجبر على شيء ، اللهم إلا في أجلك المحتوم ، أو المعلق على غير عملك وفعلك ، أو اصابتك بما أنت السبب ، أو ما ليس لك نصيب في السبب ، فإنها كلها « في كتاب من قبل أن نبرأها » وهـذا إعلام من الله مسبقاً :

« لكيلا تأسو على ما فاتكم ولا تفرحوا بما آتاكم والله لا يحب كل مختـــال فخور » :

ولماذا الأسى على ما فات ومضى ، وهو مقدر كائن بحساب دون فوضى ، فان كان الفوت بسيئة منك فهذا شيء مرتقب ، فلا تأس ، وإنما غيّر سيرتك ، وان كان من غيرك فاعتبره لك عبرة وذكرى أو تكفيراً عن سيئات ، أو ترفيعاً لدرجات ، اذاً فلماذا الأسى على ما فات ؟!.

ثم ولماذا الفرح والمرح بما آتاك الله ، فلعله نعمة تضم نقمة فاستعذ منه بالله ، أو تجربة فاستعن فيه بالله ، أو كرامة من الله امتحانا فلماذا الفرح ؟ فهل تلهيك نعمة ؟ وكثير هؤلاء الذين يلتهون ! وليس الامتحان في النعمة أهون منه في النقمة : « ونبلوكم بالشر والخير فتنة وإلينا ترجعون » (٢١ : ٣٥) .

فلا تحسبن النعمة لباقة منك ولياقة ، ولا النقمة عذابا وآفة ، فقـد تكون النعمة نقمة والنقمة نعمة ، وقد تكون غير ذلك « والدهر لك يومان يوم لـك ويوم عليك فإذا كان لك فـــلا تبطر واذا كان عليك فاصبر فبكلاهما ستختبر »[1] .

وهذه الآية تمثل أزهد الزهد في الدنيا لأهل الدين وكما عن علي أمير المؤمنين عليه السلام : « الزهد كله بين كلمتين من القرآن : « لكيلا تأسو على ما فاتكم ولا

---

(١) عن علي أمير المؤمنين (ع) .

فهو فخور يفخر كثيراً بما خيّل اليه ، يعيش حياة الخيال والفخر والكبرياء ، ويأسى على ما فاته من الفائدات والرغبات كأنه حق له مغتصب ، ويفرح بما اوتي منها ويفخر كأنه حق له مرتقب ، ومن ثم يبخل عما اوتي من خير ويتخطاه الى أمر الناس بالبخل :

« الذين يبخلون ويأمرون الناس بالبخل ومن يتول فان الله هو الغني الحميد » :

فما أجهله وأبخله ، وما ألعنه وألأمه هذا النكد الأغود الذي يبخل بمال الله – الذي استخلفه فيه – عن عباد الله ، ثم يأمر الناس بالبخل ليكونوا معه سواء ، متولياً معرضاً عن الله ، و « هو الغني الحميد » غني عن مالِك ومالَك ، غني عنك وعن غناك ، غني في ذاته وعن مخلوقاته وهم الفقراء ، حميد في ذاته وان لم يكن له حامدون ، فما يناله شيء من حمد الحامدين ؟!.

« لقد أرسلنا رسلنا بالبينات وأنزلنا معهم الكتاب والميزان ليقوم الناس بالقسط وأنزلنا الحديد فيه بأس شديد ومنافع للناس وليعلم اللهُ مَن ينصره ورسله بالغيب ان الله قوي عزيز » :

هنا إقامة الناس بالقسط بثلث : البينات والكتاب والميزان طوعاً، وتقويم لهم بالقسط ، بالحديد البأس الشديد كرهاً ، لمن ليس له طوعٌ الى الحق ورغبة الى القسط ،الذين يجهلون أو يتجاهلون لغة الانسان: البينات والكتاب والميزان، فليواجَهوا بلغة الحيوان : حديد فيه بأس شديد ، ومن ثمّ منافع للناس ، لأنه يؤدب النسناس ويوقفهم لحد الناس ، فمثلث البرهان حجة الناس، والحديد حجة على النسناس ، فما هو الميزان بعد الكتاب ؟ وما هي البينات قبله ؟ وكتابات الوحي كلها بينات !.

إن القرآن بوحدته بينات وكتاب وميزان، ولكن سواه من كتابات الوحي

البينات ، فالحكومة الإلهية من الميزان النازل مع الكتاب ، وإن كان الكتاب بميزان بيان الرسول يمثل التشريع ، فميزان الحكم يمثل التنفيذ، فلا قوام للتشريع بلا ميزان الحكم ، كما لا حكم وزيناً بلا تشريع إلهي .

هذه هي القوة التشريعية التنفيذية ، وترى انها تقوّم الناس أجمعين؟ اللهم لا ، إلا المؤمنين بالرسالات، الذين يعقلون فيؤمنون، وأما الذين لا يعقلون أو يجهلون أو يتجاهلون ، صم بكم عمي فهم لا يرجعون ، أما هؤلاء فلا بدّ عليهم من قوة رادعة عن التخلفات ، ضابطة عن الهمجيات والفوضويات ، وما هي إلا الحديد وبأسه الشديد :

« وأنزلنا الحديد فيه بأس شديد ومنافع للناس » :

والحديد بوجه عام كل ما فيه حدة وصلابة وحق حدة البصر : « فبصرك اليوم حديد » (٥٠ : ٢٢) ، وبوجه خاص هو الحديد المعروف باصوله وفروعه ومواليده .

و « انزاله ذلك خلقه اياه »[١] لا فقط من السماء فإن الله ليس ماكن السماء وساكنها ، حتى ينزل ما ينزله منها ، وإنما أصل الإنزال في أمثاله انزال الرحمة من علوّ ساحة الربوبية إلى المربوبين الهزلاء النازلين كما أنزلت الانعام الثمانية ، وإن كان ذلك لا يمنع نزوله أيضاً من السماء إلى الأرض كالأمطار .

فلما كانت الأرض شماساً مجنونة محترقة ، كانت الفلزات كالحديد وأمثاله سائلات أحياناً وغازات وكبخارات في جو الأرض، أخرى ، فلما أخذت تقر وتبرد شيئاً فشيئاً ، أخذت السحب الغازية الحديدية وسواها تنزل فترة بعد أخرى فتدخل في شقوق الأرض أو تشقها فتدخلها فتصبح معادن تحت الأرض أو على مناكبها الجبال أحياناً !

والحديد هنا «يعني السلاح وغير ذلك»[٢] مما يحد ويقدّ ، ومن بأسه الشديد

---

(١) الاحتجاج للطبرسي عن أمير المؤمنين (ع) في الآية : فانزاله ذلك خلقه اياه .
(٢) التوحيد للصدوق عن علي (ع) في الآية : يعني السلاح وغير ذلك .

«لقد أرسلنا رسلنا.. وأنزلنا الحديد.. وليعلم الله.. ان الله قوي عزيز»:

فلأنـه قوي الحجة والمهجة ، قوي الرحمة والمحبة ، قوي اللطف والعناية ، جعل الناس تحت ظلال البينات والكتاب والميزان ، ولأنه عزيز غالب محمود في غلبه ، ينفّذ شريعته أخيراً بقوة الحديد، فللجهاد الدور الأخير بعد شلّ الحجج في تقويم الأود وتدعيم العَمَد ، رغم انها بالغة دامغة ، فالحديد ببأسه الشديد يفسح مجالات فاسحة للحياة الأمينة النبيلة ، بما يكسح ويمسح وصمات العار عن جبين الإنسانية بدحر أعداءِها وقهر ألداءِها !

ثم الرسالات الإلهية هي رسالة واحدة في جوهرها ، في مبدءها ومنتهاها ، في معناها ومغزاها ، مهما تشطرت في جزئيات هامشية منها ، كما وان أمها أمة واحدة : (ان هذه امتكم امة واحدة وأنا ربكم فاعبدون) (٢١ : ٩٢) : امة لله ، تلتقي في عبادة الله .

وترى لماذا (ليقوم الناس بالقسط) لا المكلفون أجمع ومنهم الجان؟ هل لأن الرسل أرسلوا للناس فقط ؟ وليست الرسالة محصورة لهم !

أقول : ليس إلا لأنهم محور الدعوة الرسالية والجان فروع، كما وان رسالتهم فرع لرسالتهم ، فالرسل الاصول هم من الإنس للمرسل إليهم الاصول، ثم الرسل الفروع الجنُ هم للمرسل إليهم الفروع الجن ، والقيام بالقسط على ضوء هـــذه الرسالات معنيٌ فيهم أجمع .

وقـد توحي (وليعلم) انه الأصل في مثلث المنافع للحديد ، فـ (فيه بأس شديد ومنافع للناس) هما نفعان له بطبيعة الحال ، قُصدا أم لم يُقصدا ، ولكن ثالث الأضلاع : (وليعلم) مقصود من الحديد ، فالجهاد به خيرٌ من سائر بأسه ، وأنفع من سائر منافعه ، لأنـــه يحفظ بيضة الدين ، ويؤمّن الحياة ويطمئنها للمؤمنين ، كما وان عَلم الناصرين منهم عن الخاذلين ممـــا يبصّرهم في مجتمعهم ، لكيلا يأمنوا إلى كل من يدعي الايمان، نعمتان هامتان من بين سائر نعم الحديد!

و (برسلنا) هنا لا تعم الرسل أجمع، وإلا خرج عنهم نوح وابراهيم من قبل، والمسيح ومحمد (ص) من بعد، وإنما هم مَن بين نوح وابراهيم والمسيح، مع التصريح بهؤلاء الثلاثة والتلميح أخيراً بمحمد (ص): (فآتينا الذين آمنوا منهم): من المؤمنين بالمسيح، فالايمان الثاني هو الايمان بالنبي المبشر بـه في الإنجيل محمد (ص)، كما ويصرح به وبكتابه في آية تجاوبها: (وقفينا على آثارهم بعيسى بن مريم مصدقاً لما بين يديه من التوراة وآتيناه الإنجيل فيه هدى ونور ومصدقاً لما بين يديه من التوراة وهدى وموعظة للمتقين، وليحكم أهل الإنجيل بما أنزل الله فيه ومن لم يحكم بمـا أنزل الله فاولئك هم الفاسقون. وأنزلنا إليك الكتاب بالحق مصدقاً لما بين يديه من الكتاب ومهيمناً عليه فاحكم بينهم بما أنزل الله.. لكل جعلنا منكم شرعة ومنهاجاً..) (٥: ٤٨).

فلا تعني تقفية هؤلاء الرسل بالمسيح: (وقفينا بعيسى بن مريم) لا هنا ولا هناك انه خاتم المرسلين، وإنما كتقفية لكل سابق بلا حقه، ومعظمه هنا تقفية الرسل الاسرائيليين بخـاتمهم السيد المسيح، ومن ثم يقفى بالرسول الاسماعيلي الذي هو بكتابه مهيمن على الكتب والرسل أجمعين.

فمن الهراء القولة الفارغة ان المسيح المقفى بـه الرسل هو خاتم المرسلين، خلافاً للتلويح هنا والتصريح هناك ان محمداً هو الخاتم لا سواه [١].

ولماذا لم يذكر موسى عليه السلام بعدهما وقبل المسيح عليه السلام وهو من الخمسة أولي العزم؟ علّه لأن المقام ليس مقام تعديدهم، ولذلك لم يذكر أيضاً سيدهم وخاتمهم محمداً صلى الله عليه وآله إلا تلويحاً. والعناية بذكر المسيح بعـد الأولين ليس إلا لاستعراض

---

(١) حاول الكاتب المسيحي (الحداد) في كتابه (القرآن دعوة نصرانية) إثبات ان المسيح خاتم النبيين بهذه الآية، بان الرسل يشمل الكل، فلما قفوا بالمسيح فهو آخرهم وهو زور هراء كما بيّنا.

نجد إسماً أو ممثلاً عن إنجيل المسيح في بوتقات النسيان والتناسي ، يضيء أحياناً لمن شاء أن يستضيء [١] .

وأما الرأفة والرحمة المجعولة في قلوب الذين اتبعوه ، فهما أمر ملموس ، لا في المسيحيين أجمع ، وإنما الذين اتبعوه ، وقد كان رؤفاً رحيما ، فمن اتبعه ، وفي رأفته ورحمته ، فالله يجعلها في قلبه زيادة في هداه .

وهؤلاء المتبعون هم نصارى المسيح الذين نصروه في زمنه وينصرونه بعده . ومن نصرته تصديقه بمن بشّر به : النبي محمد ﷺ وبالمودّة للمسلمين : « .. ولتجدنّ أقربهم مودّة للذين آمنوا الذين قالوا إنا نصارى ذلك بأن منهم قسّيسين ورهباناً وأنهم لا يستكبرون . وإذا سمعوا ما أنزل الى الرسول ترى أعينهم تفيض من الدمع مما عرفوا من الحق ، يقولون ربنا آمنّا فاكتبنا مع الشاهدين » (٥ : ٨٣) .

وهؤلاء هم الذين جعلهم الله فوق الكافرين الى يوم الدين : « إذ قال الله يا عيسى إني متوفيك ورافعك إليّ ومطهّرك من الذين كفروا وجاعل الذين اتبعوك فوق الذين كفروا إلى يوم القيامة .. » (٣ : ٥٥) .

= الاسكندرية دونما تردد ، ونسبه الى يوحنا زوراً ، ولقد كانت فرقة (لوجين) في ق ٢ م تنكر هذا الانجيل وجميع ما اسند الى يوحنا (٥٠) ...

(١) إنجيل المسيح كان في العهد الأول في متناول الأيدي ، وكما في دائرة المعارف الانجليزية وكتاب اكسهومو ، واختاره الفاضل (اكهارن) وكثير من المتأخرين من علماء النمسا ، ومال اليه المحققون : ليكلرك - كوب - ميكايلس - ليسنك - نيمير ومارش ، وممن ظفر أخيراً بهذا الانجيل المغفور له حيدر قليخان قرلباش المعروف بسر داركابلي مترجم إنجيل برنابا الى اللغة الفارسية . ويقال ان بروفسور (كربن) الفرنسي مندوب الادباء الفرنسيين في إيران ، اشترى هذا الانجيل من مكتبة الكابلي بـ ..... ريالاً إيرانياً وأرسله الى باريس .

ومما يمثل هذا الانجيل إنجيل برنابا القديس (راجع المقارنات) .

(الفرقان - ١٢)

وزمن خـــاص وكما يروى [١] ، ففريق رعوها حق رعايتها ، وآخرون لم يرعوها .

وقد تكون « رهبانية » بين جعل و كتابة إلهيين على كونها عطفاً لـ « مودّة ورحمة » فالمجعول هو رهبة الرهبانية ، جعلها الله في قلوبهم مع المودّة والرحمة : « وجعلنا .. مودة ورحمة ورهبانية .. » والمكتوب هو الرهبانية الحقة بعدما ابتدعوها ، والمبتدعة هي الانعزالية المطلقة عن الحياة إلى عبادة الله [٢] .

إنهم حينما ابتدعوا الرهبانية ، كتبها الله عليهم ابتغـاء رضوانه ، رفضاً لما فيها من غايات اخرى ، فأصبحوا إذن مرتبطين بهـــا أمام الله أن يرعوها حق رعايتها بما رفضوه عن أنفسهم وحرّم الله ، وما فرضوه على أنفسهم و كتب الله ، حفاظاً على متطلباتها من تطهّر وترفّع وعفة ومناعة وقناعة وعبادة ، مما يحقق في نفوسهم حقيقة التجرّد لله ، ولكنها انتهت في الغـالب الى طقوس جوفاء ، فارغة عن الروح البراء ، تجارة كغيرها من تجارات ، إلا أنها بالدين وما أتعسه وأخسره من عناء لعناء !.

مرکز تحقیقات کامپیوتری علوم اسلامی

(١) مجمع البيان عن ابن مسعود قال : كنت رديف رسول الله (ص) على الحمار فقال يا ابن ام عبد ! هل تدري من أين احدثت بنو إسرائيل الرهبانية ؟ فقلت : الله ورسوله أعلم ، فقال : ظهرت عليهم الجبابرة بعـد عيسى (ع) يعملون بمعاصي الله ، فغضب أهل الايمان فقاتلوهم ، فهزم اهل الايمان ثلاث مرات فلم يبق منهم إلا القليل فقالوا : إن ظهرنا لهؤلاء أفنونا ولم يبق للدين أحد يدعو اليه،فتعالوا نتفرق في الأرض الى ان يبعث الله النبي الذي وعدنا به عيسى (ع) – يعنون به محمداً (ص) – فتفرقوا في غيران الجبال وأحدثوا رهبانية ، فمنهم من تمسك بدينه ومنهم من كفر ، ثم تلا هذه الآية : « ورهبانية ابتدعوها ما كتبناها عليهم إلا ابتغاء رضوان الله » ، ثم قـال (ص) : يا ابن ام عبد ! أتدري ما رهبانية امتي ؟ قـال : الله ورسوله أعلم ، قال : الهجرة والجهاد والصلاة والصوم والحج والعمرة .

(٢) « إلا ابتغاء رضوان الله » استثناء متصل كما بينا ، وكونه منقطعاً ينافي وجود المفعول « ها » في « ما كتبناها » فلا معنى لكونه منقطعاً إلا على تاويل مستهجن يذاد عنه ساحة كلام الله بل وكل كلام فصيح او وعادي غير فصيح .

الذين رعوا الرهبانية حق رعايتها » وكثير منهم فاسقون » كما وهم لا يزالون في الصوامع والأديرة، دكّات التجارات والغايات، وأديرة التحمير والاستثمارات!.

فكثير من الراهبين التاركين الزواج بواحدة، يغوصون في بحر من الدعارات بالراهبات، وكثير من الراهبات التاركات الشهوات، الرافضات الزواج الواحد، يتلوثن بدعارات في الأديرة مع جماعات الرهبان.

هذا! ولكنما الرهبانية في الاسلام ممنوعة بكافة صورها، فكان من حق رعايتها للرهبان المؤمنين بمحمد أن تركوها لأنها ممنوعة في الاسلام، كما قال الرسول ﷺ: «رهبانية امتي الهجرة والجهاد والصلاة والصوم والحج والعمرة»[1] جمعاً بين ألوان الواجبات الجماعية والفردية ومن أهمها الجهاد وكما قال: «رهبانية هذه الامة الجهاد في سبيل الله»[2] طبعاً وبكل الطاقات: نفساً ونفيساً، قلماً ولساناً وفكراً أم ماذا، دون الرهبانية الانعزالية الصومعية التقشفية، العازلة عن الحياة، المنعزلة عن المجتمعات، ولو كانت محصورة في العبادات، فالإسلام كله حياة، وكله هجرة، وكله جهاد، وكله حج وعمرة وصلاة، لا تختلف إلا في الصورة، وأما السيرة والمسيرة فصيغة واحدة هي: سبيل الله!.

ان الرهبانية حتى الحقيقية منها لم تكتب علينا، وإنما أبدل عنها بالجهاد، وما ألطفه المروي عن الرسول ﷺ حيث يقول: «إني لم أؤمر بالرهبانية»[3]

---

(١) كما مضى حديثه عن المجمع عن ابن مسعود وفي عيون الأخبار عن أبي الحسن الرضا (ع) قال: صلاة الليل.

(٢) الدر المنثور ٦: ١٧٨ أخرج أحمد والحكيم والترمذي في نوادر الاصول وأبو يعلي والبيهقي في الشعب عن انس أن النبي (ص) قال: لكل امة رهبانية ورهبانية هذه الامة الجهاد في سبيل الله.

(٣) أحمد بن حنبل ٣، ٨٢، ٢٦٦.

والمخاطبون أن يؤمنوا ثانياً بهـــذا الرسول هم المؤمنون من أهل الكتاب وسواهم ، وعـد كلا كفلين من رحمته ، فالأولون إذ كانوا مؤمنين من قبل ثم استجدوا الإيمان به فلهم أجران [١] والآخرون إذ آمنوا أولا ثم ازدادوا إيماناً فلهم كفلان ، ومن ثم فمن لم يؤمن من أهل الكتاب تجاهلاً وعناداً فلا كفل له ولا أجر وإنما وزر على وزر ،واذا كان جهلاً قاصراً فله أجر ، كمن آمن بالرسول من غيرهم ثم لم يستجد الإيمان فله كفل ، والمشركون وسواهم الذين لم يؤمنوا أولا وأخيراً فعليهم وزر « وكل انسان يعمل على شاكلته » .

وعلّ هـذه الآية الشاملة لفريقي المؤمنين تأمين للمسلمين منهم إذ فزعوا من أجر الآخرين مرتين : « الذين آتيناهم الكتاب من قبله هم به يؤمنون . وإذا يتلى عليهم قالوا آمنا به انـه الحق من ربنا إنا كنا من قبله مسلمين . اولئك يؤتون أجرهم مرتين بما صبروا ويدرءون بالحسنة السيئة ومما رزقناهم ينفقون. وإذا سمعوا اللغو أعرضوا عنه وقالوا لنا أعمالنـــا ولكم أعمالكم سلام عليكم لا نبتغي الجاهلين » (٢٨ : ٥٥) .

فلما نزلت هـــذه الآية قالوا يا معاشر المسلمين ! أما من آمن منا بكتابكم فله أجران ومن لم يؤمن بكتابكم فله أجر كاجوركم فأنزل الله هذه الآية:الكفلين[٢].

إذاً فالمحور الأصيل فيها هم المؤمنون من غير الكتابيين كما ويدل عليه : « لئلا يعلم أهل الكتاب ألا يقدروا على شيء من فضل الله.. » فإنهم بحجة آية الأجرين علموا تفوقهم على المؤمنين لو آمنوا ، ومساواتهم لو بقوا ، فلا يقدر المسلمون على شيء من فضل الله !.

---

(١) الجمع عن النبي (ص) في حديث : وأيـــا رجل من أهل الكتاب آمن بنبيه وآمن بمحمد (ص) فله أجران .

(٢) الدر المنثور ٦ : ١٧٩ أخرجه الطبراني في الأوسط عن ابن عباس ، وابن أبي حاتم عن مقاتل بن حيان .

وكما عرفناه ، لا يُكفل الكفلان إلا لمن زاد إيماناً على إيمان ، أياً كان ، وإنما بحساب وميزان ، وأجران لمؤمني أهل الكتاب ، ثم ولهم كفلان لو زادوا إيماناً على إيمان :

« لئلا يعلم أهل الكتاب ألا يقدرون على شيء من فضل الله وأن الفضل بيد الله يؤتيه من يشاء والله ذو الفضل العظيم » :

فآية أجرهم مرتين علتهم أن المؤمنين من غيرهم لا يقدرون على شيء من فضل الله ، ومنهم من زعموا أنهم كأهل الكتاب لا يقدرون على شيء من فضل الله الذي يؤتاه المسلمون ، وآخرون – وهم كثير – تعصبوا كأن الجنة خاصة بهم : « وقالوا لن يدخل الجنة إلا من كان هوداً أو نصارى » (٢ : ١١١) أو أن النبوة خاصة بآل اسرائيل كأنها محتكرة فيهم ، وآية الكفلين هدمت هذا المربع المزعوم بأضلاعه وتبنت صرحاً عالياً بكفلين أعلى من الأجرين ، اللهم إلا اذا تحول أصحاب الأجرين الى حالة الكفلين ، أو تحول أصحاب الكفلين الى حالة الأجرين أو أدنى ، فلكل أجره وكفله «وان ليس للانسان إلا ما سعى».

هكذا يحكم الله في آية الكفلين « لئلا يعلم أهل الكتاب ألا يقدرون » : هم أو المسلمون «على شيء من فضل الله» فالمسلمون قادرون على فضل الله وأحرى ، كما هم قادرون ، دون اختصاص ولا حكرة لفضل الله بقوم خاص ، وإنها القدرة بالايمان والعمل كما يشاء الله ويرضى ، لا القدرة بالأمنية والأمل كما يهوون ، اللهم إلا الرسالة الالهية التي لا يقدر عليها أحد إلا صفاءً هي كظرف للاصطفاء.

« لئلا يعلم .. » حال : «وان الفضل بيد الله» تكويناً وتشريعاً ، لا بأيديهم كما يهوون ، ولا بأيدي الفوضى « يؤتيه من يشاء » لا من يشاءون ، وبميزانه العدل لا كما يزعمون .

(سورة المجادلة — مدنية — وآياتها اثنتان وعشرون)

بِسْمِ ٱللهِ ٱلرَّحْمٰنِ ٱلرَّحِيمِ . قَدْ سَمِعَ ٱللهُ قَوْلَ ٱلَّتِي تُجَادِلُكَ فِي زَوْجِهَا وَتَشْتَكِي إِلَى ٱللهِ وَاللهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَا إِنَّ ٱللهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ — ١ . ٱلَّذِينَ يُظَاهِرُونَ مِنْكُمْ مِنْ نِسَائِهِمْ مَّا هُنَّ أُمَّهَاتِهِمْ إِنْ أُمَّهَاتُهُمْ إِلاَّ ٱللَّائِي وَلَدْنَهُمْ وَإِنَّهُمْ لَيَقُولُونَ مُنكَراً مِّنَ ٱلْقَوْلِ وَزُوراً وَإِنَّ ٱللهَ لَعَفُوٌّ غَفُورٌ — ٢ . وَٱلَّذِينَ يُظَاهِرُونَ مِنْ نِسَائِهِمْ ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا قَالُوا فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مِّنْ قَبْلِ أَنْ يَتَمَاسَّا ذٰلِكُمْ تُوعَظُونَ بِـــهِ وَاللهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ — ٣ . فَمَنْ لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ شَهْرَيْنِ مُتَتَابِعَيْنِ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَّتَمَاسَّا فَمَنْ لَّمْ يَسْتَطِعْ فَإِطْعَامُ سِتِّينَ مِسْكِيناً ذٰلِكَ لِتُؤْمِنُوا بِاللهِ وَرَسُولِهِ وَتِلْكَ حُدُودُ ٱللهِ وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٌ — ٤ . إِنَّ ٱلَّذِينَ يُحَادُّونَ اللهَ وَرَسُولَهُ كُبِتُوا كَمَا كُبِتَ ٱلَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَقَدْ أَنْزَلْنَا آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ وَّلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ مُّهِينٌ — ٥ . يَوْمَ

وَإِذَا قِيلَ انشُزُوا فَانشُزُوا يَرْفَعِ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ — ١١ .

سورة تحمل — فيما تحمل — أحكاماً تربوية جماعية أخلاقية، جارفة التصورات الخاطئة ، والتصرفات الغالطة ، والعادات الجاهلة ، مُنشأةً اسساً جديدة ، ومبادىء عالية ، في نفوس الجماعة المسلمة ، ولكي تحمل دعوة الإسلام آمنة مطمئنة لمن يبتغي السلام .

« قد سمع الله قول التي تجادلك في زوجها وتشتكي الى الله والله يسمع تحاوركما إن الله سميع بصير » .

طرف من عَنَت الجاهلية بحق المرأة المظلومة المنكوبة — بين مئات الأعنات — أن الرجل كان يغضب على امرأته فيحرمها على نفسه بالظهار قائلاً : « أنت عليّ كظهر امي » فتحرم عليه ، ولا تطلق منه كالمعلقة : لا أيّم ولا ذات بعل ، ظلماً ما أفحشه بحقها وبحقه أيضاً .

فالإسلام منذ بزوغه في افق الجزيرة ، أخذ يحرف هذه الهرطقات آونات حدوثها ، ومن ذلك الظهار : ظاهر رجل من امرأته فأتت رسول الله ﷺ تجادله في زوجها ، وتشتكي الى الله بأسها وبؤسه ، والرسول ﷺ لا يملك حكماً ولا جواباً حتى يأتيه الوحي ، فانصرفت آئسة بائسة ، فإذا بالوحي يأتيه حاملاً تفاصيل الحكم: «قد سمع الله قول التي تجادلك في زوجها وتشتكي الى الله..».

إن الله تعالى يسمع الأقوال لا كما نسمعها ، ويبصر الأحوال لا كما نبصرها ، فإنه سميع لا بآلة ، بصير لا بأدات، فطالما يكلمنا عن نفسه بلغتنا لكي نتفهم، ولكنه لا يعني منها إلا ما يناسب ساحة قدسه دون منَاسبات الممكنات ، فسمعه وبصره هما علم ما يُسمَع وما يُبصَر ، دون سمع ولا بصر كما لسواه .

كظهر امي » وقد أخرجني من منزلي فانظر في أمري ، فقال لها رسول الله ﷺ : ما أنزل الله تبارك وتعالى كتاباً أقضي فيه بينك وبين زوجك ، وأنا أكره أن أكون من المتكلفين ، فجعلت تبكي وتشتكي ما بها الى الله عز وجل والى رسول الله ﷺ وانصرفت .. وأنزل الله في ذلك قرآناً : « بسم الله الرحمن الرحيم . قد سمع الله ... »[1] .

وهذه المنعة والحائطة الرسولية مما تحكم عقد الرسالة وتطمئن الناس أنه « ما ينطق عن الهوى . إن هو إلا وحي يوحى » وكما أمره الله : « .. لتحكم بين الناس بما أراك الله .. » (٤ : ١٠٥) فما هو إلا رسول وليس مشرّعاً !.

ثم الشكوى هذه توحي بأن المرأة في الإسلام لها حق المجادلة بحقها ، والمحاورة بشأنها ، حتى ومع الرسول ﷺ دون أن يحكم عليها بالسكوت والخمول ، وأنّ إذن الزوج لا يشترط فيما يحق لها من جدال وتراجع لأخذ الحق الى حكام العدل .

مرکز تحقیقات کامپیوتری علوم اسلامی

« الذين يظاهرون منكم من نسائهم ما هن أمهاتهم إن أمهاتهم إلا اللائي ولدنهم وإنهم ليقولون منكراً من القول وزوراً وإن الله لعفو غفور » .

تنديد شديد بالمظاهرين من نسائهم ، زاعمين أنهن يصبحن كامهاتهم بهذا القول الزور المنكر .

---

(١) القمي باسناده عن أبي جعفر الباقر عليه السلام قال : ان امرأة من المسلمات أتت النبي صلى الله عليه وآله وسلم فقالت : ... (نور الثقلين ٥ : ٢٥٤) . أقول : وهذه المرأة حسب الروايات هي خولة بنت ثعلبة زوجة أوس بن الصامت ومن ذلك ما روته عائشة قالت : تبارك الذي وسع سمعه كل شيء اني لأسمع كلام خولة بنت ثعلبة ويخفى علي بعضه وهي تشتكي زوجها الى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وهي تقول : يا رسول الله أكل شبابي ونثرت له بطني حتى اذا كبر سني وانقطع ولدي ، ظاهر مني ، اللهم اني أشكو اليك ، فما برحت حتى نزل جبرئيل بالآيات ، (الدر المنثور ٦ : ١٧٩)..

فالقول « أنت عليّ كظهر امي » منكر ينكره الواقـــع والشرع والضمير واعتبار العقل، وزور يكذبه الشرع والواقع، عادة جاهلية تعرّفت فيهم كأنها أصل يعتمد عليه .

والظهار من الظهور بمعنى الغلبة والعلو: «فما اسطاعوا أن يظهروه» : يعلوه، فالزوج غالب على زوجته يملكها في بُضعهـــا ، ويعلوها في أمره وإرشاداته : « الرجال قوّامون على النساء » « كانتا تحت عبدين من عبادنا » كذلك ويعلوها ويركبها حين يطئها ، ولذلك قـد يعبّر عن طلاقها بالنزول عنها : « نزلت عن امرأتي » إذ كان يركبها ، مسيطراً عليها .. فليس -- إذاً -- من الظهر ، فإنـه ليس أولى بالذكر من الأمام الذي فيه مواضع المباضعة والتلذذ منها ، فظهر المرأة ليس أصلاً فيما يرغب منها ، بل وفي إتيانها منه قول بالتحريم !.

وإذا كان الظهار منكراً من القول وزوراً فهو محرم قطعاً ، ولا ينافيه عفو الله وغفره : « وان الله لعفو غفور » فإنه بعد التوبة والكفارة التالية .

« والذين يظاهرون من نسائهم ثم يعودون لما قالوا فتحرير رقبة من قبـل أن يتماسا ذلكم توعظون به والله بما تعملون خبير » .

صحيح أن الظهار لا تجعل الزوجة كالام في حرمة مؤبدة وكالمعلقة ، ولكنها تحرّمها مؤقتة نكالاً من الله ، فالمقصود منه لم يقـــع ، والواقع غير مقصود ، وحكم الحرمة المؤقتة الزائلة بالكفارة من الله تعالى تأديب وتأنيب للمظاهرين من نساءهم ، وليس امضاء لسنة جاهلية .

و « من نسائهم » تعم الدائمة والمنقطعة وملك اليمين خلافاً للأربعة في الثانية إذ لا يعتبرونها زوجة ، ولأبي حنيفة والشافعي في الأخير ، وعموم النساء للثلاث ، وان المنقطعة زوجة بالكتاب والسنة : حجة عليهم ، وكما سويت بين الحرة والأمة

ويحرم على الزوجة ما يحرم على الزوج بنفس سند التماس حيث يحرّم المس من الطرفين ، فيحل لها بكفارة الزوج ، والحكمة في هذا الحرمان من جانب الزوجة أن تساعد على حرمان الزوج .

ويصح ظهار العبد كما الحر ، وعدم ملكه لرقبة حتى يعتق يدخله فيمن لم يستطع ، دون أن يخرجه عمن يصح ظهاره ، ولكنه لا يصح من المرأة للنص : « من نسائهم » إضافة الى أن لغة الظهار لا تناسب إلا الزوج كما سبق في أحاديثنا [١] .

وهل يصح الظهار قبل الدخول ؟ نعم لإطلاق الآية ، ولا للأحاديث المقيدة لها بالمدخول بها ، خلافاً للأئمة الأربعة ، وفاقاً للأئمة الاثنى عشر عليهم السلام إذ يروون عن الرسول ﷺ شرط الدخول [٢] ، كما رووا اشتراطه بحالة طهر غير المواقعة بحضور عدلين كالطلاق خلافاً للأربعة [٣] .

والنص هنا « ثم يعودون لما قالوا » فلو لم يعد فهل تحرم عليه حتى يعود ، أو لا يعود فتصبح كالمعلقة ؟ قطعاً لا ! فكيف يرضى الله بهذا الذي سماه كذباً وزوراً أن يستمر ، وإنما يجبر على أحد أمرين : العود مع الكفارة ، أو الطلاق فيما اذا رفعت المظاهَر منها أمرها الى الحاكم ، كما في أحاديثنا : انه يجبر على أحد الأمرين بعد ثلاثة أشهر من المرافعة .

« فتحرير رقبة من قبل أن يتماسا » : اذا كانت عنده رقبة ، وإلا فليشترِ

---

(١) القمي باسناده عن الصادق عليه السلام قال قال أمير المؤمنين عليه السلام اذا قالت المرأة : زوجي علي كظهر امي فلا كفارة عليها .

(٢) الكليني بإسناده عن الصادق عليه السلام عن رجل مملوك ظاهر من امرأته فقال عليه السلام : لا يكون ظهار ولا إيلاء حتى يدخل بها ورواه الصدوق بسندين عن الصادقين عليهما السلام (الوسائل ١٥ : ٥١٦) .

(٣) الكليني بإسناده إلى الباقر عليه السلام قال : لا يكون ظهار إلا في طهر من غير جماع بشهادة شاهدين مسلمين ورواه القمي في تفسيره مثله ومثله كثير (الوسائل ١٥ : ٥٠٩) .

الضغوط النفسية والمالية عليكم « لتؤمنوا بالله ورسوله » فلا تأتوا بتصرفات وأقوال منكرة وزور فإنها خلاف الإيمان « وتلك حدود الله » لا ما حددتم لأنفسكم في مثل الظهار أن تكلفتم ما لم تُكلّفوا « وللكافرين » عقائدياً أو عملياً بهذه الحدود الإلهية « عذاب أليم » .

وعدم استطاعة الصوم شهرين متتابعين أعم من العجز عن أصل الصوم ، أو الصوم هكذا،أو أن الشَبَق الشديد والغلمة الهاجمة يطيقانه عن أن يصبر شهرين رغم إمكانية الصوم ، شرط ألا يجد طريقاً آخر لإطفاء نائرة الشهوة كزواج منقطع ومثله .

وإذا لم يجد ما يطعم يستغفر الله ويؤدي عنه من بيت المال لو أمكن ، وهو ممن يأكل من الكفارة لو كان مسكيناً كما في أحاديثنا [١] .

وهل تسقط هذه الكفارات إذا واقعها قبلها ؟ كلا ! وإنما تثبت كفارة اخرى للوقاع قبلها [٢] « قبل أن يتماسا » بيان لظروف وجوبها وان الوقاع قبلها محرّم ، فلو واقع فعل محظوراً ، فهل إن فعل المحظور يسقط الكفارة ؟!.

---

(١) القمي بإسناده عن الصادق عليه السلام قال : جاء رجل الى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فقال يا رسول الله ! ظاهرت من امرأتي ، قال : اذهب فاعتق رقبة ، قال : ليس عندي، قال : اذهب فصم شهرين متتابعين، قال : لا أقوى، قال : اذهب فاطعم ستين مسكيناً، قال : ليس عندي ، قال : فقال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم : أنا أتصدق عنك فأعطاه تمراً لإطعام ستين مسكيناً ، فقال : اذهب فتصدق بها ، فقال : والذي بعثك بالحق لا أعلم بين لابتيها أحداً أحوج اليه مني ومن عيالي، قال:فاذهب وكل وأطعم عيالك (نور الثقلين ٥ : ٢٥٧).

(٢) الشيخ الطوسي بإسناده عن الحلبي عن الصادق عليه السلام عن الرجل يظاهر من امرأته ثم يريد أن يتم على طلاقها ؟ قال : ليس عليه كفارة ، قلت : إن أراد أن يمسها ؟ قال : لا يمسها حتى يكفر ، قلت : فان فعل فعليه شيء ؟ قال : إي والله إنه لآثم ظالم ، قلت : عليه كفارة غير الاولى ؟ قال : نعم يعتق أيضاً رقبة وروي ما في معناه عن الحسن الصيقل عنه عليه السلام وعن أبي بصير عنه عليه السلام (الوسائل ١٥ : ٥٢٧ - ٥٢٨) .

ثلاثة إلا هو رابعهم ولا خمسة إلا هو سادسهم ولا أدنى من ذلك ولا أكثر إلا هو معهم أينما كانوا ثم ينبئهم بما عملوا يوم القيامة إن الله بكل شيء عليم » .

« ألم ترَ » : رؤية العلم كأنها عيان، استفهام تقرير : أن الرسول ﷺ يرى — فيما يرى — « أن الله يعلم ما في السماوات وما في الأرض » من سرّ وإعلان ، دون أن يكون شيء أقرب له من شيء ، أو أبين له من شيء، يعلم ما في الكون على سواء ، دون أي جهل أو خفاء ، ويعلم من يتناجون ونجواهم و « هو معهم » معية العلم والقيومية ،لا معية الكيان والحدّ والعدد «ما يكون من نجوى ثلاثة»: أشخاص رجالاً أو نساء أم مختلطين ، تناجياً ومسارة بينهم « إلا هو رابعهم » وليس ثالثهم ، إذ لا يتناجى معهم ولا يتناجون معه ، وليس داخلاً في أي حد وعدد ، وإنما « رابعهم » في علمه بما يتناجون ، دون أن تخفى عليه خافية ، أجل ، وانه تعالى لا يتمم عدد الكائنات بذاته ، فهو « واحد بعدد ، ولا عن عدد ، ولا بتأويل عدد » فليس رابعاً لهم ككائن محدود بحدودهم ، يقارنهم في كيانهم وزمانهم ومكانهم ومكانتهم ، وإنما مقارنة المعية العلمية والقيومية (داخل في الأشياء لا بالممازجة ، خارج عن الأشياء لا بالمزايلة) « ولا خمسة إلا هو سادسهم » بنفس المعنى « ولا أدنى من ذلك » اثنين أو واحد : كمن يتناجى ونفسه : (انه يعلم السر وأخفى) « ولا أكثر » من خمسة وأكثر « إلا هو معهم أينما كانوا » : وهذه المعية المطلقة اللامحدودة تفسير عميق أنيس لكونه تعالى رابع المتناجين أو سادسهم ، انه المعية العلمية دون حجاب ، لا والمعية العددية وسواها من المعيات التي لا تناسب ساحة قدسه تعالى ، كما وان « أينما كانوا » يخرجه وينزهه تعالى عن المكان أياً كان ، فليس للمحيط على كل ما كن ومكان أن يكون في كل مكان ، إلا كوناً علمياً ، وكما في جواب الامام علي عليه السلام عما

وكفانا حضوره بما نسرّ ونعلن رهبة منه ، ورغبة في طاعته ، ولكنه ينبئنا بما عملنا يوم القيامة ، رجفة فوق رجفة : « ثم ينبئهم بما عملوا يوم القيامة إن الله بكل شيء عليم » وانه يعاملنا بما عملنا ويحكم « ولا تظلمون نقيراً » .

وعلّ تخصيص الذكر بالعددين الفردين بمناسبة النزول[1] وان الله يحب الوتر لأنه وتر طالما بين الوترين من بون .

ثم التناجي بالإثم والعدوان ومعصية الرسول ، وما يُحزن الذين آمنوا ، إنها محرمة وأحياناً لحد الكفر ، كما أن التناجي بالبر والتقوى محللة ولحد الوجوب أحياناً فيما يحمل تحقيق واجب أو الذب عن محرّم ، فلا تحرم ولا تجب ذاتياً ، إلا بما تحمل من مفروض أو محظور :

« ألم تر الى الذين نهوا عن النجوى ثم يعودون لما نهوا عنه ويتناجون بالاثم والعدوان ومعصيت الرسول واذا جاءوك حيوك بما لم يحيك به الله ويقولون في أنفسهم لولا يعذبنا الله بما نقول حسبهم جهنم يصلونها وبئس المصير » .

أتى ذكر النجوى بخيرها وشرها في سبع سور[2] تندد بالذين يزعمون أن الله لا يعلم سرهم ونجواهم (٤٣ : ٨٠) (٩ : ٧٨) وأن النجوى لا خير فيها « إلا من أمر بصدقة أو معروف أو إصلاح بين الناس » (٤ : ١١٤) ناهية عن نجوى الظالمين : « وأسروا النجوى الذين ظلموا هل هـذا إلا بشر مثلكم » (٢١ : ٣) .

ولقد كانت للمنافقين والذين في قلوبهم مرض مؤامرات سرية يتناجون فيها ضد الرسالة الإسلامية « بالإثم والعدوان » وضد الرسول : « معصيت الرسول »

---

(١) قيل نزلت في قوم من المنافقين اجتمعوا على التناجي مغايظة للمؤمنين وكانوا على هذين العددين .

(٢) هذه السورة والإسراء ، طه ، الأنبياء ، النساء ، التوبة ، الزخرف .

يجنب الآخرة ، إذ يصلون : يوقدون ، جهنم ، كما كانوا وقوداً لنيران المؤامرات يوم الدنيا ، وحسبهم من عذاب الدنيا أن الله يفضحهم في مكائدهم ومصائدهم ضد الرسالة الإسلامية « خسر الدنيا والآخرة » !.

وطالما لم يؤثر النهي عن النجوى في المنافقين ، ولكنه مؤثر في الجماعة المؤمنة التي قد تنجرف في نجوى سيئة فتودي بها إلى «الإثم والعدوان ومعصية الرسول» كالتشاور فيما يرتبط بالسياسة الإسلامية ، بعيداً عن القيادة ، والتجمعات الجانبية ، تناجياً هنا وهناك ، المنافية لروح التنظيم الإسلامي ، فإنها قد تؤدي – وكثيراً ما تؤدي – إلى البلبلة والفوضى ، الراجعة بـ « الإثم والعدوان ومعصية الرسول » وإن لم تكن مقصودة ! إلا أن مجرد الإثارة للمسائل الجارية ، وإبداء الآراء فيها على غير علم ، وبعيداً عن القيادة ، قد يؤدي إلى هذا الثالوث المنحوس الذي يبغيه المنافقون ضد الاسلام .

فحذار حذار أيتها الجماعة المسلمة أن تعاونوا المنافقين على أنفسكم في تناجيكم الجانبية ، فتصبحوا أعداء أنفسكم وسائر المؤمنين !.

« يا أيها الذين آمنوا إذا تناجيتم فلا تتناجوا بالاثم والعدوان ومعصية الرسول وتناجوا بالبر والتقوى واتقوا الله الذي اليه تحشرون » :

« تناجوا بالبر » : في علاقاتكم الفردية والجماعية ، ما ثبت أنه برّ : واسع الخير والبركة « والتقوى » : التجنب عن سخط الله ، وعن معصية رسول الله ، « تناجوا » فيما بينكم لترك التصميمات الجانبية ، فيما يرتبط بالقيادة والتنظيم والسياسة الاسلامية « تناجوا » تخفياً عن الأعداء – لا عن المؤمنين المسالمين – أو تخفياً عن ضعفاء العقول من المؤمنين ، الذين يفشون الأسرار جهلاً فتبوء بالخسارة والدمار ، « تناجوا » متقين عن محاظير التناجي فردياً وجماعيا .

« إنما النجوى من الشيطان ليحزن الذين آمنوا وليس بضارهم شيئاً إلا باذن الله وعلى الله فليتوكل المؤمنون » :

سلوك السبل المستطاعة ، فقصورها وكلالها عن كفاية البأس ، فالتوكل على الله قادرين وقاصرين : « ومن يتوكل على الله فهو حسبه » (٦٥ : ٣) .

فلا يعني التوكل على الله ترك الأسباب تفريطاً لهـا ، ولا فيما إذا كلّت أو قلّت فحسب ، وإنما ترك التوكل على غيره من أسباب ، بل التوسل بها لوصول البغية متوكلاً في كل ذلك على الله ، دون توهّم لاستقلال الأسباب وإن كانت كافية حسب الظاهر ، فإن له تعقيمها ، كما له تتميمها إذا قلّت أو كلّت .

« يا أيها الذين آمنوا اذا قيل لكم تفسّحوا في المجالس فافسحوا يفسح الله لكم وإذا قيل لكم انشزوا فانشزوا يرفع الله الذين آمنوا منكم والذين اوتوا العلم درجات والله بما تعملون خبير » :

بما أن الدين ليس تكاليف حرفية جافة ، ولكنه تحوّل في الشعور ، واستجاشة لمكارم الأخلاق ، وحساسية في الضمير ، لذلك نرى الآيات تترى في تأديب الجماعة المسلمة بالمثل العليا ، وتأنيبها فيما ينافيها ، في كل قولة وحركة وسكون .

مركز تحقيقات كامپيوترى علوم اسلامى

والتفسح في المجالس هو التوسع فيها ، وأحرى المجالس بذلك مجالس النبي ﷺ ، كما أنه أفضل القائلين : (تفسّحوا – انشزوا) ، وقد كان المسلمون يتضامّون في مجالسه ﷺ رُكاماً ، تنافساً على القرب منه ، وتحارصاً على استماع كلامه ، فإذا ورد وارد ضنّوا بالتفسح له ، فأمرهم رسول الله ﷺ ألا يضِنّوا ، ويتفسحوا في المجالس ترحيباً وترغيباً للواردين ، ولا سيما إذا كانوا أفضل منهم في الإيمان – هنا – « فافسحوا » وبأحرى إذا كان الوافد أعلم ، « فانشزوا » : ارفعوا : قوموا وقدموهم على أنفسكم في المكان كما هم أفضل منكم في المكانة .

نزلت الآية يوم الجمعة ورسول الله ﷺ جالس في الصفّة وفي مكان ضيق ، وكان يكرم أهل بدر من المهاجرين والأنصار ، فقدم جماعة منهم عليه ﷺ ،

الشيعة [١] ، ولكن هـــذا لا يعني أنه يحق للقادم – ولو كان أفضل – أن يقيم الجالسين فيجلس مكانهم ، وكما عن الرسول ﷺ : (لا يقيم الرجلُ الرجلَ من مجلسه فيجلس فيه ، ولكن تفسحوا أو توسعوا) [٢] ، وإنما الأدب الاسلامي للقادم أن يجلس بدون الشرف ، كما كان من دأب الرسول ﷺ والأئمة من آل الرسول عليهم السلام [٣] .

= ينتظرون أن يوسع لهم فعرف النبي (ص) ما يحملهم على القيام فلم يفسح لهم فشق ذلك عليه فقال لمن حوله من المهاجرين والأنصار من غير أهـــل بدر : قم يا فلان وأنت يا فلان ، فلم يزل يقيمهم بعدة النفر الذين هم قيام من أهل بدر ، فشق ذلك على من اقيم من مجلسه فنزلت الآية .

(١) الاحتجاج للطبرسي : روي عن الحسن العسكري (ع) انه اتصل بأبي الحسن علي بن محمد العسكري (ع) ان رجلاً من فقهاء شيعته كلم بعض النصاب فأفحمه بحجته حتى أبان عن فضيحته ، فدخل على علي بن محمد (ع) وفي صدر مجلسه دست عظيم منصوب وهو قاعد خارج الدست وبحضرته خلق من العلويين وبني هاشم ، فما زال يرفعه حتى أجلسه في ذلك الدست وأقبل عليه ، فاشتد ذلك على اولئك الأشراف . فأما العلويون فعجلوه عن العتاب ، وأما الهاشميون فقـــال له شيخهم : يا ابن رسول الله ! هكذا تؤثر عامياً على سادات بني هاشم من الطالبيين والعباسيين ؟ فقال (ع) : إياكم وأن تكونوا من الذين قال الله تعالى : « ألم تر الى الذين أوتوا نصيباً من الكتاب يدعون الى كتاب الله ليحكم بينهم ثم يتولى فريق منهم وهم معرضون » ، أترضون بكتاب الله عز وجل حكماً ؟ قالوا : بلى ، قال : أليس الله يقول : « يا أيها الذين آمنوا إذا قيل لكم تفسحوا في المجالس فافسحوا يفسح الله لكم .. يرفع الله الذين آمنوا منكم والذين أوتوا العلم درجات » فلم يرض للعالم المؤمن إلا أن يرفع على المؤمن غير العالم ، كما لم يرض للمؤمن إلا ان يرفع على من ليس بمؤمن ، أخبروني عنه قال : « يرفع الله الذين آمنوا والذين أوتوا العلم درجات » ؟ أو قـــال: يرفع الله الذين أوتوا شرف النسب درجات ؟ أوليس قال الله عز وجل : « هل يستوي الذين يعلمون والذين لا يعلمون ؟ » فكيف تنكرون رفعي لهذا لما وفقه الله ؟ ان كسر هـذا فلان الناصب بحجج الله التي علمه إياهـا ، لأفضل له من كل شرف في النسب .

(٢) الدر المنثور ٦ : ١٨٥ – أخرج البخـــاري ومسلم عن عمر أن رسول الله (ص) قال : ...

(٣) الكافي عن ابي عبدالله الصادق (ع) قال : كان رسول الله (ص) إذا دخل منزلاً قعد في أوفى المجلس اليه حين يدخل . وفيه عنه (ع) : من رضي بدون الشرف من المجلس لم يزل الله عز وجل وملائكته يصلون عليه حتى يقوم .

الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَأَطِيعُوا اللهَ وَرَسُولَهُ وَاللهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ — ١٣ . أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ تَوَلَّوْا قَوْماً غَضِبَ اللهُ عَلَيْهِمْ مَا هُمْ مِنْكُمْ وَلَا مِنْهُمْ وَيَحْلِفُونَ عَلَى الْكَذِبِ وَهُمْ يَعْلَمُونَ — ١٤ . أَعَدَّ اللهُ لَهُمْ عَذَاباً شَدِيداً إِنَّهُمْ سَاءَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ — ١٥ . اتَّخَذُوا أَيْمَانَهُمْ جُنَّةً فَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللهِ فَلَهُمْ عَذَابٌ مُهِينٌ — ١٦ . لَنْ تُغْنِيَ عَنْهُمْ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُمْ مِنَ اللهِ شَيْئاً أُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ — ١٧ . يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ اللهُ جَمِيعاً فَيَحْلِفُونَ لَهُ كَمَا يَحْلِفُونَ لَكُمْ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ عَلَى شَيْءٍ أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ الْكَاذِبُونَ — ١٨ . اسْتَحْوَذَ عَلَيْهِمُ الشَّيْطَانُ فَأَنْسَاهُمْ ذِكْرَ اللهِ أُولَئِكَ حِزْبُ الشَّيْطَانِ أَلَا إِنَّ حِزْبَ الشَّيْطَانِ هُمُ الْخَاسِرُونَ — ١٩ . إِنَّ الَّذِينَ يُحَادُّونَ اللهَ وَرَسُولَهُ أُولَئِكَ فِي الْأَذَلِّينَ — ٢٠ . كَتَبَ اللهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا وَرُسُلِي إِنَّ اللهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ — ٢١ . لَا تَجِدُ قَوْماً يُؤْمِنُونَ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللهَ وَرَسُولَهُ وَلَوْ كَانُوا آبَاءَهُمْ أَوْ أَبْنَاءَهُمْ أَوْ إِخْوَانَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ

وغيره ، ودفع للتكاثر عليه (ص) من غير حاجة جماعية مدققة .

« ذلك خيرٌ لكم » : كجماعة المسلمين ، فإنه لصالحكم جماعياً « وأطهر » : لقلوبكم ، إذ تدل الصدقة أن النجوى بعدها خالصة لوجه الله ، ولكن الفقير ماذا يصنع ؟ هل يُحرم لأنه فقير المال ، فيُضاف إليه فقر الحال ؟ كلا : « فإن لم تجدوا فإن الله غفور رحيم » غفران يخص المعدمين دون أن يعم الواجدين ، بما يجاوب الأمر بالصدقة في الدلالة على وجوبها ، فإنها بين أمر وغفر ، كما تجاوبه توبة الله عليهم إذ لم يفعلوا . ولقد تواترت الروايات أنه لم يعمل بهذه الآية إلا الإمام أمير المؤمنين علي (ع) [١] وعلى حدّ قوله : (ان في كتاب الله لآية ما عمل بها أحد قبلي ولا يعمل بها أحد بعدي : آية النجوى .. كان عندي دينار فبعته بعشرة دراهم فكنت كلما ناجيت النبي (ص) قدمت بين يدي درهماً ، ثم نُسخت ، فلم يعمل بها أحد ، فنزلت : « ءأشفقتم ان تقدموا بين يدي نجواكم صدقات ») [٢] .

---

(١) أورده الثعلبي والواحدي وغيرهما من المفسرين والمحدثين، فمن ذلك ما يقوله الشيخ شرف الدين بعد نقل كثير من أخبار النجوى : « أعلم أن محمد بن العباس ذكر في تفسيره سبعين حديثاً من طريق الفريقين يتضمن ان المناجي للرسول (ص) هو أمير المؤمنين (ع) دون الناس أجمعين » وأخرجه ابن بطريق في العمدة بأسانيد كثيرة عن الثعلبي وابن المغازلي ورزين وغيرهم ، وفي المستدرك عن أبي نعيم باسناده عن أبي صالح عن أبن عباس ، وباسناده عن مجاهد وعلي بن علقمة عن علي (ع) وابن مردويه في المناقب بأربع طرق أحدها يرفعه إلى سالم بن أبي الجعد عن علي مثله ، وفي الجمع بين الصحاح الستة قال ابو عبد الله البخاري وروى مثله ، وعن الكلبي عن أبي صالح عن ابن عباس مثله ، والحافظ ابو نعيم في كتاب ما نزل من القرآن في علي بسنده عن ابن جريج عن عطاء عن ابن عباس ، وعن مقاتل عن الضحاك عن ابن عباس ، إلى غير ذلك من الأسانيد .

(٢) أخرج سعيد بن منصور وابن راهويه وابن أبي شيبة وعبد بن حميد وابن المنذر وابن أبي حاتم وابن مردويه والحاكم وصححه عن علي (ع) قال : وفي بعض الأحاديث انه (ع) استقرض هذا الدينار لنجوى الرسول (ص) .

منها [١] رغم مـــا نقم منه الناقمون لحدّ اضمروا عن اسمه فقالوا : (رجل من المهاجرين) واشركوا معه في هـــذه الكرامة غيره [٢] خلافاً لإجماع الرواة والمفسرين .

ولما ترك جماعة من المسلمين المناجاة خشية الإنفاق وخيّم عليهم الإشفاق : العناية المختلطة بخوف ، نسخ الله تعالى حكم صدقة المناجاة شفقة عليهم ورحمة ، وتاب عليهم ، فاختصت الفضيلة في تطبيق الآية بالإمام علي (ع) لحدّ يتحسر منه الخليفة عمر [٣] .

« ءأشفقتم أن تقدموا بـــين يدي نجواكم صدقات فإذ لم تفعلوا وتاب الله عليكم فأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة وأطيعوا الله ورسوله والله خبـــير بما تعملون » :

فهنا « نجواكم » توحي بأنهم تناجوا الرسول بعد النهي ولم يقدموا صدقات ، وهكذا يوحي الإشفاق أيضاً فإنـــه عناية مختلطة بخوف ، عناية في مناجاة

---

(١) عنه (ع) يقول للقوم بعد موت عمر بن الخطاب : نشدتكم بالله هل فيكم أحد نزلت فيه هذه الآية .. فكنت انا الذي قدم الصدقة ، غيري ؟ قالوا : « لا » وكما احتج به على أبي بكر بقوله (ع) فأنشدك بالله أنت الذي قدم بين يدي نجواه لرسول الله (ص) صدقة فناجاه وعاتب الله تعالى قوماً فقال : ءأشفقتم .. أم أنا ؟ قال : بل أنت (نور الثقلين ٥ : ٢٦٥ عن الاحتجاج للطبرسي) .

(٢) كما أخرجه ابن أبي حاتم عن مقاتل ينقل القصة إلى أن يقول : فأما أهل العسرة فلم يجدوا شيئاً وأما أهل الميسرة فمنع بعضهم ماله وحبس نفسه إلا طوائف منهم جعلوا يقدمون الصدقة بين يدي النجوى ويزعمون أنه لم يفعل ذلك غير رجل من المهاجرين من أهل بدر فأنزل الله « ءأشفقتم .. » (الدر المنثور ٦ : ١٨٥) .

(٣) تفسير روح البيان ٩ : ٤٠٦ – لاسماعيل حقي البروسي عن عمر رضي الله عنه : كان لعلي رضي الله عنه ثلاث لو كانت لي واحدة منهن كانت أحب إلى من حمر النعم : تزويجه فاطمة رضي الله عنها واعطاءه الراية يوم خيبر وآية النجوى » .

وإبدال صدقة النجوى بهذه الواجبات يوحي بأنها لم تكن من مهام الواجبات، ولا الأصيلة منها، وإنما هي إبتلائية، ولذلك نسخت إذ أطاقها المسلمون وأشفقوا منها، إلا أن طاعة الله والرسول هنا تربطهم برباط التنظيم في نجواهم، وأن يخرجوا عن فوضاها، والإستئثار بها دونما ملزم أو مرجح، فكما الأفضل علماً وإيماناً يُفسح له ويُنشز، كرامةً للعلم والإيمان، فبأحرى يقدم الأفضل فيهما في مناجاة الرسول (ص).

« ألم تر الى الذين تولوا قوماً غضب الله عليهم مـــا هم منكم ولا منهم ويحلفون على الكذب وهم يعلمون » :

حملة قوية على المنافقين الذين يتظاهرون بالإيمان ويسرون الكفر، متآمرين في إسرارهم ضد المسلمين، فـ « ما هم منكم » لكفرهم المبطّن « ولا منهم » لإظهارهم الإسلام : « مذبذبين بين ذلك لا إلى هؤلاء ولا إلى هؤلاء » (٤ : ١٤٣) وإن كان كلٌ متولٍ لقوم، منهم : « ومن يتولهم منكم فإنه منهم » (٥ : ٥١) : هو منهم فيما بـــه الكافر كافر وهو كفر القلب والضمير، فالمنافق مؤمن اللسان وكافر القلب، فهو ليس مؤمناً خالصاً ولا كافراً خالصاً، وإن كان من حزب الكفار أصالة، فالآيتان تتجاوبان دون تهافت واختلاف.

إنهم يعيشون نفاقاً عارماً، وفـــيما يفضحهم الله، أن يخبر الرسول (ص) والمؤمنين بمكائدهم اللئيمة « يحلفون على الكذب » : أنهم براء ممـــا قيل عليهم، وأنهم مؤمنون حقـاً، ويحلفون على الكذب في صدهم المؤمنين عن سبيل الله، علّهم يصدقونهم بجُنـــة الحلف، فهم يعيشون الكذب على الله وعلى الرسول والمؤمنين علّهم يفلحون في كيـــدهم، ويُفلجون المؤمنين في ميدهم، « وهم يعلمون » بكذبهم، وهـذا الحلف الكذب يعني محاولة استمرارهم في كيدهم، ويوحي بضعفهم وجاه الدولة الإسلامية آنذاك، إذ كانت قوية سائدة.

« إستحوذ عليهم الشيطان فأنساهم ذكر الله اولئك حزب الشيطان ألا إن حزب الشيطان هم الخاسرون » :

الحوْذ أن يتبع السائق حاذيي البعير أي أدبار فخذيه فيعنّف في سَوقه ، فاستحواذ الشيطان على حزبه أن يركب أدبارهم معنّفاً في سَوقهم وكما وعد : « لأحتنكن ذريته إلا قليلاً » (١٧ : ٦٢) والإستحواذ أشد ألوان الإحتناك ، إذاً فهم سيّقة الشيطان : يسوقهم حيثما يريد ، فقد يبدء اللعين بتمشيتهم وراءه: أن يتبعوا خطواته ، ثم يركبهم محتنكاً إياهم ، ثم يستحوذ عليهم ، وبهذا الثالوث اللعين يفقدهم مشاعرهم كأنهم ظِلاله في ضلاله « فأنساهم ذكر الله » ولحد الإعراض ، «اولئك حزب الشيطان» : خالصين له مخلصين ، واقفين تحت لوائه ، عاملين باسمه ، منفذين غاياته ، وهو الشر الخالص الواصب الذي ينتهي إلى الخسران الخالص .

وللشيطان في كافة الأحزاب – إلا حزب الله – أعوان بمختلف الألوان وإن كانوا دركات ، كما ان حزب الله درجات « وكل إنسان يعمل على شاكلته وكان ربك بصيراً » ومن دركات حزب الشيطان التفرقات عن الوحدة الايمانية ، عقائدياً وعملياً ، ومنها ترك الجماعات في الصلاة ، وعلى حد قول الرسول (ص) (ما من ثلاثة في قرية ولا بدّ ولا تقام فيهم الصلاة إلا قد استحوذ عليهم الشيطان ، فعليكم بالجماعة فإنما يأكل الذئب القاصية) [١] . وكما ان من ظروفها ومصائدها : (أهواء تتبع وأحكام تبتدع يخالف فيها كتاب الله ويتولى عليها رجال رجالاً) على حد قول الإمام علي (ع) [٢] .

---

(١) الدر المنثور أخرج ابو داود والنسائي والحاكم وصححه وابن مردويه عن أبي الدرداء قال سمعت رسول الله (ص) يقول :

(٢) اصول الكافي باسناده عن محمد بن مسلم عن الباقر (ع) قال: خطب أمير المؤمنين (ع) الناس فقال : « أيها الناس إنما بدء وقوع الفتن – إلى قوله – يخالف فيها كتاب الله يتولى فيها =

الذلة الظاهرة : « ولقد نصركم الله ببدر وأنتم أذلة » (٣ : ١٢٣) « ولله العزة ولرسوله وللمؤمنين ولكن المنافقين لا يعلمون » (٦٣ : ٨) ، ولكنما المحادّين لله ورسوله ، الذلة لزامهم إذ لا مولى لهم : « اولئك في الأذلين » : غريقون في الذل دائباً لا يزول ، ولكنما المؤمن له العز والغلبة مهما بلغت به الصعوبات واصطدمته العرقلات في سبيل الله :

« كتب الله لأغلبن أنا ورسلي ان الله قوي عزيز » :

« كتب الله » : إن كتابة الغلبة الإلهية لا تعني نقشاً على ورق : إنشاءً أو إخباراً ، إنما هي تثبيت الغلبة بمثبتاتها ومعداتها : غلبة في التكوين والتشريع ، وفي التشريع غلبة في الحجة والمهجة ، وغلبة في التطبيق ، وكل ذلك نتيجة الارادة الإلهية وتأييده رسله في غَلَبهم بحجج الرسالات وبيناته .

« لأغلبن أنا ورسلي » : لا « لنغلبن » رغم واقع الجمع ، إنما « لأغلبن » لأن الله لا يعد ويردف نفسه المقدسة في عداد خلقه وحتى رسله ، وأن غَلَب الرسل من غَلَبه ، فإنهم لا يغلبون إلا بما يحملون من الرسالات وإثباتاتها ومعجزاتها ، ولولا فضل من الله ورحمة لكانوا كسواهم من الأذلين المغلوبين « إن الله قوي عزيز » فرسل الله بقوة الله وعزته يغلبون ، وإلا فهم الفقراء لا يملكون شيئاً ! « وما النصر إلا من عند الله العزيز الحكيم » (٣ : ١٢٦) .

أجل « ورسلي » المختصون في تحقيق رسالات الله ، حاصرين طاقاتهم كلها في وجه الله ، لا يبتغون إلا مرضاة الله فلهم سابق كلمة النصر : « ولقد سبقت كلمتنا لعبادنا المرسلين أنهم لهم المنصورون وإن جندنا لهم الغالبون » (٣٧ : ١٧٢) كما والمؤمنون كذلك منصورون غالبون بنصر الله على قدر إيمانهم بالله : « إنا لننصر رسلنا والذين آمنوا في الحياة الدنيا ويوم يقوم الأشهاد » (٤٠ : ٥١) نصرة في الدنيا تناسب الرسالة والإيمان ، ونصرة في الآخرة هي تحقيق وعد الله لهم بالجنة ، ولقد كتب على نفسه نصرهم حقاً : « وكان حقاً علينا نصر المؤمنين » (٣٠ : ٤٧) .

كما وأن استسلام البعض منهم – وهم ضعفاء الايمان – لدولة الكفر والطغيان، بغية الحفاظ على أنفسهم ونفائسهم ، ليس هذا انتصاراً لهم ، فإنما الغلبة الايمانية تظهر في مختلف وجوه المناضلات في مختلف ميادين النضال : إن قتلوا انتصروا، وان قتلوا انتصروا، فهم أعزة منتصرون قاتلين ومقتولين، شاردين ومشرودين، حاكمين ومحكومين ، فقراء ومثرين، كما وأن المحادّين لله ورسوله هم في الأذلين، في ميزان الحق ، في كافة الصور ، وكفى المؤمنين غلَباً – بين أسبابه – : ان للحق دولة وللباطل جولة !.

تُرى إن حادثة الطف صورة من غلَب الفيء الطغيان الأموي على أهل بيت الرسالة المحمدية ﷺ ؟ كلا ، فإن قُتل حسين وذووه في الجسد ، فقد قتل يزيد وحزبه في كافة الموازين الإنسانية ، يزيد يقتل حسيناً في جسده ، وحسين يقتل يزيد في روحه ، إذ إن حادثة الطف أثبتت للعالم أن يد الإثم والطغيان فيها لم تلك يد انسان ، وإنما أيدي وحوش مجانين وأضل سبيلا، حيث لم ترحم الأطفال الرُضّع والنساء والضعفاء : قد غير الطعن منهم كل جارحة ، سوى المكارم في أمن من الغِيَر .

أجل وان صمود المؤمنين في وجه الطغاة ، إذ يحميهم إيمانهم من الإنهيار ، ويحمي زملائهم في حزب الله من ضياع الشخصية ، ومن خضوعها للطغيان ، إن هذا الصمود الصارم غلَبٌ لهم وانتصارٌ على الكفار ، يجنب سائر الانتصارات التي تختصهم دونهم .

«لا تجد قوماً يؤمنون بالله واليوم الآخر يوادّون من حادّ الله ورسوله ولو كانوا آباءهم او أبناءهم او اخوانهم او عشيرتهم اولئك كتب في قلوبهم الايمان وأيدهم بروح منه ويدخلهم جنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها رضي الله عنهم ورضوا عنه اولئك حزب الله ألا ان حزب الله هم المفلحون» :

دياركم أن تبرّوهم وتقسطوا اليهم إن الله يحب المقسطين . إنما ينهاكم الله عن الذين قاتلوكم في الدين وأخرجوكم من دياركم وظاهروا على إخراجكم أن تولوهم ومَن يتولّهم فاولئك هم الظالمون » (٦٠ : ٩) .

« اولئك كتب في قلوبهم الإيمان » : « اولئك » المؤمنون الصامدون غير الموادّين لمن حـــادّ الله ورسوله ، « كتب » الله « في قلوبهم الإيمان » : ثبّته في قلوبهم وقرّره في ضمائرهم ، فصار كالكتابة الباقية ، والرقوم الثابتة ، ولكنها كتابة إلهية ما لها من زوال ، فإنها بيمين القدرة والرحمة ، فقلبت قلوبهم عن التقلبات إلى الثبات ، وإنمـــا تتقلب تدرّجاً إلى الكمال والأكمل ، ولحدّ تنتهي لوحي الرسالة الإلهية لو شاء الله ، وليست كتابة الإيمان في قلب فوضى دون شرط ، إنما هي بين الإيمان والعمل وفقه ، ومن ثم تأييد الله فكتابة الإيمان ، وهذه هي زيادة الهدى من الله بعد الاهتداء بسعي المهتدي : « إنهم فتية آمنوا بربهم وزدناهم هدى » (١٨ : ١٣) « والذين اهتـــدوا زادهم هدىً وآتاهم تقواهم » (٤٧ : ١٧) فليس لهم صنع في زيادة الهدى ، اللهم إلا في سببه بفضل من الله [١] .

فهـــذا الإيمان المكتوب في القلوب ، المؤيد بروح من الله ، إنه صدّ رصين متين يسدّ عن الانسان هجمات الشيطان ، ويصدّه عن اتباعه في مزالق الشك واللاإيمان ، وكما في زمن الغيبة التـــامة إذ لا إمام حاضراً نلجأ اليه (فنكفأ تكفّأ السفينة في أمواج البحر ، لا ينجو إلا من أخذ الله ميثاقه وكتب في قلبه الإيمان وأيّده بروح منه) [٢] .

---

(١) اصول الكافي عن الصادق (ع) سئل عن هذه الآية : هل لهم فيما كتب في قلوبهم صنع ؟ قال : لا .

(٢) اصول الكافي عن مفضل بن عمر قال : كنت عند أبي عبدالله (ع) وعنده في البيت اناس ، فظننت انه إنما أراد بذلك غيري ، فقال (ع) : أما والله ليغيبن عنكم صاحب هذا الأمر وليخملن حتى يقال مات ، هلك ، في أي واد سلك (وتتمة الحديث في المتن) (نور الثقلين ٥ : ٢٦٨) .

الجنـة في الجنة وخلودها فيها « رضي الله عنهم » بمـا اتقوا وتحللوا عن إنّياتهم وأنانياتهم ، فنسوا أنفسهم دون مرضاة الله « ورضوا عنه » حينما اتقوه ، وإذ يدخلون الجنة فـ « اولئك حزب الله » جماعته الخاصون به ، الخالصون له ، المتجمعون تحت لوائه ، المنقادون بقيادته ، دون أن يكون للشيطان وحزبه منهم نصيب « ألا إن حزب الله هم المفلحون » دنياً وعقبىً ، مهما اختلفت ألوانه وظروفه ، اختلاف الدنيا والآخرة .

والإفلاح هو شق الطريق الشاق الملتوي ، نحو الهدف المرمي ، فحزب الله يشقون أمواج الفتن في معارك الحياة بسفن النجاة ، فلا يغرقون ، إنما يُفلحون هم ويُفلجون خصومهم ، ولأنهم حزب الله « والله غالب على أمره ولكن أكثر الناس لا يعلمون » .

أجل — ولأنهم أهل معرفته ومحبته وأهل توحيده ، يفوزون بنصر الله من مصارع المحن والمهن ، فالله تعالى أسبل على وجوههم نور هيبته ، وأعطى لهم أعلاماً من عظمته وكلأهم بحسن رعايته .

إن حزب الله يلتقون في الرابطة التي تؤلفهم ، في وحـــدة متراصّة متينة رصينة ، فتذوب كافة الفوارق تحت هذه الراية ، دون أن يتحكم فيهم أحدٌ إلا الله ، أو يبتغون إلا مرضاة الله ، محادين حزب الشيطان .

فهذان حزبان متناقضان لا يختلطان ولا يتميّعان ويستحيل اجتماعهما استحالة اجتماع النقيضين .

شَيءٍ قَدِيرٌ — ٦ . مَا أَفَاءَ ٱللهُ عَلَى رَسُولِهِ مِنْ أَهْلِ ٱلْقُرَىٰ فَلِلّٰهِ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينِ وَابْنِ ٱلسَّبِيلِ كَيْ لَا يَكُونَ دُولَةً بَيْنَ ٱلْأَغْنِيَاءِ مِنْكُمْ وَمَا آتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا وَٱتَّقُوا ٱللهَ إِنَّ اللهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ — ٧ . لِلْفُقَرَاءِ الْمُهَاجِرِينَ ٱلَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ وَأَمْوَالِهِمْ يَبْتَغُونَ فَضْلاً مِنَ ٱللهِ وَرِضْوَاناً وَيَنْصُرُونَ ٱللهَ وَرَسُولَهُ أُولٰئِكَ هُمُ ٱلصَّادِقُونَ — ٨ . وَٱلَّذِينَ تَبَوَّؤُ ٱلدَّارَ وَالْإِيمَانَ مِنْ قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِمَّا أُوتُوا وَيُؤْثِرُونَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ وَمَنْ يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولٰئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ — ٩ . وَٱلَّذِينَ جَاؤُا مِنْ بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا ٱغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا ٱلَّذِينَ سَبَقُونَا بِالْإِيمَانِ وَلَا تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلاًّ لِلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا إِنَّكَ رَؤُفٌ رَحِيمٌ — ١٠ .

حادث جلل رعيب ، ونفاق عارم رهيب ، ونقض عهد منقطع النظير من بني النضير ، نزلت فيه هذه السورة ، وتعلقت به نصوصها ، مبتدأةً بتسبيح الله ومختتمة به ، بدء وختام مِسك ، يمسك ويربط ما توسطها بتنزيه الله عن الظلم

يشهد أنهم لكاذبون . لئن أُخرجوا لا يخرجون معهم ولئن قوتلوا لا ينصرونهم ولئن نصروهم ليولنّ الأدبار ثم لا يُنصرون . لأنتم أشد رهبة في صدورهم من الله ذلك بأنهم قوم لا يفقهون » (٥٩ : ١٣) .

مكر تلو مكر ، وغدر تلو غدر، يهدفون به المقام في المدينة ثم احتلالها مع إخوانهم المنافقين ، ولكن الله يُطلع نبيه عليه ، ويخرجهم لأول الحشر ، وعلته أول الجمع بين المتحالفين : اليهود والمنافقين « يخربون بيوتهم بأيديهم وأيدي المؤمنين فاعتبروا يا اولي الأبصار » .

« سبح لله ما في السماوات وما في الأرض وهو العزيز الحكيم » :

إن تسبيح الله وتنزيهه — طوعاً أو كرهاً — هو لزام ذوات الكائنات ، فكيانهم كخلق الله تسبح الله عن أي نقص في الخلق « ما ترى في خلق الرحمان من تفاوت » ثم وهي تسبح الله عن شعور ولكن لا تفقهون : « وان من شيء إلا يسبح بحمده ولكن لا تفقهون تسبيحهم » (١٧ : ٤٤) ثم العقلاء النبلاء منها يسبحون الله كما يعرفون : تسبيحات ثلاث في الكائنات لا يخلو منها حتى الملحدين الكفار ، وان كفروا به في ثالث ثلاثة : التسبيح الإختياري العقلاني ، بما حملوا وخانوا أمانة التكليف .

« هو الذي أخرج الذين كفروا من أهل الكتاب من ديارهم لأول الحشر » :

فلو كانوا مؤمنين بكتاب الله — التوراة — ما خالفوا بشاراته بحق الرسول الاسماعيلي محمد ﷺ وما نقضوا عهودهم معه بعدما أحكموها،ولكنهم كفروا بالكتاب، رغم أنهم من أهل الكتاب ، يؤمنون ببعض الكتاب — لصالحهم كما يظنون — ويكفرون ببعض — كتجار الشريعة الإلهية !

هؤلاء اليهود الكفار من بني النضير أخرجهم الله تعالى من ديارهم لأول الحشر ، فما هو الحشر هنا ؟ وما هو أوله ؟.

المعنيين ، من حشرهم الشرير في الدنيا ، وإلى حشرهم الشرير في الآخرة ، فمهما يكن الحشر الأول مبتدءً يستحق « من » والثاني منتهىً يستحق « إلى » ولكن في « لـ » إيحاءٌ بهما وإيفاءٌ لهما « لأول الحشر » .

فقد حشروا حشرهم هكذا بغية احتلال المدينة وعصيان الرسول ﷺ والقضاء عليه ، فردّ الله عليهم حشرهم فأخرجهم لأوله ولمّا ينضج أو ينتج ، وللأرض التي منها يحشرون .

« ... ما ظننتم أن يخرجوا وظنوا أنهم مانعتهم حصونهم من الله فأتاهم الله من حيث لم يحتسبوا وقذف في قلوبهم الرعب يخربون بيوتهم بأيديهم وأيدي المؤمنين فاعتبروا يا أولي الأبصار » :

إنه لم يكن إخراجهم لضعفهم في عِدّة أو عُدّة حيث « ظنوا أنهم مانعتهم حصونهم من الله » ولا لقوتكم أنتم في عِدّة أو عُدّة ، لحدّ : « ما ظننتم أن يخرجوا » ولكن الله تولى مهمة هذا الإخراج : « فأتاهم الله من حيث لم يحتسبوا وقذف في قلوبهم الرعب » نصراً من الله للرسول والمؤمنين المجاهدين .

فرغم عدم توقع المؤمنين خروج هؤلاء من عاصمة الرسالة الإسلامية ، ورغم المَنَعة المنيعة في حصونهم لحدّ أنستهم قوة الله التي لا تمنعها الحصون ، ورغم أنهم بالتالي كانوا يحسبون أنفسهم بحكم هذه العُدد الظاهرية ظاهرين على المسلمين ، رغم هذا كله « أتاهم الله من حيث لم يحتسبوا » .

فهنا حساب واحتساب يستطيعه الإنسان ويعرفه ويتبناه لما يهدف ، وهناك حساب في ميزان الله يغلب كل حساب واحتساب ، لا قِبَل له بأي حساب ، فأين حساب من حساب ؟

فمهما يملك الإنسان – كما يزعم – كلّ دوافع الغلبة والظهور ، ولكنه لا يملك قلبه الذي هو مصدر أمره ونهيه ، قوته ووهنه ، سقوطه ونجاحه ، فمنه

الإحتلال الإسرائيلي في بلادنا المقدسة الزاهرة الطاهرة، أنهم ما أبقوا من قنطرة وقنيطرة من باقيـــة، حينما احتلوها ، وعندما ارتحلوا عنها ، بلاداً كانت من أعمرها ، فأصبحت في الدمار لحدٍّ إذا زرتها مـا عرفتها ، « فاعتبروا يا أولي الأبصار » !.

« ولولا أن كتب الله عليهم الجلاء لعذبهم في الدنيا ولهم في الآخرة عذاب النـــار » :

إن جلاءهم : تسفيرهم عن أرض الوطن دون رجوع ، إنه لونٌ من عذاب الخزي لهم في الدنيا ، عذابٌ نفسي أصعب من العذاب الجسدي أحياناً ، فلولا أن كتبها الله عليهم لعذبهم بصور اخرى كما عذب الذين من قبلهم باستئصال ، أو سبي ، أو اقتتـــال ، كإخوانهم بني قريظة ، ولكنما المكتوب لا يحوّل ، ثم لهم في الآخرة عذاب النار وبئس القرار .

« ذلك بأنهم شاقّوا الله ورسوله ومن يُشاقّ الله فان الله شديد العقاب » :

إن مشاقّة الله وهي اعتباره في شق غير شقهم ، هي نكران لربوبيته ، كما وأن مشاقة الرسول نكران لرسالته ، كأنهم آلهة أو رُسل ! فالعقاب الشديد الناشب إلى الدنيا أيضاً ، هو لزام المشاقة هذه وتلك .

« ما قطعتم من لينـــة أو تركتموها قائمة على اصولها فبإذن الله وليخزي الفاسقين » :

صحيح أن اللينة : النخلة الناعمة الجيدة – لا ذنب لها لكي تُقطع ، ولكنها من خلق الله ، قد تقطع بإذن الله ، لحِكَم يعلمها الله ، استئصالاً لأصحابها ، « فبإذن الله » ليعز المؤمنين ، « وليخزي الفاسقين » ، ففي هذا القطع أهداف حكيمة عدة من أبرزها إخزاء الفاسقين [1] .

---

(١) الواو هنا كما في أمثالها تدل على معطوف عليه محذوف ، يستفاد من المقام أو لا يستفاد ، ومن المعطوف عليه هنا إعزاز المؤمنين .

الفيء : « ولذي القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل » كما وأنه يصرف ما لله في سبيل الدعوة إلى الله ، وشيئاً مما له في تحكيم الرسالة الإسلامية .

فليس « لله » هنا تعني ان الله يملك سدساً من الفيء ملكاً ذاتياً، فإن له ملك السماوات والأرض ! ولا ملكاً عرضياً بالتمليك أو التملك وحاشاه ! إنما تعني أنه يصرف في الإلهيات ، كما تعني « للرسول » أنه يصرف في شؤون الرسالة ، سواء في ذلك شؤون الرسول (ص) الخاصة به ، أو شؤون رسالته ، أو في محاويج أمته ، وكما كان يفعل « كما يحب »[1] ويجب .

ومن شؤون الرسول ذووا قرابته الملتصقون به ، المحرمة عليهم الزكاة والصدقات فإن لهم حقاً مما للرسول ، وأقرب القربى هم الأئمة من آل الرسول عليهم السلام .

« وذي القربى » : ذي قربى الرسول ﷺ فقط ، شريطة الحاجة ، فيمن سوى الأئمة من آله ، « واليتامى والمساكين وابن السبيل » وعلتهم أعم من ذرية الرسول، ثم ولا يشترط في اليتامى وابن السبيل المسكنة وإلا لاكتفي بالمساكين، ولو اجتمعت عناوين عدة في واحد منهم استحق حقوق العدة، كهاشمي يتيم ابن سبيل ، فله حقوق ثلاثة .

ولا يعني ذكر هؤلاء اختصاص الانفال بهم ، إنما هم من المصاديق الأكثرية في استحقاق الأموال العامة ، ولذلك لا تذكر آية الانفال إلا الله والرسول ، إيحاء أن للرسول ما يحب ويستصلحه .

وإذا كانت الفيء والانفال لله وللرسول ﷺ وكلاهما في تصرف الرسول

---

(١) الوسائل ٦ : ٣٦٧ عن الإمام الصادق (ع) في حديث : والانفال لله وللرسول فما كان لله فهو للرسول يضعه حيث يحب .

مال الله دولاً وكتاب الله دَغلاً وعباده خولاً والفاسقين حزباً والصالحين حرباً»[١] والواجب تداوُل الدَولة والدُولة بين الناس كل الناس إلا النسناس ، كلٌ حسب سعيه وقـــدره واستحقاقه وقدرته على الإصلاح والإستصلاح ، وكما هو صالح الشعوب المسلمة ، واما أن تتنقل دُولة المال وَدولة الحال بين الأغنياء ، أو الأقوياء ام من ذا ؟ فلا !

إنها قاعـــدة كبرى من قواعد التنظيم الإسلامي إقتصادياً وجماعياً ، تمثل جانباً عظيماً من أُسس الحكم العدل ، فرغم ان الملكية الفردية معترف بها فيها ، ولكنها محددة بقاعدة عدم اختصاص دُولة المال بين الأثرياء ، ممنوعة عن الفقراء فكل محاولة وكل حالة تفضي إلى دُولة المال بين الأغنياء ، او دَولة الحال بينهم أو بين الأقوياء ، إنها حالة سيئة ومحاولة سيئة حسب التنظيم الإسلامي الذي لا يؤصّل إلا أصالة الحق والعدل أينما حل ، ومن أيّ حصل .

وبذلك يوحي تحريم التكنيز وإن كان من الأموال الشخصية «والذين يكنزون الذهب والفضة ولا ينفقونها في سبيل الله فبشرهم بعذاب أليم » (٩ : ٣٤) فدولة المال وتكنيزه وتضخم الثروة ، إنها ممـــا لا تتوافق والروح الإسلامية العادلة الفاضلة .

وبما أن النظام الرأسمالي قائم على دولة المال بـــين الأثرياء ، وعلى الحكرة والرباء ، وعلى عـــدم الإنفاق للبؤساء العجزة المعوزين ، فالنظام الإقتصادي الإسلامي منه براء .

وبمـــا أن النظام الشيوعي لا يحترم الملكية الفردية العادلة ، ولا يعدل بين السعي والمنتوج تماماً ، فإقتصاد الاسلام منه براء ، طالما كان أشبه به في بنود .

---

(١) القمي في تفسيره عن أبيه عن النبي (ص) قال : (نور الثقلين ٥ : ٢٧٨) . ومثله ، في العيون في باب ما كتبه الرضا (ع) للمأمون من محض الإسلام وشرائع الدين ، والبرائة من نفي الأخيار وشردهم وآوى الطرداء اللعناء وجعل الأموال دولة بين الأغنياء .

طول التاريخ ، التي تؤصل الأكثرية في سَنّ القوانين ، أو تحصر حـــق التقنين برئيس الدولة الذي هو بشر كسائر البشر يخطأ ويسهو ويجهل ويميل .

نحتج بهذه الآية فيما نحتج لحجية سنة الرسول قولاً وعملاً وتقريراً ، أنها من سنة الله ، وان ما سنه ليس إلا بما أراه الله .

ثم تختم الآية بذيل يربط هاتين القاعدتين الرئيسيتين بتقوى الله: « واتقوا الله إن الله شديد العقاب » : تقوى في دُولة المال ودَولة الحال ، فلله الدوَل على أية حال، يؤتيها من يشاء ويمنعها عمن يشاء، فدُولة المال عامة لجميع الشعوب حسب الحقوق والمساعي بمـا قررها الله ، ودَولة الحال وهي الحكم بين الناس ، إنها لله ولرُسل الله الحاملين المبلغين رسالات الله ، ولا يخشون أحـــداً إلا الله وكفى بالله حسيباً .

ثم آية الأنفال تختصها بالله والرسول ، وآية الفيء تعمها والأربعة الباقية ، ثم الآية التالية تختص بالذكر الفقراء المهاجرين.. مما يوحي بتفويض الرسول في الفيء والأنفال ، وأن النسب ليس شرطاً أصيلاً في استحقاقها :

« للفقراء المهاجرين الذين أخرجوا من ديارهم وأموالهم يبتغون فضلاً من الله ورضواناً وينصرون الله ورسوله اولئك هم الصادقون » :

« للفقراء » علّه بدلٌ عن « اليتامى والمساكين وابن السبيل » كما اللام توحي بذلك « لله وللرسول ولذي القربى وللفقراء .. » : مهما كانوا من يتامى الهاشميين ومساكينهم وأبنـاء سبيلهم ، أم من المهاجرين والأنصار ، كما يروى أن الرسول ﷺ قسم فيء بني النضير بين المهاجرين وثلاثة من فقراء الأنصار ، مما يبرهن على عدم اختصاص الفيء بالهاشميين ، وللرسول ﷺ وأولي الأمر فيه الخيرة .

« للفقراء المهاجرين » الذين هـــاجروا أرض الوطن في سبيل الله « الذين

المكان والدار ، أو المكانة والإيمان ، فـ (الإيمان بعضه من بعض وهو دار ، وكذلك الإسلام دار والكفر دار كما في الصادقي عليه السلام [١] .

فهؤلاء الأنصار تبوّءوا مكاناً يناسب الإيمان ، عمّروهما وتهيئوا لاستقبال الرسول صلى الله عليه وآله والمهاجرين فيها، مكاناً تتساوى أجزاؤه لهم ولوافدين المهاجرين، وهذه هي التبوئة الحقيقية العادلة ، فإن المهاجرين المضطهدين كانوا بحاجة إلى هكذا بواء الذي فيه كل رواء قلباً وقالباً ، بعدما اضطهدوا ولاقوا ما لاقوا من الأذى طيلة المقام بمكة ، فإن أهلها كانوا يدمرون الدار والإيمان ، فهاجروا إلى من يعمرون الدار والإيمان، لهم ولمن سواهم سواء، يملكهم الحب في الله ويملكونه (وهل الدين إلا الحب ؟) [٢] .

« يحبون مَن هاجر اليهم » حباً لهم واستقبالاً عديم النظير في التأريخ ، فقد كانوا يتسابقون إلى إيوائهم ، واحتمال أعبائهم، لحدّ كان المهاجرون يقترعون لأنفسهم لدور الأنصار ، إذ كانت مفتحة لهم الأبواب أكثر من الحاجة « ولا يجدون في صدورهم حاجة مما أوتوا » هم ، مهما كانوا محاويج في متطلبات عيشتهم ، ولا سيما مع الضيوف : الواردين ، ولكن نفوسهم الأبيّة ، وصدورهم المنشرحة ، لم تكن توجد فيها حاجة مما أوتوا من بلغة العيش رغم حاجتهم المدقعة اليه ، ولا حاجة مما أوتي المهاجرون من الفيء ، بل « ويؤثرون على أنفسهم » الفقراء المهاجرين « ولو كان بهم خصاصة »: حاجة مدقعة، والخصاصة في الأصل هي الفُرجة ، وهم لم يكن لهم ما يسدُّ فُرج الحياة ، ورغم ذلك ، ومع حياتهم المعيشية المختلة، هؤلاء الأنصار المحاويج آثروا المهاجرين على أنفسهم مرتين : فيما أوتوا من الفيء ، وفي أموالهم الخاصة ، تشجيعاً لجنود الهجرة ،

---

(١) الكافي بإسناده الى أبي عبدالله الصادق (ع) في حديث طويل يقول فيه : ...

(٢) محاسن البرقي بإسناده الى باقر العلوم (ع) في حديث : (الدين هو الحب والحب هو الدين) يعني الحب في الله .

بمن لا يوقَ ، فهو شحيح على المؤمنين وعلى الخير أينما حلّ وارتحل: « قد يعلم الله المعوقين منكم والقائلين لإخوانهم هلمّ إلينـا ولا يأتون البأس إلا قليلاً . أشحة عليكم فإذا جاء الخوف رأيتهم ينظرون إليك تدور أعينهم كالذي يُغشى عليه من الموت فإذا ذهب الخوف سلقوكم بألسنة حِـداد أشحّة على الخير اولئك لم يؤمنوا فأحبط الله أعمالهم وكان ذلك على الله يسيراً » (٣٣ : ١٩) .

وكما أن لشحّ النفس دركات ، كذلك لوقايته درجات ، منهـا ألا تشح عن أداء الواجبات من زكاة وسواها ، وكما عن علي عليه السلام [١] ، كما وأن منهـا ألا تشح عن المندوبات كقري الضيف كما عن الرسول صلى الله عليه وآله : (ثلاث مَن كنّ فيه فقد برىء من الشح : مَن أدى زكاة ماله وقرى الضيف وأعطى في النوائب)[٢] ، وكلمة الفصل عن الشح بصيغة شاملة قول الرسول صلى الله عليه وآله : (مـا محقَ الإسلامَ محقَ الشحّ شيءٌ قط) [٣] ، و(شر ما في الرجل شحٌ هالع وجُبن خالع) [٤] ، وإلى غير ذلك من كلماته صلى الله عليه وآله حول خطورة الشح[٥] .

وحدّ الإيثار أن يتجاوز نصف ما عنـده ، فالنصف سواءٌ وليس إيثاراً ،

---

(١) الدر المنثور ٦ : ١٩٦ - أخرج ابن المنذر عن علي بن أبي طالب (ع) قال : من أدى زكاة ماله فقد وقى شح نفسه .

(٢) المصدر - أخرج ابن مردويه عن جابر بن عبدالله: سمعت رسول الله (ص) يقول : ...

(٣) المصدر - أخرجه الحكيم الترمذي وأبو يعلى وابن مردويه عن أنس قـال قـال رسول الله (ص) : ... وفي من لا يحضره الفقيه : ثم قال (ص) : (إن لهذا الشح دبيباً كدبيب النمل وشعباً كشعب الشرك) .

(٤) المصدر - أخرجه ابن أبي شيبة وأبو داود وابن مردويه والبيهقي عن أبي هريرة عن النبي (ص) .

(٥) كما في المصدر أخرج أحمد والبخاري في الأدب ومسلم والبيهقي عن جابر بن عبدالله أن رسول الله (ص) قال : (إتقوا الظلم فإن الظلم ظلمات يوم القيامة، واتقوا الشح فإن الشح أهلك من كان قبلكم حملهم على أن سفكوا دماءهم واستحلوا محارمهم) .

هؤلاء المهاجرون والأنصار الذين مدحهم الله على سواء ، وأشركهم في قسمة الفيء والأنفال ، فهل إن هذا وذاك يختصهم ؟ كلا ! بل :

« والذين جاءوا من بعدهم يقولون ربنا اغفر لنا ولاخواننا الذين سبقونا بالايمان ولا تجعل في قلوبنا غلاً للذين آمنوا ربنا إنك رءوف رحيم » :

هذه الآية تلقي ضوءاً عاماً لجميع هؤلاء الذين حياتهم حياة المهاجرة والنصرة في سبيل الله والمحبة والإيثار في الله، مَن كانوا وأياً كانوا وأينما كانوا ، فإنما الأصل الأول والأخير هو الإيمان والعمل الصالح ، دون اختصاص بسابق أو لاحق ، وإن كان للسابقين — بما هم حجر الأساس — لهم فضلهم ، ولكنما السبقة والسباق في الإيمان أيضاً قد يحصلان بعد البداية ، أو كأفضل منها أحياناً ، وفي ظروف أشد خطورة ، وأجواء أظلم وأطغى .

« والذين جاءوا من بعدهم » : من بعد المهاجرين والأنصار الأولين ، جاءوا للإيمان كما هم ، أم جاءوا إلى الوجود ونشؤا في جو الإيمان ، بَعدية كونية أم كيانية يجمعهما أنهم مؤمنون ، وهذا عطف على الفقراء المهاجرين ، يعطفهم على « ذوي القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل » للعطف بهم في تقسيم الفيء والأنفال ، مما يدل على شمول الفيء لكافة المؤمنين الفقراء ، وإن كان بنو هاشم أولى إذا ساووهم في الإيمان أو سابقوهم .

فهذه صورة ثالثة وضيئة عن المؤمن الحقيقي ، تطمئنه أنه لو حرم الهجرة والنصرة الاولى ، ولكنه لا يحرمها بعدهما ، فلتكن حياة المؤمن حياة الهجرة والنصرة في الله دون أن يخاف أحداً إلا الله .

هؤلاء تشبه حالهم مقالهم : « يقولون ربنا اغفر لنا ولإخواننا الذين سبقونا بالإيمان » : سبْق الزمان أو سبْق الإيمان في درجاته ، فهم مهما انفصلوا عن إخوانهم المؤمنين ، الأنصار والمهاجرين ، زماناً ومكاناً ، ولكنهم لا ينفصلون عنهم أخوّة وإيماناً ، فقد تتجلى فيهم الآصرة الباهرة التي تربط هذه الامة

يُنصَرُونَ — ١٢ . لَأَنتُمْ أَشَدُّ رَهْبَةً فِي صُدُورِهِمْ مِّنَ اللهِ
ذٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَفْقَهُونَ — ١٣ . لَا يُقَاتِلُونَكُمْ جَمِيعاً إِلَّا
فِي قُرًى مُّحَصَّنَةٍ أَوْ مِن وَرَاءِ جُدُرٍ بَأْسُهُمْ بَيْنَهُمْ شَدِيدٌ تَحْسَبُهُمْ
جَمِيعاً وَقُلُوبُهُمْ شَتَّىٰ ذٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَعْقِلُونَ — ١٤ . كَمَثَلِ
الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ قَرِيباً ذَاقُوا وَبَالَ أَمْرِهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ
أَلِيمٌ — ١٥ . كَمَثَلِ الشَّيْطَانِ إِذْ قَالَ لِلْإِنسَانِ اكْفُرْ فَلَمَّا كَفَرَ
قَالَ إِنِّي بَرِيءٌ مِّنكَ إِنِّي أَخَافُ اللهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ — ١٦ .
فَكَانَ عَاقِبَتَهُمَا أَنَّهُمَا فِي النَّارِ خَالِدَيْنِ فِيهَا وَذٰلِكَ جَزَاءُ
الظَّالِمِينَ — ١٧ . يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللهَ وَلْتَنظُرْ نَفْسٌ
مَّا قَدَّمَتْ لِغَدٍ وَاتَّقُوا اللهَ إِنَّ اللهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ — ١٨ .
وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ نَسُوا اللهَ فَأَنسَاهُمْ أَنفُسَهُمْ أُولٰئِكَ هُمُ
الْفَاسِقُونَ — ١٩ . لَا يَسْتَوِي أَصْحَابُ النَّارِ وَأَصْحَابُ الْجَنَّةِ
أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمُ الْفَائِزُونَ — ٢٠ . لَوْ أَنزَلْنَا هٰذَا الْقُرْآنَ
عَلَىٰ جَبَلٍ لَّرَأَيْتَهُ خَاشِعاً مُّتَصَدِّعاً مِّنْ خَشْيَةِ اللهِ وَتِلْكَ الْأَمْثَالُ
نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ — ٢١ . هُوَ اللهُ الَّذِي لَا
إِلٰهَ إِلَّا هُوَ عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ هُوَ الرَّحْمٰنُ الرَّحِيمُ — ٢٢ .

« يقولون لإخوانهم » : بني النضير ، لما قرر إخراجهم من قريتهم لما خانوا ونقضوا عهدهم « لئن أخرجتم لنخرجن معكم » إيحاءً لهم بشدة رباط الاخوة بينهم لحدّ : « ولا نطيع فيكم أحداً أبداً » حق الرسول الذي آمنا به بألسنتنا ، فقد نجـــاهره بالخلاف لصالحكم ، وإيحاءٌ ثانٍ هو أشد وآكد : « وإن قوتلتم لننصرنكم » بالنفس والنفيس ، فقلوبنا معكم ، وأسيافنا لكم ، ولكن الله يفضحهم أن نفاقهم مزدوج ، ينافقون إخوانهم كما نافقوا المسلمين « والله يشهد إنهم لكاذبون » وهذه الشهادة أصبحت ملموسة لبني النضير عن نفاق مدروس من إخوانهم المنافقين .

«لئن أخرجوا لا يخرجون معهم ولئن قوتلوا لا ينصرونهم ولئن نصروهم ليولن الأدبار ثم لا ينصرون » :

فقد كان لا بدّ للمنافقين أن يفوا لإخوانهم بوعدهم في هذا الثالوث المنحوس : فيخرجوا معهم إن أخرجوا ، وينصرونهم إن قوتلوا ، ولا يولّوا الأدبار إن نصروهم ، تطبيقاً لوعدهم ، أو ليكذبوا نبأ القرآن عنهم ، ولكنهم ما فعلوا من ذلـك شيئاً ، وكيف بالإمكان تكذيب القرآن رغم واقع الإختيار لهؤلاء الذين يتربصون بالإسلام الدوائر ، ولكن عليهم دائرة السوء وكلمة الله هي العليا ، فلقد وقع ما نُبّىء النبي من كيد المنافقين ، كما وقع مئات ومئات من هذه الأنباء الغيبية ، التي هي حجج دامغة على الناكرين .

إنهم يجمعهم : ألا عزم لهم ولا حزم إذ لا مولى لهم عليـــه يعتمدون ، فهم يرهبونكم ولا يرهبون الله ، رغم حصونهم بعِدتهم وعُدتهم :

« لأنتم أشد رهبة في صدورهم من الله ذلك بأنهم قوم لا يفقهون » :

هؤلاء الإخوة في الكفر يرهبونكم ولا يرهبون الله كرهبتكم أنتم عبيده ! و «ذلك» : هذا البعيد البعيد من الحالة النفسية الرديئة «بأنهم قوم لا يفقهون» :

القرآنية ، فما يقاتلون إلا بتحصنات ومعدات حربية ، فـــإذا انكشفوا لحظة واحدة ولّوا الأدبار كالجرذان ، ومن ثم لم تكن نكسات المسلمين العرب إلا قدر انتكاساتهم عن الروح الايمانية وتفرقهم بينهم .

« بأسهم بينهم شديد » : قوتهم فـــيما بينهم شديد ، كما أن : بؤسهم بينهم شديد [1] ومن بؤسهم في بأسهم : «تحسبهم جميعاً وقلوبهم شتى» فمظاهرهم تخدع إذ نراهم كأنهم متضامنون ، وفي معسكرات قوية متوحدة، ولكنها الواقع خلاف الظاهر فإن «قلوبهم شتى» لتشتت أهوائهم وأهدافهم، فهم يقاتلون ما ظنوا أنهم يقتلون ويحتلون، فإذا ظنوا أنهم يُغلبون أو يُقتلون يولّون الأدبار ثم لا يُنصرون خـــلاف المؤمنين الحقيقيين الذين هم جميع في قلوبهم ، فإنهم يرونهم منتصرين، قاتلين ومقتولين فلا يولّون .

فمهما انتصر الكفار في حربهم مع المؤمنين ، لم يكن ذلـك إلا لتشابههم في قلوب شتى ، فتغلب من تزيد عِدّته وعُدّته ، وإنما يظهر حق هذا النبأ القرآني فيما قلّت عدة المؤمنين وعُدتهم ، أو تساوت مع الكافرين ، فانتصر المؤمنون ، كما في معارك عدّة ، وبعاكسه عكس الأمر أحياناً ، فـيما كانت القلتان بجانب الكفار دون المسلمين فانتصر الكفار ، فليس إلا بتماسكهم بهـا اكثر من المسلمين – رغم شتاتهم جميعاً – كمـا في الحروب الإسرائيلية الأخيرة ، اللهم إلا حرب رمضان ، إلا لمن رفضها عن دوامها حتى النصر .

« ذلك بأنهم قوم لا يعقلون » : فتشتت قلوب العساكر هو الحماقة الكبرى، وعدم الإكتراس بالطاقات المعنوية مع العناية بالمعدات الحربية ، من عدم العقل .

« كمثل الذين من قبلهم قريباً ذاقوا وبال أمرهم ولهم عذاب أليم » .

مثل هؤلاء الحماقى كمثل مَن قبلهم كالمشركين يوم بـــدر ، وكبني قينقاع

---

(١) بأسهم : على أنفسهم هو بؤسهم وعلى غيرهم هو قوتهم ، فالمعنيان هما هنا معنيان .

هؤلاء الذين يتبعون خطواته وهم يبصرون ، وكما فعل بالمنافقين يوم بدر ، وببني النضير ، وكم لهما من نظير .

« كمثل الشيطان »: شيطان الجن والإنس بنوعيها «إذ قال للانسان أكفر»: نوع الإنسان ، يأمره بالكفر بما يزين له ويزخرف فيتبعه من عميت بصيرته وضلت سيرته ، يعده في كفره ألوان الوعود الحلوة « فلما كفر » وحصل ما أراد منه نكص على عقبيه و « قال إني بريء منك » كأنه أشطن منه وألعن وهو يتقي الله : « إني أخاف الله رب العالمين » فقد يكذّب في قولته : «إني أخاف» كما في أكثر الأحايين ، وقد يصدّق كما في بدر إذ رأى الملائكة النازلين لتعزيز المؤمنين قائلا : « إني أرى ما لا ترون إني أخاف الله والله شديد العقاب » : « إذ يوحي ربك إلى الملائكة أني معكم فثبتوا الذين آمنوا سألقي في قلوب الذين كفروا الرعب فاضربوا فوق الأعناق واضربوا منهم كل بنان » (٨ : ١٢) .

« فكان عاقبتهما » : الشيطان المضلّل ، والإنسان المضلّل « أنهما في النار » إبتداء من دار الفرار إذ عاشوا في نار التضليلات ، وإلى دار القرار « خالدين فيها وذلك جزاء الظالمين » : ظلم التضليل وظلم التضلّل ، مهما اختلفا في مداه ، فإنهما ائتلفا في معناه .

« يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله ولتنظر نفس ما قدمت لغد واتقوا الله إن الله خبير بما تعملون » :

إن عقائد التقوى وأعمال التقوى لبنات لتبنّي شخصية الإنسان للحياتين ، فلتنظر نفس إنسانية ما قدمت من صالحات أو طالحات لغد ، تقوى تتبنى حياته الطيبة ، أو طغوى تتبناها مرذولة نجسة ، تهدم صرح إنسانيته ، فلتنظر لتقدم ما يقدمه دون تأخير ، وتنكير « نفس » يوحي بقلة المراقبين لأحوالهم وأعمالهم كما هو الواقع – وبين المتقين أيضاً – فالمعروف الساري بين الناس عدم المراقبة ، والإهمال بشأن « غد » ، لذلك فلتزوّد نفس التقوى العقائدي والعملي

فواجب النظر إلى ما تقدمه أن يكون عميقاً أنيقاً، من نظر البصر والبصيرة نظر العقل والفطرة والسريرة ، على ضوء الشريعة الإلهية ، دون أن تتخطاها إلى ميول الهوى ، والعقل المتحلل عن وحي السماء ، وهذه هي المراقبة التي أمرنا بها لكي لا نخسر الحياة [١] ، فرب غفلة وغفوة يسيرة تخسرك كثيراً ، وتوكل على الله ليكون لك نصيراً « ان الله بما تعملون خبير » .

« ولا تكونوا كالذين نسوا الله فأنساهم أنفسهم اولئك هم الفاسقون » :

« نسوا الله » : نسيان الفطرة بما حُجبت ودرنت ، فألحدوا في الله ، أو أشركوا به ، أو نسياناً في عقولهم وفِكَرهم فشكّوا فيه رغم يقظة الفطرة ، أو نسياناً لعهده ألا يعبدوا الشيطان ولا يطيعوه ويفتروا به : « ولقد عهدنا إلى آدم من قبل فنسي ولم نجد له عزماً » (٢٠ : ١١٥)، أو نسياناً للقائه : « فاليوم ننساهم كما نسوا لقاء يومهم هذا » (٧ : ٥١) ، أو نسياناً لذكره : « ولكن متعتهم وآباءهم حتى نسوا الذكر وكانوا قوماً بوراً » (٢٥ : ١٨) عصيانات بنسيانات تجمعها نسيان الله عقائدياً وفكرياً وعملياً ، ثالوث منحوس يخلف الفسق والبوار ، مهما كانت دركات عدة : من خلاف الاولى والفسق والكفر والإلحاد ، كما أن ذكر الله درجات ، من الإسلام والإيمان والعصمة الإلهية .

ومن عقبات وعقوبات نسيان الله أن يُنسيهم أنفسهم ، فـ (مَن عرف نفسه فقد عرف ربه) كما أن مَن ذكر نفسه كما هي ، ذكر ربه ، بما في النفس من آيات ربوبيته وملزمات عبوديته ، فمن ينسى ربه يُنسيه ربُّه نفسَه « فأنساهم

---

(١) عن النبي (ص): حاسبوا أنفسكم قبل أن تحاسبوا وزنوا قبل أن توزنوا وتجهزوا للعرض الأكبر . وفي الكافي بإسناده إلى أبي الحسن الماضي (ع) قال : ليس منا من لم يحالب نفسه في كل يوم فإن عمل حسناً ازداد شكراً وان عمل سيئاً استغفر الله وتاب إليه .

فلو كان يعي القرآن ويعرف البيان لخشع في سماعه قلباً وقالباً ، ولتصدّع من عظم شأنه على غِلظ أجرامه وخشونة أكنانه [١] ، فالإنسان الواعي أحق بذلك وأحرى ، إذ كان واعياً لقوارعه ، عارفاً ببوارعه ، عالماً بصوادعه ، فيا للانسان غير الخاشع ولا المتصدع من قلب قاس دون حراس ولا اكتراس : « ثم قست قلوبكم من بعد ذلك فهي كالحجارة أو أشد قسوة وإن من الحجارة لما يتفجر منه الأنهار وإن منها لما يشقّق فيخرج منه الماء وإن منها لما يهبط من خشية الله وما الله بغافل عما تعملون » (٢ : ٧٤) فما أعجب وأخزى حال أهل المشاقة والعناد ، وما أكثرهم من عتاد ، لا تلين قلوبهم لذكر الله ، فلا يخشون ولا يخشعون ! « فويل للقاسية قلوبهم من ذكر الله اولئك في ضلال مبين . الله نزل أحسن الحديث كتاباً متشابهاً مثاني تقشعر منه جلود الذين يخشون ربهم ثم تلين جلودهم وقلوبهم إلى ذكر الله » (٣٩ : ٢٣) فالذين يحسون ويلمسون شيئاً من مس القرآن في كيانهم ، هؤلاء يتذوقون تلك الحقيقة المشعة التي لا يعبر عنها إلا هذا النص القرآني المجيد ، فإن لهذا القرآن سلطاناً على القلوب غير المقلوبة ، لا تثبت له إلا أن تتفتت وتهتز هزات وتحوّلات لا قبل لها ، يحوّلها عن قلب التراب إلى مجلى أسماء وصفات رب الأرباب ، تخلية لها عما سواه ، فتجلية بالله ، « وتلك الأمثال نضر بها للناس لعلهم يتفكرون » فيتذكرون بها لما يتوجب عليهم أن يكونوا وجاه هذا القرآن .

إن هذا القرآن شفاء للقلوب وللقوالب أيضاً وكما يروى عن النبي ﷺ : « إن جبرئيل لما نزل بها قال لي ضع يدك على رأسك فإنها شفاء من كل داءٍ إلا السأم والسأم الموت » [٢] ومن أشفى الشفاء لما في الصدور الآيات التي تحمل التعريف

---

(١) فالفرق بين الخشوع والخشية ان الأول للقوالب والثاني للقلوب ، فلو كانت للجبال قلوب كما للانسان لخشعت وخشيت .

(٢) الدر المنثور ٦ : ٢٠١ - أخرج الخطيب البغدادي في تاريخه قال أنبأنا أبو نعيم الحافظ أنبأنا أبوالطيب محمد بن احمد بن يوسف أنبأنا ادريس بن عبدالكريم الحداد بإسناد عن النبي(ص):=

بعضه من ارتضى من رسول ، وفي تقديم الغيب على الشهادة ايحاءٌ لطيف ألا فرق بينهما عنده تعالى لحدّ كأنه أعلم بالغيب من الشهادة !

« هو الرحمان » بجميع خلقه فإنها الرحمة العامة « الرحيم » بالمؤمنين خاصة فإنها الرحمة الخاصة ، وهما تشملان كافة الصفات الإلهية ذوات الفاعلية والعلاقات العامة أو الخاصة بالكون ، على علم نافذ فيهما دون عزوب عن أية خافية .

توحي هذه الصفات الثلاث بعد تصريحة التوحيد ، بوحدانيته تعالى في علمه ورحمانيته ورحيميته ، ما يشمل توحيده في كافة صفاته وأسماءه الحسنى .

ومن ثم تبرز هذه الثلاث ، بعد الحياة العقلانية العقيدية للانسان ، تبرز في حياته العملية ، في كمال منهجه تفكيراً وشعوراً وسلوكاً ، أنه مراقب من الله ، وغريق في رحمانيته ورحيميته ، فلا يغفل ولا يطغى .

« هو الله الذي لا إله إلا هو الملك القدوس السلام المؤمن المهيمن العزيز الجبار المتكبر سبحان الله عما يشركون » :

أسماء أخرى ثمان بعد الثلاث ، وهي كلها بعد توحيده الذي هو أم الأسماء ، وهذه الثمان تفاصيل لتلكم الثلاث ، إذ إنها من شؤون علمه ورحمانيته ورحيميته ، كما انها كلها بسائر الأسماء لزامات توحيده تعالى – فـ « سبحان الله عما يشركون » .

وعلّ هذه الثمان حملة عرش الأسماء والصفات ، وكما أن لعرشه تعالى يوم القيامة حملة ثمان .

« **الملك** » : وحيد في ملكيته ومالكيته ، لا يشركه فيها أحدٌ : « ولم يكن له شريك في الملك » (١٧ : ١١١) ولا يشبهه « فتعالى الله الملك الحق » (٢٣ : ١١٦) فهو مالك الملك لزاماً لألوهيته لا سواه : « قل اللهم مالك الملك » (٣ : ٢٦) مُلك المبدء : « ولله ملك السماوات والأرض وما بينهما يخلق ما

من كتاب : « وأنزلنا إليك الكتاب بالحق مصدقاً لمـــا بين يديه من الكتاب ومهيمناً عليه » (٥ : ٢٨) هيمنة حكيمة لانفاذ فيها ممن سواه ولانفاد ، وإنما سيطرة الملك القدوس السلام المؤمن :

« العزيز » : الغالب – عزيز في ملكه وقدسه وسلامـه وهيمنته ، عزيز في ذاته وصفاته وأفعاله ، عزيز في حكمته (٢ : ٢٢٠) عزيز في انتقامه (٣ : ٤) عزيز في قوته (١١ : ٦٦) عزيز في رحمته (٢١ : ٩) عزيز في غفرانه (٢:٦٧) فلا عزة إلا له وبـــه ومنه « ولله العزة ولرسوله وللمؤمنين ولكن المنافقين لا يعلمون » (٦٣ : ٨) .

« الجبار » : والجـبر هو إصلاح الشيء بضرب من القهر ، فالجبّار هو كثير الجـــبر لكل كسر من كل كسير ، كسراً في الخَلق أو الخُلق ، في القلب أو القالب ، فهو جبار في الإصلاح ، لا تحمله إلا هذه الآية ، ثم أهل الطغوى جبارون في الإفساد ، بـين جبار عصي (١٩ : ١٤) وجبار شقي (١٩ : ٣٢) وجبار عنيد (١١ : ٥٩) في بطشة جبارة : « وإذا بطشتم بطشتم جبارين » (٢٦:١٣٠) فهذا الجبار العصي العنيد الشقي يقابل الجبار المصلح الوفي : « إن تريد إلا أن تكون جباراً في الأرض وما تريد أن تكون من المصلحين» (٢٨ : ١٩) فهناك جبار يجبر الكسير [١] ، وهنا جبار يكسر الجبير ، فأين جبار من جبار سبحان العلي القدير ، ولا يوجد جبار في الإصلاح إلا الله ، حق ولا رسول الله ﷺ إلا في بلاغ الرسالة ، لا في التكوين ولا التشريع ! «وما أنت عليهم بجبار» (٥٠:٤٥).

وكل جبره تعالى إصلاح ، سواء جبره الخلق في ذواتهم والبعض من أفعالهم ، أو في أحوالهم المنكسرة التي تتطلب الجبر ، وللعارفين نصيب من هـذا الاسم المجيد لأنفسهم مهما حرموا عن كامله [٢] .

---

(١) من أدعية الإمام علي (ع) : « يا جابر كل كسير ومسهل كل عسير » .

(٢) من حظه أن يقبل على نفسه ، مجبراً نقائصها باستكمال الفضائل ، فيحملها على ملازمة التقوى ومجانبة الطغوى ، ويكسر منها الهوى الطائشة والشهوات الفاحشة ، ويترفع عما سوى الله ، متخلياً عنهم متحلياً بالله ، لا يزلزله تعاور الحوادث .

بهذا الاسم هو أن يبرىء العبد أعماله عن الإتجاهات غير الإلهية ،وعن التناقضات والاختلافات ، ثم تصويراً بإعطاء الملامح المميزة ، والسمات المتميزة التي تمنح لكلٍّ شخصيته الخاصة المايزة له عما سواه : « الذي خلقك فسوّاك فعدلك . في أيّ صورة ما شاء ركّبك » (٨٢ : ٨) فالتسوية والتعديل من البرء والتقدير وقبلها الخلق وبعدهما التصوير ، سبحان العليّ القدير .

ومهما كانت هذه الصفات مترتبات زمنياً في الخلق، ولكنها موحدة في ذات الله ، فإنه خالق إذ لا مخلوق ، وبارىء إذ لا مبروء ، ومصوّر إذ لا صورة !

« **له الأسماء الحسنى** » : وهي هي صفاته العليا ، صفات الذات وصفات الفعل ، وحسنى الأسماء والصفات هي التي تليق بهذه الذات ، والقبيح كل القبيح أن ندعوه بغيرها : « ولله الأسماء الحسنى فادعوه بها وذروا الذين يُلحدون في أسمائه سيُجزون ما كانوا يعملون » (٧ : ١٨) .

والإلحاد في أسماء الله أن تختلق له أسماء لم يسمّ بها نفسه ، أو تفسر أسماءه بما لا يليق بذاته المقدسة، وعلى المؤمن أن يستوحي من أسماء الله الحسنى فيصوغ نفسه وفق إيحاءاتها واتجاهاتها ، تخلّقاً بأخلاق الله ما أمكن ، لا تشبّهاً إذ لا يمكن ، وفي المروي عن الرسول ﷺ والأئمة من آل الرسول ﷺ أن الأسماء الحسنى مائة إلا واحداً ،من أحصاها دخل الجنة [1] ، إحصاءً في القلب

---

(١) التوحيد للصدوق بإسناده الى علي بن أبي طالب (ع) قال قال رسول الله (ص) : إن لله تبارك وتعالى تسعة وتسعين اسماً مائة إلا واحداً من أحصاها دخل الجنة ، وهي : (الله . الاله . الواحد . الأحد . الصمد . الأول . الآخر . السميع . البصير . القدير . القاهر. العلي. الأعلى . الباقي . البديع . البارىء . الأكرم . الظاهر . الباطن . الحي . الحكيم . العليم . الحليم . الحفيظ . الحق . الحسيب . الحميد . الحفي . الرب . الرحمان . الرحيم . الذارىء . الرازق . الرقيب . الرءوف . الرائي . السلام . المؤمن . المهيمن . العزيز . الجبار . المتكبر . السبوح . الشهيد . الصادق . الصانع . الظاهر . العدل . العفو . الغفور . الغني . الغياث . الفاطر . الفرد . الفتاح . الفالق . القديم . الملك . القدوس . القوي . القريب . القيوم . =

(سورة الممتحنة [1] ــ مدنية ــ وآياتها ثلاث عشرة)

بِسْمِ ٱللهِ ٱلرَّحْمٰنِ ٱلرَّحِيمِ . يَا أَيُّهَـــا ٱلَّذِينَ آمَنُوا لا تَتَّخِذُوا عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَاءَ تُلْقُونَ إِلَيْهِمْ بِٱلْمَوَدَّةِ وَقَدْ كَفَرُوا بِمَا جَاءَكُمْ مِّنَ ٱلْحَقِّ يُخْرِجُونَ ٱلرَّسُولَ وَإِيَّاكُمْ أَنْ تُؤْمِنُوا بِٱللهِ رَبِّكُمْ إِنْ كُنْتُمْ خَرَجْتُمْ جِهَاداً فِي سَبِيلِي وَٱبْتِغَاءَ مَرْضَاتِي تُسِرُّونَ إِلَيْهِمْ بِٱلْمَوَدَّةِ وَأَنَا أَعْلَمُ بِمَا أَخْفَيْتُمْ وَمَا أَعْلَنْتُمْ وَمَنْ يَفْعَلْهُ مِنْكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءَ السَّبِيلِ ــ ١ . إِنْ يَثْقَفُوكُمْ يَكُونُوا لَكُمْ أَعْدَاءً وَيَبْسُطُوا إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ وَأَلْسِنَتَهُمْ بِٱلسُّوءِ وَوَدُّوا لَوْ تَكْفُرُونَ ــ ٢ . لَنْ تَنْفَعَكُمْ أَرْحَـــامُكُمْ وَلَا

---

(١) تسمت السورة بـ « الممتحنة » بمناسبة آية النساء المؤمنات المهاجرات ، فللامتحان مكانته ، كما للنساء مكانتهن ، فسورة النساء ومريم والممتحنة والمجادلة ، إنها مما توحي بعطف الله ولطفه الخاص بالنساء، بدل ما اهينوا طوال التاريخ ، وكما لا نرى سورة تتسمى باسم الرجال إلا بعض رجالات الوحي : محمد ــ نوح ــ إبراهيم ــ يوسف ــ هود ــ يونس ــ ثم واسم يشملهم أجمع « الأنبياء » .

« يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا عدوي وعدوكم أولياء تلقون اليهم بالمودة وقد كفروا بما جاءكم من الحق يخرجون الرسول وإياكم أن تؤمنوا بالله ربكم إن كنتم خرجتم جهاداً في سبيلي وابتغاء مرضاتي تسرون اليهم بالمودة وأنا أعلم بما أخفيتم وما أعلنتم ومن يفعله منكم فقد ضل سواء السبيل » :

ملامح هذه الآية وما بعدها ، ومصارحها أيضاً ، تشهد أنها نزلت تنديداً ببعض المهاجرين الذين اخرجوا من ديارهم وأموالهم وأهليهم ، وظلت نفوسهم مشدودة عالقة إلى بعض من خلفوا هناك من الأهلين ، فاتخذوا مشركي مكة أولياء، يعتاضون بولايتهم الحفاظ على أهليهم ، ومنهم — كحاطب بن أبي بلتعة — مَن ألقى اليهم بالمودّة ، فلم يكتف هذا الذليل الهزيل الإيمان بمودتهم ، فقد تخطاها إلى إلقاء أسرار النبي ﷺ اليهم بالمودة ، يتسقطهم أسراره ذات الخطورة ، فإلقاء المودة شيء ، والإلقاء بالمودة شيء آخر يتطلب مفعولاً به محذوفاً ، وما هو إلا أسرار النبي ﷺ وكما تقول الروايات[1] ، كما وأن نفس

(١) الدر المنثور ٦ : ٢٠٣ — أخرج أحمد والحميدي وعبد بن حميد والبخاري ومسلم وأبو داود والترمذي والنسائي وأبو عوانة وابن حبان وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم وابن مردويه والبيهقي وأبو نعيم معاً في الدلائل عن علي (ع) قال : بعثني رسول الله (ص) أنا والزبير والمقداد فقال : انطلقوا حتى تأتوا روضة خاخ ، فإن بها ظعينة معها كتاب فخذوه منها فائتوني به ، فخرجنا حتى أتينا الروضة فإذا نحن بالظعينة ، فقلنا : اخرجي الكتاب ، قالت : ما معي كتاب ، قلنا : لتخرجن الكتاب أو لتلقين الثياب، فأخرجته من عقاصها فأتينا به النبي (ص) فإذا فيه : من حاطب بن ابي بلتعة إلى اناس من المشركين بمكة يخبرهم ببعض أمر النبي (ص) ، فقال النبي (ص) : ما هذا يا حاطب ؟ قال : (تجد الجواب في المتن) .

وروى القمي أن حاطب بن أبي بلتعة قد أسلم وهاجر الى المدينة وكان عياله بمكة وكانت قريش تخاف أن يغزوهم رسول الله (ص) ، فصاروا الى عيال حاطب وسألوا أن يكتبوا الى حاطب يسألوه عن خبر محمد هل يريد أن يغزو مكة ؟ فكتبوا الى حاطب يسألوه عن ذلك ، فكتب اليهم حاطب : إن رسول الله (ص) يريد ذلك ، ودفع الكتاب الى امرأة تسمي صفية فوضعته في قرونها ومرت ، فنزل جبرئيل على رسول الله (ص) وأخبره بذلك ، فبعث رسول الله (ص) أمير المؤمنين (ع) ...

ولئن سأل سائل: إذا كان هؤلاء أعداء الله وأعداء المؤمنين فكيف بالإمكان موالاتهم والإلقاء اليهم بالمودة ، والقلب لا يتحمل المتناقضين ؟ فالجواب : ان الموالاة هنا ليست هي القلبية ، وإنما ظاهرية دفاعاً عن شرٍّ يُزعم ، وشاهداً عليه – إضافة إلى شاهد الإلقاء – ترجّي المودة في المستقبل إذا زال الكفر : « عسى الله أن يجعل بينكم وبين الذين عاديتم منهم مودة » .

ثم هذه الآيات وإن كانت تنديداً شديداً من زاوية بمن اعتمل هذه العملية النكراء الخائنة ، ولكنها من زوايا اخرى بين محذرة الكفار المستغِلين، ومربية البعض من المؤمنين المستغَلين الضالين هنا سواء السبيل .

فهنالك نقف مرة اخرى وقفة الحائرين أمام عظمة العطف الرباني بشأن هؤلاء إذ يخاطبهم خطاب المؤمنين ، لا المنافقين ، رجاء رجوعهم عما فعلوا ، وندمهم عما افتعلوا كما فعلوا ، وكذلك العطف النبوي المعطوف إلى العطف الرباني بخلقة العظيم إذ لا يعجل بحاطب حتى يسأل : (ما حملك على ما صنعت ؟) بكل رحابة صدر وحنان ، فلما صارحه بما قصد مجيباً عتاب الرسول ﷺ : (لا تعجل عليّ يا رسول الله ! إني كنت امرءاً ملصقاً من قريش ولم أكن من أنفسها ، وكان معك من المهاجرين لهم قرابات يحمون بها أهليهم وأموالهم بمكة ، فأحببت إذ فاتني ذلك من النسب فيهم أن أصطنع اليهم يداً يحمون بها قرابتي ، وما فعلت ذلك كفراً ولا ارتداداً عن ديني) (والله يا رسول الله ما نافقت ولا غيّرت ولا بدّلت ، وإني أشهد أن لا إله إلا الله وأنك رسول الله حقاً) [1] .

هنا يكف الصحابة عنه بقوله ﷺ : (صدق ، لا تقولوا إلا خيراً) ، ولينتهضه من عثرته من فوره ، دون مطاردة ومشاردة .

ونجد خلاف هذا الحزم في الخليفة عمر ، إذ ينظر إلى العثرة ذاتها ، دون أن

---

(١) الفقرة الاولى في الدر المنثور ، والثانية في تفسير القمي .

بعد إخفائه ، وكذلك بسط الأيدي ، وإن كان هـــذه ضررها بالإيقاع وتلك ضررها بالسماع .

والثّقف : الحِذق في إدراك الشيء وفعله ، فإذا أدركوكم وسيطروا عليكم بحذقهم الكافر الماكر ، حينذاك يظهر لكم مدى عدائهم لكم لحدّ : « ودّوا لو تكفرون » : جمعاً بين العداء في القلب وفي القالب ، وعـــداء القلب ان : « لو تكفرون » هي أمرّ وأدهى ، إذ توحي بكافـــة ألوان المحاولات والحيل ليردّوكم ويرجعوكم عن الإيمان ، ولحدّ المستحيل الموحى به بـ « لو » .

فهم دائماً ينتفعون ولا ينفعون مهما تظاهروا بالوداد، وإنما هم شداد في عدائهم العارم ، فكيف تتولونهم ؟.

ثم ولو يتولونكم في التخفيف عن أرحامكم وأولادكم ولن يخففوا ، فـ :

« لن تنفعكم أرحامكم ولا أولادكم يوم القيامة يفصل بينكم والله بمـــا تعملون بصير » :

إنهم لن ينفعوكم وإن كانوا مؤمنين ، فكيف ينفعونكم وهم كافرون ؟ فوشائج القرابة المتأصلة في كيانكم ، المشتجرة في زوايا قلوبكم ، إنها قـــد تنسيكم مـــا يتوجب عليكم في ظل الإيمان بالله ، فإنه الوشيجة الدائبة التي لا انقطاع لها ولا فصال ، لا بد أن تنسي المؤمن سواهـا من الوشائج على طول الخط ، فكل وصال إلى فصال « يوم القيامة يفصل بينكم » إلا وصال في الله واتصال بالله ، وعلى المؤمنين أن يتأسوا في صمود وشيجة الإيمان بالرعيل الأعلى ليذيبوا سائر الوشائج ولا يُذابوا فيها .

« قـــد كانت لكم اسوة حسنة في ابراهيم والذين معه إذ قالوا لقومهم إنا برآء منكم ومما تعبدون من دون الله كفرنا بكم وبدا بيننا وبينكم العـــداوة

كثيرة الفروع وارفة الظلال غرسها شيخ النبيين ابراهيم الخليل عليه السلام مهما سبقه البعض ممن لحقه كالرسول الأقدس محمد صلى الله عليه وآله !

« إذ قالوا لقومهم إنا برآء منكم ومما تعبدون من دون الله » براءة بريئة عن كل شين ورين، صامدة في وجه القرابات الكافرة، قاطعة وشائجها مهما تشجرت واستطالت وحق الأبوة والعمومة ، لحد الكفر بهم ونكرانهم كأن لا قرابة « كفرنا بكم » كفر البراءة [1] والنكران والمفاصلة ، لا كفر الايمان ، إذ ما كانوا مؤمنين بهم مسبقاً حتى يكفروا بهم عن إيمانهم لا حقاً، «وبدا بيننا وبينكم العداوة والبغضاء أبداً حتى تؤمنوا بالله وحده » فالإيمان هنا هو نهاية العداء وبداية الولاء ، فإذا آمنوا زال هناك كفران : كفرهم بالله ، وكفر المؤمنين بهم براءة وعداءً .

«إلا قول ابراهيم لأبيه لاستغفرنّ لك..» قاله قبل أن يتبين له انه عدو لله، لا تحتمل هداه ، إذ أمره بهجره ملياً : « قال أراغب أنت عن آلهتي يا ابراهيم لئن لم تنته لأرجمنك واهجرني ملياً» (١٩ : ٤٦) هنا يستلهم ابراهيم من هجره ملياً : مدة طويلة، لا دائماً ، انه يتروى في أمره فيها ، فقد تجوز هدايته، لذلك يسلم عليه ويعده الاستغفار : « قال سلام عليك سأستغفر لك ربي انه كان بي حفيا » (١٩ : ٤٨) فوعد الاستغفار مربوط باحتمال الإهتداء ، فلما طال الأمد وظن ابراهيم انه اهتدى حقق وعده : « وأغفر لأبي انه كان من الضالين » استغفر له وهو بعد حيٌّ ظن انه اهتدى ، أو سوف يهتدي ، وكان فيما مضى من الضالين المعاندين ، ولما تبين له انه عدو لله تبرء منه كما في آية الإعتذار حيث تفسر آية الاستغفار : « ما كان للنبي والذين آمنوا أن يستغفروا

---

(١) اصول الكافي بإسناده عن أبي عمرو الزبيري عن أبي عبدالله (ع) قال : قلت له : أخبرني عن وجوه الكفر في كتاب الله عز وجل ، قال (ع) : الكفر في كتاب الله على خمسة أوجه (إلى أن قال) والوجه الخامس من الكفر كفر البرائة وذلك قول الله عز وجل يحكي قول ابراهيم « كفرنا بكم .. » .

«ربنا لا تجعلنا فتنة للذين كفروا واغفر لنا ربنا انك أنت العزيز الحكيم»:

يستغفر ربه لو يُجعل فتنة للكافرين كما جعل في فتنته لآزر في استغفاره، فسناداً الى عزته تعالى يسأله الخروج عن الفتنة ، وإلى حكمته المغفرة لو افتتن ، فيا لهذه العبودية الخالصة من سموّ وعلوّ ! ومع ذلك كله تستثنى هذه الفتنة المغفورة ، غير العـــامدة ، عن اسوته : « إلا قول إبراهيم .. » فيا للرسالة الإسلامية من نزاهة تفوق الرسالة الإبراهيمية ! إذ لا ترضى من الأسوة إلا الحسنة علماً وواقعاً، لا السيئة – ولم تكن في إبراهيم – ولا بينهما : حسنة في ظنه ، سيئة معذورة كما فعله إبراهيم ، إنما حسنة خالصة :

«قد كان لكم فيهم اسوة حسنة لمن كان يرجوا الله واليوم الآخر ومن يتول فان الله هو الغني الحميد » :

فيا لها من تربية رابية على الإبراهيمية الحنيفة ، تختص الأمة الإسلامية ، إذ تستخلص لهم خالص التربيات عـــبر الرسالات كلها ، كما ان رسالتها خالصة الرسالات كلها ، أو انها الرسالة الإلهية وحدها ، وما سواها إنما تُحضّر لهـــا وتهيىء كبذرات لإنماءاتها « لمن كان يرجوا الله » أن يلاقيه في الدنيا والآخرة معرفيـاً ورضواناً « واليوم الآخر » وهو آخر المطاف وغايته ، « ومن يتول » عن هـــذه الرسالة ، فيتولى مناوئيها ممن يتربصون له ويترصدون « فإن الله هو الغني الحميد» : غني عن إيمانكم ، وهو يُحمد على أية حال، توليتم له أو توليتم عنه، سواء ، ولكنه لا يرضى لعباده الكفر [1] .

---

(١) من صحاح الأحاديث القدسية : « يا عبـــادي ! انكم لن تبلغوا ضرري فتضروني ولن تبلغوا نفعي فتنفعوني ، يا عبادي ! لو ان اولكم وآخركم وإنسكم وجنكم كانوا على أتقى قلب رجل واحد منكم مـــا زاد ذلك في ملكي شيئاً ، يا عبادي ! لو ان اولكم وآخركم وإنسكم وجنكم كانوا على أفجر قلب رجل واحد منكم ما نقص ذلك من ملكي شيئاً ، يا عبادي ! لو ان اولكم وآخركم وإنسكم وجنكم قاموا في صعيد واحد فسألوني فأعطيت كل إنسان مسألته ما =

إلا أنه الآن عريكة أبي سفيان، فاسترخت شكيمته في عداء الرسول ﷺ[١].

ان المفاصلة بين المسلمين والكفار قاطعة شاملة ، ثم بينهم وبين المستسلمين المنافقين قلبية فحسب ، ثم بينهم وبين فرقاءهم في الإيمان مواصلة شاملة دون أية مفاصلة ، والمودة الموعودة تشمل المواصلتين .

ان حرمة الموادة تتركز على المعادين المحاربين ، دون الكفار المسالمين ، فعاشروهم بالمعروف وأقسطوا إليهم علّهم يؤمنون :

« لا ينهاكم الله عن الذين لم يقاتلوكم في الدين ولم يخرجوكم من دياركم أن تبروهم وتقسطوا إليهم ان الله يحب المقسطين » :

فهؤلاء ، برهم ، والأقساط إليهم غير محظور ، بل هو محبوب ، وانها من أسس شرعة الحق والعدل ، ان الأصل للمسلم مع من سواه البر والخير والعدل إلا مع المحاربين المعتدين ، دفاعاً عن الحق ، وحفاظاً على الحقوق .

« إنما ينهاكم الله عن الذين قاتلوكم في الدين وأخرجوكم من دياركم وظاهروا على إخراجكم أن تولوهم ومن يتولهم فاولئك هم الظالمون » :

إنها مقاتلة في الدين وتشريد ومظاهرة على إخراجكم في الدين ، هي التي تمنعكم عن موادتهم ، وتفرض عليكم عداءهم ، لا أصل الكفر وكما تشهد له الروايات[٢] ، ولا أية مقاتلة ولا أي إخراج ، فلو قاتلك الكافر على نفسه وماله

---

(١) قد أسلمت أم حبيبة من قبل وهاجرت مع زوجها عبد الله بن جحش إلى الحبشة فتنصر وراودها على النصرانية فأبت وصبرت على دينها ومات زوجها فبعث رسول الله (ص) إلى النجاشي فخطبها عليه وساق إليها اربعمائة دينار وبلغ ذلك ابها فقال : ذلك الفحل لا يقدع أنفه .

(٢) الدر المنثور ٦ : ٢٠٥ – أخرج الطيالسي وأحمد والبزاز وأبو يعلي وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم والنحاس في تاريخه والحاكم وصححه والطبراني وابن مردويه عن عبدالله بن =

وَآتُوهُمْ مَّا أَنْفَقُوا وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ أَنْ تَنْكِحُوهُنَّ إِذَا آتَيْتُمُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ وَلَا تُمْسِكُوا بِعِصَمِ الْكَوَافِرِ وَاسْئَلُوا مَا أَنْفَقْتُمْ وَلْيَسْئَلُوا مَا أَنْفَقُوا ذٰلِكُمْ حُكْمُ اللهِ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ وَاللهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ — ١٠ . وَإِنْ فَاتَكُمْ شَيْءٌ مِّنْ أَزْوَاجِكُمْ إِلَى الْكُفَّارِ فَعَاقَبْتُمْ فَآتُوا الَّذِينَ ذَهَبَتْ أَزْوَاجُهُمْ مِّثْلَ مَا أَنْفَقُوا وَاتَّقُوا اللهَ الَّذِي أَنْتُمْ بِهِ مُؤْمِنُونَ — ١١ . يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِذَا جَاءَكَ الْمُؤْمِنَاتُ يُبَايِعْنَكَ عَلَىٰ أَنْ لَّا يُشْرِكْنَ بِاللهِ شَيْئاً وَلَا يَسْرِقْنَ وَلَا يَزْنِينَ وَلَا يَقْتُلْنَ أَوْلَادَهُنَّ وَلَا يَأْتِينَ بِبُهْتَانٍ يَفْتَرِينَهُ بَيْنَ أَيْدِيهِنَّ وَأَرْجُلِهِنَّ وَلَا يَعْصِينَكَ فِي مَعْرُوفٍ فَبَايِعْهُنَّ وَاسْتَغْفِرْ لَهُنَّ اللهَ إِنَّ اللهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ — ١٢ . يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَوَلَّوْا قَوْماً غَضِبَ اللهُ عَلَيْهِمْ قَدْ يَئِسُوا مِنَ الْآخِرَةِ كَمَا يَئِسَ الْكُفَّارُ مِنْ أَصْحَابِ الْقُبُورِ — ١٣ .

أحكام عدة بشأن المؤمنات المهاجرات ، تبتدىء بامتحانهن وتحرّي أسباب هجرتهن ، ألا تكون وراء حب فردي في دار الإسلام ، أو تخلصاً عن زواج مكروه في دار الكفر ، وإنما هجرة في الله ، خالصة في دين الله ، وتنتهي بشرط قبول رسول الله ﷺ مبايعتهن ، وبذلك يكمل إيمانهن .

يتحقق ؟ فهل بالاشتراط عليهن : « ألا يشركن بالله شيئاً ولا يسرقن ولا يزنين ولا يقتلن أولادهن ولا يأتين ببهتان يفترينه بين أيديهن وأرجلهن ولا يعصينك في معروف » فذلك حق كله وهي من اصول الإيمان العملي الذي يدل على تعمّق الإيمان في قلوبهن ، ولكن مجرد قبول الشرط لا يكفي شاهداً على الالتزام به وبواقعه !.

إذاً فليكن الامتحان في أمثال هذه عملياً بعد الاشتراط ، ليجمع بين عمل الإيمان وعقيدة الإيمان ، طالما لا يحصل منه اليقين ، وإنما العلم العادي ، وقد اكتفى الله للمؤمنين به : « فإن علمتموهن مؤمنات » دون أن يحمّلنا العلم الحقيقي كما الله يعلم :

« الله أعلم بإيمانهن » :

إن حصيلة الامتحان هذا هي العلم بأنهن ما خرجن طامعات ، وإنما مؤمنات ، فليركز الامتحان — أياً كان — على ركيزة الهجرة ، امتحان الحلف : (بالله ما خرجت من بغض زوج ، وبالله ما خرجت رغبة عن أرض إلى أرض ، وبالله ما خرجت التماس دنيا ، وبالله ما خرجت إلا حباً لله ورسوله) ثم يتمم بامتحانهن عملياً فيما هي شريطة قبول بيعتهن ، فقبل البيعة بشروطها لا يمكن العلم بإيمانهن ، إذاً :

« فلا ترجعوهن الى الكفار لا هن حلٌّ لهم ولا هم يحلّون لهن .. » :

إن رَجع المؤمنات المهاجرات ، بعد العلم بإيمانهن ، إنه محرّم عليكم وعليهن وعلى أزواجهن ، عليكم لأنه قد يسبب رجوعهن الى الكفر ، وعليهن كذلك ، ولأنه سبيل للكافر على المؤمن ، وعليهم إذ انقطعت الصلة بينهم وبينهن ، والزوجية حالة اندماج فاستقرار ، ولا اندماج بين الكفر والإيمان فلا استقرار ، فلا الشرع يسمح بهكذا رجع ، حفاظاً على صالح الإيمان ، ولا الواقع يجاوبه إذ لا سكن ولا اطمئنان بين المؤمن ومَن ليس له إيمان .

وفي رجع غيرها من المؤمنات حرمة عادية ، وقد تؤيده السنة [١] .

إذاً فلا تحل المسلمة – وحق المقِرة بالشهادتين فحسب – على الكافر ، وحق الكتابي الموحد ، لا استدامة ، ولا ابتداءً .

وإذ لا يحل رجعهن إلى الكفار فكيف يجبر خسارهم فيما أنفقوا؛ فهل تذهب أزواجهم بما أخذن منهم هدراً ؟ كلا ! إن الإسلام أعدل من هذا ولو بالنسبة للكفار المعاهدين :

« وآتوهم ما أنفقوا » : سواء أنكحتموهن أم لا ، ما أنفقوا في أصل الزواج ، دون النفقات الاخرى ، فقد أخذوا حقوقهم منهن مضاجعة وسواها بدل ما أعطوا من هذه النفقات ، وإنما على المسلمين رجع نفقات الزواج الى الأزواج ، ثم وما هو دور نكاحهن :

« ولا جناح عليكم أن تنكحوهن إذا آتيتموهن اجورهن » : لا محظور في نكاحهن شرط أن تؤتوهن اجورهن، دون أن تحاسبوا عليهن ما آتيتم أزواجهن من اجورهن ، فإنه زواج ثانٍ لا يحكم عليه بحكم الأول وقد مضى .

إن إيمان زوجة الكافر يفصلها عنه دون طلاق ، فهل تعتد عدة الطلاق ، أم عدة الوفاة ، أم لا عدة وإنما تريّثٌ لاستبراء رحمها ، أم ولا تريّثَ إطلاقاً ؟

إن آيات العُدد وفاةً وطلاقاً مختصة بهما ، لا تتخطاهما الى غيرهما إلا بحجة قاطعة ، وآيتنا هذه تنفي الجناح عن نكاحهن شريطة المهر دون ذكر عدة ولا تريُّث ، إذاً فلا عدة هنا لعدم الحجة ، اللهم إلا لاولات الأحمال منهن: « واولات

---

(١) في الكافي بإسناده عن الفضيل بن يسار قال : قلت لأبي عبدالله (ع) : ان لامرأتي اختاً عارفة على ديننا وليس على ديننا بالبصيرة إلا قليل ، فإن زوجها لا يرى رأيها ، قال (ع) : لا – ولا نعمة ، ان الله عز وجل يقول : « فلا ترجعوهن إلى الكفار لا هن حل لهم ولا هم يحلون لهن » .

وهـل ان الكافرات هنا المشركات ، كما الآيات نازلة فيهن وفي المشركين ؟ أم هن والكتابيات ، لأن شأن النزول لا يخص الآية بموردها ، وإنما المتبع فيها عموم اللفظ : « الكوافر » لا خصوص المورد : « المشركات » ؟ وجهان أشبههما ثانيهما ، فلا تحل – إذاً – نكاح الكتابيات على أية حال لعموم هذه الآية .

اللهم إلا أن آية البقرة تخص الحرمة بالمشركات، فعلّها ناسخة عموم الكوافر هنا ، وآية المائدة تصرح بحلّ الكتابيات ، فهي ناسخة آية الكوافر ، ومؤكدة ان المشركات في البقرة لا تعم الكتابيات ، أو إذا عمت بمـا تعلّل فهي أيضاً منسوخة بآية المائدة ، فتحل الكتابيات على المؤمنين ، وتبقى حرمة المؤمنات على الكافرين مشركين أم كتابين ، على قوتها ، في عموم آيتي الممتحنة والبقرة .

فآية الممتحنة حرمت المؤمنات على الكافرين: « فلا ترجعوهن إلى الكفار » مشركين وكتابيين ، وحرمت الكافرات على المؤمنين « ولا تمسكوا بعصم الكوافر » كذلك فإن موضوع الحرمة فيها هو الكفر لا خصوص الشرك ، رغم أنه مورد نزولها .

ثم آية البقرة ، وإن كانت تختص الحرمة بالشرك دون مطلق الكفر : « ولا تنكحوا المشركات حتى يؤمن ولأمة مؤمنة خير من مشركة ولو أعجبتكم ولا تنكحوا المشركين حتى يؤمنوا ولعبد مؤمن خير من مشرك ولو أعجبكم اولئك يدعون إلى النار والله يدعوا إلى الجنة والمغفرة بإذنه ويبين آياتـه للناس لعلهم يتذكرون » (٢ : ٢٢١) .

هذا – ولكن الغاية التي تزيل الحرمة : (حتى يؤمن .. حتى يؤمنوا) إنها تضم الكتابيين والكتابيات إلى جماعة الشرك ، إذ لم يؤمنوا ولم يؤمن ، واحتمال ان الإيمان هنا هو الخروج عن الشرك فيعم الكتابي ، انـه – على بُعده – تدفعه حكمة الحكم أو علته : « اولئك يدعون إلى النار » مهما اختلفت نار الدعوة بين المشركين والكتابيين ، وعـلّ اختصاص المشرك بالذكر بحساب أنه الأصل في الحرمة ، التي لا علاج لها ولا استثناء فيها ، دون الكتابي .

الحائط [١] أو مردودة إلى أهلها .

وحكمة الحرمة أو علتها في آية البقرة « اولئك يدعون إلى النار » ليست بالتي تنسخها آية المائدة أو أي ناسخ ، وإنما تنسخ أصل الحرمة كضابطة عامة ، مع بقاء الحرمة في موارد الدعوة إلى النار ، فلا تحل الكتابية التي تدعوه للضلالة أو أولاده [٢] ، ولا تزويجها على مسلمة ، فإن لزامه سبيل الكافرة عليها بالمشاركة في حقوق الزوجية ، وتسوية بينها فيها [٣] ، ولا أن يتزوج مسلمة على كتابية وهي

= نهى وترك قوله : « ولا تنكحوا المشركين حتى يؤمنوا » على حاله لم ينسخه . أقول : وهو مقبول على تأمل في سابق حل الكتابي ذكراً وأنثى . ومما يلائم الآيات الأحاديث المعللة لمنع نكاح الكتابيات كما رواه عبدالله بن سنان عن ابي عبدالله (ع) في حديث قال : (وما أحسب للرجل المسلم أن يتزوج اليهودية ولا النصرانية مخافة أن يتهود ولده أو يتنصر) .

وما رواه معاوية بن وهب وغيره جميعاً عن أبي عبدالله (ع) في الرجل يتزوج اليهودية والنصرانية فقال : إذا أصاب المسلمة فما يصنع باليهودية والنصرانية ؟ فقلت له : يكون له فيها الهوى ، قال : إن فعل فليمنعها من شرب الخمر وأكل لحم الخنزير ، واعلم أن عليه في دينه غضاضة .

(١) كما ورد في أن آية المائدة منسوخة بآية الممتحنة ، ففي الوسائل ج ١٤ ص ٤١٠ عن زرارة بن أعين قال : سألت أبا جعفر (ع) عن قول الله عز وجل : « والمحصنات من الذين أوتوا الكتاب من قبلكم » فقال : هي منسوخة بقوله : « ولا تمسكوا بعصم الكوافر » ، وآية المائدة خاصة وناسخة ، لأن المائدة آخر ما نزلت ، وإلا فكيف تنسخ بآية الممتحنة وهي من اوليات المدنيات ؟.

(٢) انظر صفحة ٢٨٨ هامش رقم (١) .

(٣) المصدر ص ٤١٨ – محمد بن مسلم عن أبي جعفر (ع) قال : لا تتزوج اليهودية والنصرانية على المسلمة . وعن أبي عبدالله (ع) في رجل تزوج ذمية على مسلمة قال : يفرق بينها ويضرب ثمن حد الزاني اثنا عشر سوطاً ونصفاً ، فإن رضيت المسلمة ضرب ثمن الحد ولم يفرق بينهما .

« وإن فاتكم شيء من أزواجكم الى الكفـــار فعاقبتم فآتوا الذين ذهبت أزواجهم مثل ما أنفقوا واتقوا الله الذي أنتم به مؤمنون » :

فقد تفوت زوجات المؤمنين إلى الكفار بانفلاتهن اليهم كافرات ، أو أسرهن عندهم مؤمنات ، ثم تحصل المعاقبـة ، فعلى الآخرين – ممن بأيديهم أزمة امور المسلمين – أن يعوضوا المحرومين عما أنفقوا مثل مـا أنفقوا ، فما هي المعاقبة ؟ وممن هي ؟

إنها قد تكون معاقبة الزواج لمن فاتتهم أزواجهم ، فإنها الوصول إلى عقبى الشيء وهي هنا زواج بعـد الاولى تعقبها ، وكما عن الإمام الرضا عليه السلام : (أن يتزوج اخرى)[1] ، أو معاقبتهم أزواجهم دون أن يقدروا على رجعهن ، أو معاقبتهم – بسائر جنود الإسلام – الكفار ، ولكي يحصلوا على مـــا أنفقوا ولم يحصلوا .

ولفظ الآية يتحملها جميعاً ، والقدر المتيقن منها وجوب إنفاق ما انفق ، إذا لم يحصل عليه من الكفار ، وأراد معاقبة الزواج ، سواء غنم المسلمون منهم شيئاً أم لم يغنموا ، والمتيقن من عدمه أو عدم جوازه من بيت المال ، مـا إذا حصل

---

(١) وفي علل الشرائع بإسناده عن يونس عن اصحابه عن ابي جعفر وأبي عبدالله (ع) قال قلت : رجل لحقت امرأته بالكفار وقد قال الله عز وجل في كتابه : « وإن فاتكم شيء من أزواجكم إلى الكفار فعاقبتم فآتوا الذين ذهبت أزواجهم مثل ما أنفقوا » ما معنى العقوبة ههنا ؟ قال: إن الذي ذهبت امرأته فعاقب على امرأة اخرى غيرها يعني تزوجها، فإذا هو تزوج امرأة اخرى غيرها فعلى الامام ان يعطيه مهر امرأته الذاهبة . فسألته : فكيف صار المؤمنون يردون على زوجها المهر بغير فعل منهم في ذهابها ؟ وعلى المؤمنين ان يردوا على زوجها ما انفق عليها مما يصيب المؤمنين ؟ قال : يرد الامام عليه أصابوا من الكفار أم لم يصيبوا ، لأن على الامام ان يجبر حاجته من تحت يده وإن حضرت القسمة فله ان يسد كل فائبة تنوبه قبل القسمة وإن بقي بعد ذلك شيء قسمه بينهم وإن لم يبق لهم شيء فلا شيء لهم .

« **ولا يسرقن** » الأموال والنفوس والأعراض ، من أزواجهن وسواهم .

« **ولا يقتلن أولادهن** » كما كان من دأب الجاهلية وأد البنات مخافة العار أو خشية إملاق أم ماذا ؟

« **ولا يأتين ببهتان يفترينه بين أيديهن وأرجلهن** » : من حمل عن زنا يحمّلنه أزواجهن زوراً وافتراءً ، فقد كانت المرأة في الجاهلية تبيح نفسها لعدة رجال شهوة وتجارة ، فإذا حملت ألحقته بمن تهواه وهي تعلم مَن أبوه ، وعلّ بهتان « بين أرجلهن » يختص بإزالة البكارة إذا كانت بغير زوجها ، ثم هي تفتريها على زوجها .

« **ولا يعصينك في معروف** » : فـ « ك » هنا تصريح وتلميح ، تصريح للرسول خاصة ، فـ « في معروف » قيد توضيحي ، فان كل أوامره معروفة ، فلا يتقيد أمره بشيء لأنه يصدر عن الله ، وكما لله طاعة مطلقة دون شرط ، اصالة ، كذلك للرسول طاعة مطلقة ولأولي الأمر المعصومين (ع) الصادرين عنه دون قصور أو تقصير ، رسالة عنه .

ثم وتلميح الخطاب يعمّ غير الله والرسول وأولي الأمر ، الذين يحكمون بين المسلمين ، فلا تجب طاعتهم إلا « في معروف » ، وهذا الشرط هو أحد القواعد الأساسية في نظام الإسلام : ان لا طاعة عمياء لأحد على المسلمين إلا في المعروف الذي تقرره شريعة الله ، إلا في الله ورسوله وآله ، فطاعتهم مطلقة إذ لا خطأ ولا جهل ولا جور فيها إطلاقاً .

وإنما نسب العصيان الى الرسول « لا يعصينك » دون الله « لا يعصون الله » وإن كانت طاعة الرسول هي طاعة الله « من يطع الرسول فقد أطاع الله » ، لأن طاعة الرسول تعني ما سنّه ، كما أن طاعة الله تعني ما فرضه في كتابه ، فللرسول أوامر بالولاء بما خوّله الله « لتحكم بين الناس بما أراك الله » (٤ : ١٠٥) فلا يُطلب الرسول ﷺ فيما يأمر أو ينهى كولي الأمر ، بحجة من كتاب الله ، لأن سنته

علّ القوم المغضوب عليهم هنا هم اليهود وكما في آيات عدة ، وقد يشهد له تنظيرهم في يأسهم من الآخرة بيأس الكفار من أصحاب القبور ، وهم المشركون الناكرون للآخرة ، ولقد حرّم توليهم على المسلمين لأنهم تماشوا المشركين في نكران يوم الدين ، أو عدم المبالاة به : « قد يئسوا من الآخرة » : من ثوابها بما قدمت أيديهم : « قل إن كانت لكم الدار الآخرة عند الله خالصة من دون الناس فتمنوا الموت إن كنتم صادقين . ولن يتمنوه أبداً بما قدمت أيديهم والله عليم بالظالمين . ولتجدنّهم أحرص الناس على حياة ومن الذين أشركوا يودّ أحدهم لو يعمّر ألف سنة وما هو بمزحزحه من العذاب أن يعمّر والله بصير بما يعملون » (٢ : ٩٦) .

فهذا يأس بحساب عدم الثواب ، ولهم يأس آخر بنكران الحساب ، وهو أشبه بيأس الكفار من أصحاب القبور ، إذ يئسوا من حياتهم ومن حسابهم بعد موتهم ، فكما يئس المشركون الناكرون لحياة الحساب من أصحاب القبور كذلك اليهود يئسوا من الآخرة ، رغم أن المعاد من اصول دينهم .

مركز تحقيقات كامپيوترى علوم اسلامى

يُرِيدُونَ لِيُطْفِئُوا نُورَ اللهِ بِأَفْوَاهِهِمْ وَاللهُ مُتِمُّ نُورِهِ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ — ٨ . هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَىٰ وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ — ٩ . يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ تِجَارَةٍ تُنْجِيكُمْ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ — ١٠ . تُؤْمِنُونَ بِاللهِ وَرَسُولِهِ وَتُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللهِ بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ — ١١ . يَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَيُدْخِلْكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ وَمَسَاكِنَ طَيِّبَةً فِي جَنَّاتِ عَدْنٍ ذَٰلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ — ١٢ . وَأُخْرَىٰ تُحِبُّونَهَا نَصْرٌ مِنَ اللهِ وَفَتْحٌ قَرِيبٌ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ — ١٣ . يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا أَنْصَارَ اللهِ كَمَا قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ لِلْحَوَارِيِّينَ مَنْ أَنْصَارِي إِلَى اللهِ قَالَ الْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنْصَارُ اللهِ فَآمَنَتْ طَائِفَةٌ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَكَفَرَتْ طَائِفَةٌ فَأَيَّدْنَا الَّذِينَ آمَنُوا عَلَىٰ عَدُوِّهِمْ فَأَصْبَحُوا ظَاهِرِينَ — ١٤ .

« سبح لله ما في السماوات وما في الأرض وهو العزيز الحكيم » :

مضي التسبيح في فعله : « سبح » للتدليل على أنه لزام الخلائق في ذواتهم منذ

نختصها بمناسبات نزولها فنموّت القرآن بموتها وهو كتاب الحياة الخالدة يجري كجري الشمس .

فآية المقت تعلمنا ضابطة عامة أن القول المنافق للفعل مقت كبير ، كما أن القول الموافق له واجب كل مؤمن ، فليكن المعني من القول هنا هو المطلوب فعله، سابقاً أو لاحقاً أو على أية حال، فمن الأقوال ما يطلب تركها كالمنكرات، ومنها ما لا فعل لها ، فليساهما داخلين في نطاق الآية التي تندد بالذين يقولون مـــا لا يفعلون .

ثم القول هنا يشمل الوعد الحسن فيجب الوفاء به ، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، فيجب على الآمر الإئتمار بما يأمر به ، وعلى الناهي الإنتهاء عما ينهى عنه ،وكذلك سائر الأقوال الحسنة الواصفة للحسنات ، أو المخبر بها ، فلتـُصدّق في فعلها من قائلها ، فإذا كان القول الحسن هنا وهناك وهنالك لا يحاوبه الواقع، فليترك هذا القول فإنه تقوّل انقلب سيئاً ومقتاً كبيراً عند الله إذ ينافق فعلـَه ، مهما كان حسناً عند الله لو يوافق فعله ، إذ لا قيمة لقول لا يسنده ويسانده فعله، فإما السكوت عن هكذا قول ، أم ضم الفعل إليه كما يستطاع .

فخلف الوعد مقت ولو مع الكفار غير الناقضين عهودهم ، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر مقت لمن لا يأتمر فيما يأمر أو لا ينتهي عما ينهى : « أتأمرون الناس بالبر وتنسون أنفسكم وأنـتم تتلون الكتاب أفلا تعقلون » (٢ : ٤٤) فهذا النفاق في الأمر والنهي إفساد ، وإن كان القصد منهما الإصلاح، وكما يشير إليه شعيب عليه السلام : « وما أريد أن أخالفكم إلى مـا أنهاكم عنه إن أريد إلا الإصلاح ما استطعت .. » (١١:٨٨) فتارك المعروف المأمور من قبـل تاركه ، وفاعل المنكر المنهي من قبل فاعله، انهما يزدادان جرأة وهتكاً في حرمات الله ، ووهناً في عقيدة الإيمان إن كانت لهما ، وان ذلـك يكشف عن أن الآمر الناهي كأنه

وفي تقسيم حاصر بين القول والفعل، قد يفعل الإنسان قبل أن يقول، ففعله هو قوله قبل قوله ، وإذا يقول فليس بدافع التشهر والفخر ، وإنما توجيهاً للآخرين، فهذا هو العليين من القول والفعل ، وقد يقول ولا يفعل ، بل ويضاد فعله قوله ، وهذا هو السجين منهما، ثم بينهما متوسطات من زيادة القول على الفعل دون رثاء، أو قول يجاوب الفعل ولكنه رثاء ، أم ماذا ، فإنما يحسن من القول ما يعتقده القائل ويفعله تماماً .

« ان الله يحب الذين يقاتلون في سبيله صفاً كأنهم بنيان مرصوص » :

ان سبيل الله في كافة مجالاتها، هي سبيل مرضاة الله، وهي سبيل مصلحة الإنسان ديناً ودنياً، مجتمعاتٍ وأفراداً، وفي كل متطلباته كإنسان، فسبيل الله — إذاً — هي سبيل صالح الإنسان ، والله هو الغني عن عباده وهم الفقراء إليه ، وهكذا يفسر نصرة الله وصراط الله ، وكلما لله مما يؤمر به الناس .

ثم المقاتلة في سبيل الله ليست فوضى دون نظام وقيادة صالحة ، فكما لا قتال إلا في سبيل الله ، متحللاً عن الأطماع التوسعية، كذلك لا قتال في سبيل الله إلا « صفاً كأنهم بنيان مرصوص » في تضامن عن قيادة ونظام بين الجماعة المسلمة ، داخل صفوف متراصة : برية وبحرية وجوية ، متضامنة منضمة كل مع بعض ، كما يتضامن كلٌ مع صفيفه، وكلُ صف واحد، فإنهم يقاتلون تحت قيادة واحدة ونظام واحد « كأنهم بنيان مرصوص » تتضامن أبماضه في صميمه، مهما اختلفت شكلياً ومن حيث الوظائف في تصميمه .

ولو كان المسلمون أجمع ، أو المسلمون العرب على أقل تقدير ، لو كانوا هكذا في مواجهة ثالوث الاستعمار الصيهوني الانكلو أمريكي ، والإستحمار الروسي المناوىء له شكلياً ، والمساند إياه ضد المسلمين واقعياً ، لو كانوا مقاتلين في سبيل الله صفاً كأنهم بنيان مرصوص ، لما انهزموا واصطدموا من دويلة العصابات الصهيونية وعملائها المرتزقة داخل البلاد .

المناوئين ضد رجالات الله ، وفي هذه التذكارات تسلية لخاطر النبي الأقدس محمد ﷺ أنه ليس وحده يؤذى بين المرسلين ، وثانية بما يزيغ الله قلوب الزائغين ، ثم في آية البشارة التالية يبشره أنه مبشر به من قبل السيد المسيح، ويخبره بكيد الفاسقين المتخلفين عنها، ذاكراً فيها رسالة عيسى التي هي امتداد لرسالة موسى، وممهد للرسالة الأخيرة المحمدية .

« وإذ قال موسى لقومه لم تؤذونني .. » : فقد آذوه ألوان الأذيات « وقد تعلمون أني رسول الله إليكم » وأذية رسول الله هي أذية لله ، وهي تستجر اللعنة في الدنيا كإزاغة القلوب ، وفي الآخرة بألوان العذاب : « إن الذين يؤذون الله ورسوله لعنهم الله في الدنيا والآخرة وأعد لهم عذاباً مهيناً » (٣٣ : ٥٧) .

« فلما زاغوا » : مالوا وانحرفوا عن حق الطاعة ، وانجرفوا إلى باطل العصيان ، « أزاغ الله قلوبهم » : ان ترك هدايتهم، إذ أبعدهم عن جنابه وخلاهم وما يختارون ، ووكلهم إلى أنفسهم ، كما ويجاوبه ذيل الآية كتعليل للإزاغة : « إن الله لا يهدي القوم الفاسقين » : فالذي يفسق عن أمر ربه ، ويزيغ بعناد وعتاد عن طاعته ، انه لا يستحق الهداية الإلهية ، التي هي جزاء لقبول الهداية واستقبال الهداة ، اللهم إلا تسييراً للهداية وهو مذموم ، كما التسيير للضلالة مذموم .

فإذ ينسب الله الإزاغة بعد الزيغ إلى نفسه ، لا يعني منها الدفع إلى ضلال اكثر ، وإنما ترك التوفيق والهداية الثانوية ، فانها خاصة بالمهتدين : « إنهم فتية آمنوا بربهم فزدناهم هدى » (١٨ : ١٣) .

وإذ يسترجي الراسخون في العلم أن لا يزيغ الله قلوبهم : « ربنا لا تزغ قلوبنا بعد إذ هديتنا » (٣ : ٨) فالمعني منه : أدم لنا ألطافك وعصمك لتدوم قلوبنا على الإستقامة ، ولا تزيغ عن مناهج الطاعة ، دعاء مستجاب للمؤمنين بفضل الله ورحمته وكما وعدهم « ادعوني استجب لكم » وكان الرسول ﷺ يقول : « ربنا لا تكلنا إلى أنفسنا طرفة عين أبداً » .

انه أحمد وأفضل من المسيح ومَن قبله من حملة الرسالات .

« و » أذكر بين ذكريات الرسالات المعرقلة من قبل المناوئين ، والبشارات المكذوبة بهم «إذ قال عيسى بن مريم» وطالما النبيون وغيرهم لا يذكرون بنسبة الآباء والامهات في القرآن ، لأن بناء شخصية الإنسان ما يتبناه هو لا سواه ، نرى السيد المسيح ينسب إلى امـــه ، لا لإثبات شخصية روحانية له من قبلها ، وإنما لإثبات آية خارقة إلهية هي ولادته دون أب ، وللذود عن ساحة مريم (ع) إذ نسبت إلى الزنا ، فليس المسيح ابن رجل لا حلالاً ولا حراماً ، إنما ابن باكرة طاهرة !

« **إذ قـــال عيسى بن مريم يا بني اسرائيل اني رسول الله اليكم** » ولا تعني « اليكم » تخصيص الرسالة الإنجيلية ببني اسرائيل ، وإنما هم المحور والمنطق الأول لهذه الرسالة ، يجب أن تتخطاهم إلى العـــالم كله ، كما تناصرت بذلك الآيات القرآنية والإنجيلية سواء « مصدقاً لما بين يدي من التوراة » لا « ما بين أيديكم » فأين ما بين أيديهم من التوراة المحرفة : « فويل للذين يكتبون الكتاب بأيديهم ثم يقولون هذا من عند الله ليشتروا به ثمناً قليلاً فويل لهم مما كتبت أيديهم وويل لهم مما يكسبون » (٢ : ٧٩) ، أين هو مما بين يدي المسيح من خالص وحي التوراة : « إنا أنزلنا التوراة فيها هدىً ونور يحكم بها النبيون الذين أسلموا للذين هادوا بما استحفظوا من كتاب الله » (٥ : ٤٤) وإن كان فيما بين أيديهم الشيء الكثير مما بين أيدي السيد المسيح ، وبذلك يحتج عليهم ، وبذلك يستقربهم الى دعوته .

« **ومبشراً برسول ياتي من بعدي اسمه أحمد** » :

ان (أحمد) هو (محمد) في نص البشارة ومعناها ، فإنهما حسب النص اليوناني (بيركلتوس) : كثير الحمد ـ المترجم إلى (أحمد ومحمد) سواء ، فإن

لِكَسْلَوْخُونْ إِيْنَ إِنْ أَزِنْ بِتْ شادْرِنَّهْ لِكَسْلَوْخُون) .

« لكني أقول لكم الحق إنه خير لكم أن انطلق . لأنه إن لم انطلق لا يأتيكم (البير كلتوس) ، ولكني ان ذهبت أرسله إليكم ، ومتى جاء يبكت العالم على خطيئة وعلى برّ وعلى دينونة . أما على خطيئة فلأنهم لا يؤمنون بي . وأما على بر فلأني ذاهب إلى خالقي ولا ترونني أيضاً . وأما على دينونة فلأن رئيس هذا العالم قد دين : ان لي أموراً كثيرة أيضاً لأقول لكم ولكن لا تستطيعون أن تحتملوا الآن . وأما متى جاء ذاك روح الحق فهو يرشدكم إلى جميع الحق لأنه لا يتكلم من نفسه بل كل ما يسمع يتكلم به ويخبركم بامور آتية ويمجدني لأنه يأخذ مما لي ويخبركم . كل ما الآب هو لي ، لهذا قلت انه يأخذ مما لي ويخبركم » [١] .

ان (بير كلتوس) هنا وهناك ، نصاً ومواصفات ، لا تنطبق إلا على الرسول الأقدس (أحمد) محمد بن عبد الله ﷺ مهما حاول المحولون المحرفون الكلم عن مواضعه ، ان يحرفوها عنه ﷺ فالحق يتجلى كالشمس بين ظلمات الأباطيل وزخرفات الأقاويل .

مرکز تحقیقات کامپیوتری علوم اسلامی

ولقد صرح بعض الخبراء باللغة اليونانية من المستشرقين [٢] ومعهم بعض

---

(١) نقل الترجمة عن اللغة اليونانية سنة ١٩٠٦ – الكتاب المقدس – ونحن نقلناها هنا حرفياً إلا ترجمة البارقليطا ، والترجمة هنا تزيد عن الأصل السرياني ، إذ المقصود من نقل الأصل الإشارة إلى نص « بارقليطا » وإلا فالأصل الأولي يوناني ، وقد ترجمنا « الآب » بـ « الخالق » حسب ما تعنيه في اللغة اليونانية خلاف الترجمات الإنجيلية التي تطلب من (الآب) أن يكون (الأب) لكي يصبح المسيح ابنه .

(٢) كالدكتور (كارولنلينو) المستشرق الطلياني إذ يسأله فتحي عثمان – كما في كتابه (مع المسيح في الأناجيل الأربعة ص ٣٤٨) قلت له : ما معنى بيركلتوس؟ فأجابني بقوله : ان القس يقولون معناها المعزي ، فقلت : إني اسأل الدكتور (كارولنلينو) الحاصل على شهادة الدكتوراه في آداب اللغة اليونانية القديمة ، فقال : ان معناه : الذي له حمد كثير ، فقلت : هل ذلك يوافق أفعل التفضيل حمد ؟ فقال : نعم – فقلت ان رسول الإسلام من اسمائه احمد !

ولئن سئلنا لماذا بُشر بأحمد ؟ ومحمد أشهر ! فالجواب : ان (بير كلتوس) اسمٌ وصفي عني به محمد وصفاً في : (بير كلتوس آخر) : نبي آخر ، فان النبيين كلهم محمّدون أوصافاً إذ يحملون الحمد الكثير ، مهما حمله محمد الأخير إسماً ووصفاً وكما في نص سليمان عليه السلام (وكُولو مَحمّد يم) : وكله محمد : إسماً ووصفاً وخُلقاً ودِيناً وفي كل شيء [1] ، ثم وعني به أحمد في سواه [2] إذ قصد تفضيله على السيد المسيح وسواه كما في النص الثالث الآتي شرحه ، فأحمد هو الأفضل إطلاقاً في حمل الحمد ، وكما هو حامل لواء الحمد يوم القيامة .

ومما يفضل بـــه هذا المحمد الآخر انه الأخير من مواكب الرسالات الإلهية أيضاً : « فيعطيكم بير كلتوس آخر ليمكث معكم إلى الأبد » (يوحنا ١٤ : ١٦) فـ (كم) هنا لا يعني — ومحال أن يعني — الجماعة المخاطبين زمن المسيح فقط ، إذ لم يكونوا مؤبدين بأشخاصهم ، وكما أن أبدية المحمد الآخر هي أبدية الشخصية الرسالية لا الشخص ، فهو خاتم النبيين .

وسمة أخرى لـ (بير كلتوس) يعنى فيها (أحمد) « انه خير لكم أن أنطلق لأنه ان لم انطلق لا يأتيكم (بير كلتوس) » فهل ان روح القدس خير من السيد المسيح حتى يصبح ذهابه لمجيء الروح خـــيراً لهم ؟ أم وإذا كان خيراً منه ، أينفصل عنه ولحد استحالة الجمع بينهما ؟ « إن لم انطلق لا يأتيكم » وهذه تصريحة بينة ان المبشر به كائن مستحيل الإتصال بالسيد المسيح ، وإذا كان هو روح القدس المتصل بالنبيين أجمع ، استحالت نبوة السيد المسيح ، فالذين يحاولون في

---

(١) في نشيد الأناشيد ٥ : ١٥ « حكو ممتقيم وكولو محمد يم زه دودي وزه رعي بنت يرشالام ، أي : فمه حلو وكله محمد هذا محبوبي وهذا ناصري الذي يرعاني يا بنات اورشليم .

(٢) إذاً فلا يتم في « احمد » رغم ما يتقوله الاستاذ حداد في (مدخل إلى الحوار الاسلامي المسيحي) بقوله : اسم النبي العربي في القرآن هو محمد كما يرد في أربع آيات : (٣ : ١٤٤) (٣٣ : ٤٠) (٤٧ : ٢) (٤٨ : ٢٩) لذلك فوروده بلفظ احمد مرة يتيمة مشبوه ولا يعرفه الواقع التاريخي .

(إسلام واحمد) حسب الأصل اليوناني واقعياً ولغوياً .

واقعياً لأن الأرض لا تحمل السلام التام ما دام فيها تضارب العقائد والأحكام.

فهذا هو السيد المسيح عليه السلام يقول عن سلام الأرض : « مـــا جئت لألقي سلاماً على الأرض بـــل سيفاً » (متى ١٠ : ٣٤) « جئت لألقي ناراً على الأرض أتظنون أني جئت لألقي سلاماً ؟ كلا ! أقول لكم بل إنقساماً » (لوقا ١٢ : ٥٣).

إذاً فـ (ايريني) على الأرض ليس سلامها ، وإنمـــا هو إسلامها الذي سوف ينتهي إلى سلامها التام في دولة القائم المنتظر عليه السلام : ملكوت الله الذي يلتمسه المسيحيون في صلواتهم ليل نهار ، والملائكة تعني بهذا الهتاف ان (أحمد) سوف يؤسس الإسلام على الأرض فيشملها كما الحمد لله شامل في الأعالي .

ولغوياً : الحق ان (ايودكيا) مركبة من (ايو – دكيا) ايو بمعنى : حسن، جيد ، صالح ، مرحي ، حقيقي ، حسن ملاحة – و (دوكيا) لم نجدها هكذا في كتب اللغة وإنمـــا (دوكوئه) أي : الحمد ، الإشتهاء ، الشوق ، الرغبة ، البيان ، الفكر ، ثم الصفات المشتقة من (دوكسا) وهي ، حمـــد ، محمود ، ممدوح ، نفيس ، مشتهي ، مرغوب ، مجيد ، والمركب من هذين هو «محمد وأحمد ».

كما وان الاصل العبراني (شلم حمد) هو الإسلام وأحمد ، لا السلام والمسرة ، وإن كان الإسلام وأحمد سلاماً ومسرة للمؤمنين [1] .

هـــذان الأحمدان طرف من البشارات الإنجيلية يجنب العديد من البشارات المحمدية في التوراة والإنجيل نتحدث عنها في طيات آياتهـا إنشاء الله تعالى ومنها مـا في كتاب أشعياء (٤٢ : ١٠) « يسبحون الرب تسبيحاً جديداً ويبقى أثر

---

(١) راجع كتابنا (رسول الاسلام في الكتب السماوية) تجد فيه تفصيل القول حول « بيركلتوس » و « ايريني ايودكيا » ، ننقله عن الأب عبد الأحد الآشوري العراقي من كتابه « الانجيل والصليب » ط القاهرة ١٣٥١ هـ نقله عن التركية إلى العربية مسلم عراقي .

انهم ليسوا بمسيحيين أيضاً إذ رفضوا بشارته وتركوا وصيته في محمد ﷺ .

وأما الذين آمنوا به فهم حقاً مسيحيون ومسلمون إذ آمنوا به تطبيقاً لوصية السيد المسيح عليه السلام .

« ومن أظلم ممن افترى على الله الكذب وهو يدعى الى الاسلام والله لا يهدي القوم الظالمين » :

المفترون على الله الكذب فرق شتى ، بين مفتر لا يعلم ، ومتجاهل يعلم ، وعالم لا يجهل ولا يتجاهل ، وإنما يفتري علماً وعناداً فلا أظلم منه ، ومنهم من يُدعى إلى الإسلام ، بحجة البشارات الصادقة لرسول الإسلام ، وبسائر الحجج القاطعة للأعذار ، ورغم كل ذلك يفتري على الله الكذب ، في تكذيب رسوله المبشر به من قبل ، وتكذيب رسالته التي تحمل كافة بينات الصدق ، فمن أظلم منه « والله لا يهدي القوم الظالمين » إذ لا يريدون الهداية ويرفضون الهداة .

« يريدون ليطفئوا نورَ الله بأفواههم والله متمُّ نورِه ولو كرهَ الكافرون » :

نور الله هنا هو الرسول محمد ﷺ ، فإنه نور الأنوار الرسالية ، وهو القرآن : « فالذين آمنوا به وعزّروه واتبعوا النور الذي أُنزل معه اولئك هم المفلحون » (٧ : ١٥٧) « يريدون أن يطفئوا نور الله بأفواههم ويأبى الله إلا أن يُتمّ نوره ولو كره الكافرون » (٩ : ٣٢) .

والفرق بين « ليطفئوا » و « أن يطفئوا » أن في الأول الإرادة واجهة لأمر يتوصلون به إلى إطفاء نور الله ، كنكران البشارات ، وتسحير المعجزات ، ولكي يُطفأ النور المحمدي ، وفي الثاني القصد إلى إطفاء نور الله بالقضاء على النبي ودعوته قصداً بالذات .

فرغم محاولات الكافرين وحيَلهم في إطفاء نور الله ، ان الله حتم على نفسه

ومن أرجَل وأبطَل هؤلاء الرجال الأنوار ، الرسولُ الأقدس محمد ﷺ وأهل بيته الطاهرون المعصومون كما وردت بذلك متواتر الآثار .

إنه ليس إتمام النور المحمدي بإبقاء شخصه حيّاً ، ولا ببقاء دينه حيناً سليماً عن النقص والنقض ، وإنما هو إظهاره على الدين كله : أن يحكم العالم أجمع ولو كره الكافرون والمشركون :

« هو الذي أرسل رسوله بالهدى ودين الحق ليُظهره على الدين كله ولو كره المشركون » « هو الذي ... وكفى بالله شهيداً » (٤٨ : ٢٨) .

« هو الذي أرسل رسوله » : كأنه الرسول لا سواه ، فمن هكذا إضافة يستفاد الحصر ، ولأنه يحمل الرسالات الإلهية وزيادة خالدة « بالهدى » : كل الهدى التي تتطلبها وتحتاجها الحياة العقلانية وأضرابها على طول الخط ، دون نقص أو نسخ « ودين الحق » : دين للحق : الثابت - لا « الدين الحق » لأن رُسل الله كلهم مرسلون بالدين الحق ، فـ « دين الحق » هو الثابت من الدين الذي ليس له دور خاص ولا جماعة خاصة ، فدوره شامل ما دامت هذه الحياة قائمة ، وجماعته هم المكلفون أجمعون ، حقٌ بكافة معانيه : ثبوتاً وجاه زلازل التشويهات والتمزيقات والتحريفات ، وثبوتاً تجاه النسخ بشريعة اخرى إلهية ، فإنه لا شريعة بعده ، فهو حق يجري في مجاري الحياة جري الشمس .

فلقد حرفت الكتب الإلهامية الاخرى ، وانتهت لحال لا تصلح معها لشيء من قيادة الحياة ، وحق لو ظلت سليمة عن التحريفات ، فهي نسخة سابقة مؤقتة لأدوارها المحددة لها ، لا تشمل كافة طلبات الحياة المترامية الأطراف ، المتجددة دائبة ، فليست هي « دين الحق » مهما كانت « الدين الحق » .

و « دين الحق » هكذا يستحق الظهور على الدين كله ، وكما جعل غاية لحقه : « ليظهره على الدين كله » : على الدين الباطل كله : الطاعة الباطلة ، وهي شرعة

إن الإسلام ليس فكراً أو نظرية في بطون الكتب، تترسمها الأجيال فيعيشوا الخيال بعيداً عن الواقع ، إنمـــا هو دين الحياة الواقعة ، حقيقة في عالم الواقع ، ما تزال هذه الحقيقة تنبعث بين حين وآخر، وتنبض وتنتفض قائمة على جذورها المجردة عن الأباطيل ، رغم كل ما جرّد على الإسلام والمسلمين من كيد وحرب وتنكيل، وظهرت قوة وحقيقة ونظاماً على سائر الدين قدر ما أظهرتها جماعتها، فدانت لها معظم الرقعة العامرة مدى قرون من الزمن .. وإلى أن يدين لها كل المعمورة طوعاً أو كرهاً بقوة النور والنار ، طوع الأبرار وكُره الأشرار « ولو كره الكافرون والمشركون » .

إن إتمام نور الإسلام ليس إلا في زمن يشمل العـــالم كله ، فيرتفع فيه عَلَم الإسلام مرفرفاً لا ندّ له ولا ضد ، وكما سمع علي عليه السلام يقول تفسيراً لهذه الآية: (كلا والذي نفسي بيده حتى لا يبقى قرية إلا وُينادى فيها بشهادة أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله بكرة وعشياً) (١) .

« يا أيها الذين آمنوا هل أدلكم على تجارة تنجيكم من عذاب أليم . تؤمنون بالله ورسوله وتجاهدون في سبيل الله بأموالكم وأنفسكم ذلكم خير لكم إن كنتم تعلمون » :

---

(١) تفسير العياشي بالاسناد عن عمران بن هيثم عن عباية انه سمع أمير المؤمنين (ع) يقول في الآية : أظهر ذلك بعد ؟ قالوا : نعم . قال : كلا ...

وعن ابن عباس في الآية قال : لا يكون ذلك حتى لا يبقى يهودي ولا نصراني ولا صاحب ملة إلا صار الى الاسلام ، حتى تأمن الشاة والذئب والبقرة والأسد والانسان والحية ، حتى لا تقرض فارة جراباً وحتى توضع الجزية ويكسر الصليب ويقتل الخنزير ، وهو قوله تعـــالى : « ليظهره على الدين كله » وذلك يكون عند قيام القائم (ع) .

وعن جـابر بن يزيد عن أبي جعفر (ع) في الآية قـال : يظهره الله عز وجل في الرجعة (تفسير البرهان ٤ : ٣٣٠) .

« إن الحسنات يُذهبنَ السيئات » (١١ : ١١٤) وكبائر المعاصي تركاً : « إن تجتنبوا كبائر ما تنهون عنه نكفّر عنكم سيئاتكم وندخلكم مدخلاً كريماً » (٤ : ٣١) ، ثم بقية حاضرة بجنب أمثالها والمستقبلة :

« وأخرى تحبونها نصرٌ من الله وفتح قريب وبشّر المؤمنين » :

وتجارة وعائدة أخرى ، تحبونها هنا « نصر من الله » إذ تنصرون دينه « وفتح قريب » : فتح مكة المكرمة وهو فتح الفتوح فيما مضى ، وفتح القائم المهدي عليه السلام [1] ، وهو أشمل ، وإن كان متأخراً بزمن ، فكل آتٍ قريب . فقد تربحكم هذه التجارة في الحياتين « وبشّر المؤمنين » بهذه الفتوحات والأرباح الدائبة ، وإنما المؤمنين المجاهدين بكل ما لديهم من إمكانيات ، لا القاعدين .

« يا أيها الذين آمنوا كونوا أنصار الله كما قال عيسى بن مريم للحواريين من أنصاري الى الله قال الحواريون نحن أنصار الله فآمنت طائفة من بني إسرائيل وكفرت طائفة فأيّدنا الذين آمنوا على عدوهم فأصبحوا ظاهرين » :

هذه المقالة من السيد المسيح هي لما أحسّ منهم الكفر : « فلما أحسّ عيسى منهم الكفر قال مَن أنصاري الى الله قال الحواريون نحن أنصار الله آمنّا بالله واشهد بأنّا مسلمون. ربنا آمنّا بما أنزلت واتبعنا الرسول فاكتبنا مع الشاهدين. ومكروا ومكر الله والله خير الماكرين » (٣ : ٥٤) .

كون الإنسان من أنصار الله والأنصار إلى الله لا يعني أن الله بحاجة إلى نصرة في ذاته أو صفاته أو أفعاله إلى عباده الضعفاء المهازيل ، وإنما يعني نصرة الإنسان نفسه في صالحه الحيوي بكافة مجالاتها ، الذي لا يصلح إلا بإرادة الله ودلالته ، فليس بإمكان الإنسان أياً كان أن ينصر نفسه إلا على ضوء شريعة الله

---

(١) القمي أبي الجارود عن أبي جعفر (ع) في الآية : يعني في الدنيا بفتح القائم (ع) ، وأيضاً فتح مكة .

الأمانة الكبرى الى الامم سليمة عزيزة ، ولكي تحكم العـــالم أجمع في جولته الأخيرة .

ولعمر الله إن نصرة المؤمنين بهذه الرسالة كانت عاليـة غاليـة ، إذ نصروا الرسول ﷺ وآله (عليهم السلام) في مختلف الأخطار الحاسمة [١] ، خلاف ما نبّئنا عن أنصار السيد المسيح ، إذ كانوا قـلة وهم لم ينصروه إلا قليلاً حتى رفعه الله !.

مرکز تحقیقات کامپیوتری علوم اسلامی

(١) اصول الكافي عن أبي عبدالله (ع) قال : إن حواري عيسى كانوا شيعته وإن شيعتنا حوارينا وما كان حواري عيسى بأطوع له من حوارينا لنا ، وإنما قال عيسى للحواريين من أنصاري الى الله قال الحواريون نحن أنصار الله ، فلا والله ما نصروه من اليهود ولا قاتلوهم دونه ، وشيعتنا والله لا يزالون منـذ قبض الله عز وجل رسوله ينصروننا ويقاتلون دوننا ويحرقون ويعذبون ويشردون من البلدان ، جزاهم الله عنا خيراً . وقد قال أمير المؤمنين (ع) : والله لو ضربت خيشوم محبينا بالسيف ما أبغضونا ، والله لو آويت مبغضيه أو حبوت لهم من المال ما أحبونا.

(الفرقان – ٢١)

تَفِرُّونَ مِنْهُ فَإِنَّهُ مُلَاقِيكُمْ ثُمَّ تُرَدُّونَ إِلَى عَالِمِ ٱلْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ — ٨ . يَا أَيُّهَا ٱلَّذِينَ آمَنُوا إِذَا نُودِيَ لِلصَّلَاةِ مِنْ يَوْمِ ٱلْجُمُعَةِ فَٱسْعَوْا إِلَىٰ ذِكْرِ اللهِ وَذَرُوا ٱلْبَيْعَ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ — ٩ . فَإِذَا قُضِيَتِ الصَّلَاةُ فَٱنْتَشِرُوا فِي ٱلْأَرْضِ وَٱبْتَغُوا مِنْ فَضْلِ اللهِ وَٱذْكُرُوا اللهَ كَثِيراً لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ — ١٠ . وَإِذَا رَأَوْا تِجَارَةً أَوْ لَهْواً ٱنْفَضُّوا إِلَيْهَا وَتَرَكُوكَ قَائِماً قُلْ مَا عِنْدَ اللهِ خَيْرٌ مِنَ اللَّهْوِ وَمِنَ التِّجَارَةِ وَاللهُ خَيْرُ الرَّازِقِينَ — ١١ .

مرکز تحقیقات کامپیوتری علوم اسلامی

سورة تسمى باسم أفضل أيام الله الذي يؤتى فيها بأفضل فريضة من فرائض الله ، المشرف بها المسلمون ، المفضلون بها عمن قبلهم كما يروى عن النبي ﷺ ، كما وأن سورة الحج تسمّت باسم هذه الفريضة العظمى التي تزامل صلاة الجمعة في فرضها وفضلها ، بل وهي أفضل منها فإنها مؤتمر سنوي عالمي تشكل مملكة الحج ، وهذه مؤتمر اسبوعي بلدي .

ثم لا نجد سورة اخرى تتسمّى باسم أية فريضة إسلامية سواهما ، مما يوحي بمدى أهمية هذين الفرضين الجماعيين اللذين هما كمفتاح لسائر الفرائض، يجمعان بين شتات القطاعات المسلمة التي تفصلها فصالات الأمكنة واللغـــات والطائفيات والقوميات .

فصلاة الجمعة سيدة الفرائض ، كما يوم الجمعة سيد الأيام وأعظم عند الله من

الميمون ، طالما تكسب الجمعة من صلاة الجمعة فضلاً عظيماً على فضائلها .

ان فريضة الجمعة مؤتمر اسبوعي يهيىء الجو للمؤتمر العالمي السنوي – الحج – تجمع من المسلمين لأدائها والاستماع إلى خطبتيها السياسيتين الإسلاميتين آلافاً من المسلمين المائشين في الدائرة التي تقام في مركزها الجمعة ، وقطرها على أقل تقدير (٢٢) كيلومتراً .

الآيات الاولى في هذه السورة هي تقدمات وتهيئات لآيات فرض الجمعة ، فإنه ذكر الله الجامع بجامعه ، الحافل بمحامده ، ولذلك نرى مطلع السورة كيف يقرر حقيقة التسبيح المستمرة من الكائنات كلها ، فإنها جمعة في تسبيح الله ، فلتكن الجمعة جمعة في ذكر الله وتسبيحه :

«يسبح لله ما في السماوات وما في الأرض الملك القدوس العزيز الحكيم» :

« يسبح » لمضارعتها توحي باستمرارية التسبيح لله من كائنات الأرض والسماوات ، والصفات الأربع هي كدعائم لهذا التسبيح الشامل :

فلأنه « الملِك » : يملك الكائنات مدبراً لها – يسبّح ، فما كل ملكٍ يسبح ، إنما « القدوس » الذي كله قداسة ونزاهة : ذاته وصفاته وأفعاله ، ولا كل ملك قدوس يسبح ، إنما « العزيز » الغالب على أمره ، فإن المغلوب على أمره قد يضطر لما لا يسبّح وينزه ، ولا كل ملك قدوس عزيز يسبح ، فقد لا يكون حكيماً في ملكه وقدسه وعزته ، وإنما « الملك القدوس العزيز الحكيم » : الذي هو حكيم في ملكه ، حكيم في قدسه ، حكيم في عزته ، فهو الذي تسبحه الكائنات وتنزهه ، ذاتاً وصفاتٍ وأفعالاً ، عن كل شين ورين ، تسبحه طوعاً أو كرهاً ، فإن الكائنات بما هي مخلوقة ، إنها بألسنة الذوات والصفات تسبح خالقها من كل نقص وتفاوت « ما ترى في خلق الرحمن من تفاوت » .

هذا الإله العظيم يبعث لخلقه رسولاً ، ترى كيف يكون هذا الرسول وهو البقية الباقية من رسالات الله واللامتناهية من رحمات الله :

كتاب ولا تخطه بيمينك إذاً لارتاب المبطلون » (٢٩ : ٤٨) .

ان الامية — وهي النسبة إلى الام — تعني الجهل واقعياً أو نسبياً ، واقعياً لمن يجهل كل شيء وحياً وسواه : أن ظل لا يعلم شيئاً كما ولد من أمه : « والله أخرجكم من بطون أمهاتكم لا تعلمون شيئاً » (١٦ : ٧٨) وهذه هي الامية المحضة .

ثم النسبية فهي درجات : ممن درس علوماً غير كتابية ، فإنه أمي بالنسبة للوحي الكتابي مهما كان مثقفاً في سواه ولأعلى درجات الثقافة ، فهو من الاميين وجاه الذين أوتوا الكتاب وإن لم يدرسوا ما درسه : « قل للذين أوتوا الكتاب والاميين » .

ومَن أوتي الكتاب ولا يفهمه إلا أماني : « ومنهم أميون لا يعلمون الكتاب إلا أماني » فهو أمي في علم الكتاب رغم أنه كتابي .

ومَن أوتي الكتاب وعَلِمه ، ولكن لم يؤمن بالوحي الأخير « ام الكتاب : القرآن الكريم » فإنه أمي بالنسبة لعلم القرآن مهما كان عبقرياً في سائر الوحي قبل القرآن ، وفي سائر العلوم سوى الوحي ، وهذه هي حالة المكلفين أجمع ومنهم الرسول الامي ، ومعه ملائكة الوحي وجبريل ، حالتهم قبل وحي القرآن : انهم كلهم أميون ، الموحدون منهم والمشركون .

فالرسول محمد ﷺ أمي كسائر الاميين بالنسبة للقرآن قبل وحيه ، إضافة إلى أنه لم يقرء على أي مقرء ولم يكتب عند أي كاتب قبل نزول القرآن ، وإن كان موحداً يُلهم بواسطة أفضل ملك من ملائكة الوحي ليله ونهاره يرشده سبيل المكارم ويعلمه أحسن اخلاق العالم .

انه امي مبعوث في الاميين وهم كافة المكلفين في الطول التاريخي والعرض الجغرافي ، في السماوات والأرضين : « لتنذر ام القرى ومن حولها » !

ولئن كان الاميون في آية الجمعة هم أهالي ام القرى ، فهو رسول فيهم ، لا إليهم خاصة ، وإنما « فيهم » وهو رسول العالم أجمع ، لأنه ولد فيهم ، وانهم

محمد وإثنى عشر إماماً من عترته كما في التوراة [١] .

وهـــل تتقدم التزكية على تعليم الكتاب والحكمة في الأهمية ، أو في واقع التربية ؟ اختلاف الترتيب بينهما في الآيتين يوحي بعدم التقدم وهو الحق ، فإنهما معـاً يتساوران متعاونين في التربية الإسلامية ، دون أن تكون لكلٍّ مدرسة علىحدة ، فالتزكية التي لا تحمل التعليم جاهـــلة دنسة ، والتعليم الذي لا يحمل التزكية جاهل دنس ، فرب عالم لا عقل له ، فالإسلام لا يريد علماً بـلا تزكٍّ ولا تقوى بلا علم ، فليس بإمكان المسلم أن يحلّق على المثل العليا إلا بجناحي العـــلم الحكيم والتقوى ، وكل منهما يساند الآخر ، كلما ازداد العلم والحكمة بآيات الله ازداد التزكي كالعكس تماماً .

ثم التلاوة لا تعني القراءة اللفظية فحسب ، فإنها من الرسول المعـــلم المزكي قول بليغ في الأنفس : (وقل لهم في أنفسهم قولاً بليغاً) (٤ : ٦٣) ولا يبلغ القولُ الأنفسَ إلا إذا خرج من حاق النفس ، مازجاً فطرة القائـــل وفكرته وعقله وأعماله ، وهذه هي التلاوة حقاً ، وكما هي لغوياً : المتابعة : (والشمس وضحاها ، والقمر إذا تلاها) تلاها : تبعها ، فالرسول يتلو القرآن اتباعاً له في كافة المجالات ، ويتلوه عليهم كما تلاه هو في نفسه ، إتّباعاً له ، وإتّباعاً لهم ، وهكذا تلاوة له عليهم تجعلهم علماء حلماء حكماء أزكياء ، إضافة إلى ما يعلّمهم ويزكيهم .

ثم تعليم الكتاب — القرآن — له درجات ، لفظياً وتعبيرياً وفي إشاراتـــه ولطائفه وحقائقه ، على حـــد قول الإمام علي عليه السلام : (كتاب الله على أربعة أشياء على العبارة والإشارة واللطائف والحقائق ، فالعبارة للعوام ، والإشارة للخواص ، واللطائف للأولياء ، والحقائق للأنبياء) فقرينة الإشارة التي هي بعد

---

(١) سفر التكوين الفصل ١٧ — الآية ٢٠ — تجده بالنص العبراني في تفسير دعاء ابراهيم في البقرة .

عليكم وما أنزل عليكم من الكتاب والحكمة) (٢ : ٢٣١) .

نرى الكتاب والحكمة مقرونين في عشرات من الآيات، مما تؤكد أن الكتاب المنفصل عن الحكمة فيه ، أو الحكمة في تفسير معانيه ، هذا الكتاب لا يكفي هدىً ، بل وقد ينقلب ضلالاً (وننزل من القرآن ما فيه شفاء ورحمة للمؤمنين ولا يزيد الظالمين إلا خساراً) (١٧ : ٨٢) والقرآن (حكمة بالغة) (٥٤ : ٥) لكل فصل فيه تباب ، وبعد الحكمة في تفهم الكتاب يأتي دور الحكمة في سواها مما يتوجب على المسلم في صالح الحياة ، علمية وعملية واخلاقية ، سياسية واقتصادية ، وكل ما تتطلبه الحياة الحكيمة السليمة كأفضل ما يمكن .

« ويزكيهم » : في الحق ليست التزكية إلا من الله : (بل الله يزكي من يشاء) (٤ : ٤٩) إلا أنه لا يزكي إلا من تزكى : (قد أفلح من زكاها) (٩١ : ٩) (خالدين فيها وذلك جزاء من تزكى) (٢٠ : ٧٦) .. ولكنما التزكية من الله والتزكي من المكلفين لا يكونان إلا بوسيط وهو رسول الوحي، إذ يتلو عليهم آيات الله ويعلمهم الكتاب والحكمة فيزكيهم : تزكية للضمير والشعور ، تزكية للعمل والسلوك من الأساطير الغامضة الحمقاء ، إلى اليقين الواضح ، ومن رجس الفوضى الاخلاقية إلى طهارة الإيمان السليم ، تزكية للفرد والجماعة المسلمة سواء :

« وإن كانوا من قبل لفي ضلال مبين » : فانه يخرجهم من الظلمات إلى النور باذن ربهم ، إلى صراط العزيز الحميد ، وهم من بعث فيهم واليهم الرسول ﷺ من الاميين ، لا ونفسه المقدسة ، فانه كان قبل القرآن مسترشداً بأعظم ملك من ملائكة الله ، منذ كان فطيماً ، إلى أن اهتدى بهدي القرآن .

فمهما كان ضلالهم مبيناً ، كان هداه ﷺ مبيناً لحد سمي بمحمد الأمين ، وإن كان ضالاً عن هدي القرآن قبل وحيه ، ولكنه لم يكن ضلالاً عن أصل الحق ، وإنما عن كمال الحق وتمامه ، والأنبياء كلهم – على هداهم – كانوا ضالين عن وحي الكتاب قبل قضاءه ، فضلالهم هذا أهدى من هدى مَن سواهم ، فان كلاً درجات .

ومن ثم فهـــذه الرسالة السامية الخالدة من نسل اسماعيل أورثت ضغينة وشكيمة في اسرائيل الذين كانوا ينتظرون النبي الموعود ، مؤولين بشاراته بنبيّ اسرائيلي ، ظانين ان فضل الله يختصهم ، لا يتخطاهم الى سواهم ، رغم ان الله تعالى أنذرهم في التوراة بزوال النبوة عن بيت اسرائيل ، واستقراره في محمد الاسماعيلي ، وقد كادوا له مكائد ، وتربصوا بـــه دوائر ومن مكائدهم : (ولا تؤمنوا إلا لمن تبع دينكم قل ان الهدى هدى الله أن يؤتى أحد مثل ما اوتيتم أو يحاجوكم عند ربكم قل ان الفضل بيد الله يؤتيه من يشاء والله واسع عليم . يختص برحمته من يشاء والله ذو الفضل العظيم) (٣ : ٧٤) :

« ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء والله ذو الفضل العظيم » :

« ذلك » الرحمة التامة البعيدة المحتد والمدى «فضل الله» : كل فضله الممكن ايتائه للخلق ، فلم يقل (من فضل الله) حتى يفيد التبعيض ، «يؤتيه من يشاء» وقد شاءه لمحمد وسائر الامين «والله ذو الفضل العظيم» على محمد ﷺ والمسلمين برسالته العالمية .

مركز تحقيقات كامپيوترى علوم اسلامى

انهم ظنوا متجاهلين ، خـــلود النبوة في اسرائيل ، وضنوا عن انتقالها الى اسماعيل ، كأنهم المقتسمون فضل الله ، المختصون بأفضله لأنفسهم ! وقد خاب أملهم كما خاب عملهم :

ففي التوراة (التكوين ٤٩ : ١٠) (لا تنهض عصى السلطنة من يهودا ولا الحكم من بين رجليه حتى يأتي شيلوه الذي يجتمع فيه كافة الامم) .

والأنبياء الاسرائيليون كلهم من نسل يهودا ، فليكن شيلوه غير اسرائيلي ، فان به تنهض عصى السلطنة من يهودا [1] .

---

(١) راجع كتابنا (رسول الإسلام في الكتب السماوية) ص ٢٣ – ٣٢ – ففيه تفاصيل الآيات الدالة على انتقال الشريعة من اسرائيل إلى غيره .

وعلماً وعملاً ونشراً « ثم لم يحملوها » : ضيّعوا هـــذه الأمانة وخانوها إذ لم يحفظوها ، حيث حرفوها ولا سيما بشاراتها بحق النبي الإسماعيلي ، ولم يتعلموها ، أو تجاهلوا عما علموا منها ، ولم يعملوا بها ولا نشروها سليمة ، وهـذا تكذيب شامل بآيات الله وظلم فاحش بحقها .

فمثل هؤلاء الخونة الظالمين كمثل الحمـار يحمل أسفاراً : كتباً سافرة ظاهرة مسفرة عن الحقائق دون ستار ، كما أن كتب السماء كذلك كلها ، ولكنه حمـار سافر لا يفهم ماذا يحمل مهما كان سافراً ظاهراً ، فلا يدرك من حَمل الأسفار إلا حِملاً ، وأما هم فكان بإمكانهم تفهُّم مـا حُمّلوه ، وحمْله كما أُمروا ، فهم أضلُّ سبيلاً من الحمار ، ضلالاً عامداً عن تقصير ، مهما كان ضلال الحمـــار عفوياً عن قصور ، فالإنسان الحمار يحمل حِمل الأسفار على ظهره كزميله الحمار ، والإنسان الإنسان يحملها في قلبه وقالبه وعمل الواقع ، فأين حِمل من حِمل ، وأين حمار من حمار ؟! ومن ميزات هذا الحمار عن زميله أنه ذلول سلس القياد ، لين الانقياد ، يوصل حِمله إلى ذويه ، والحمر الذين حُمّلوا التوراة ثم لم يحملوهـــا ، حرّفوها وخانوها شرسين شَمِسين ، وغيّروها كما اشتهوا ، وشروا بها ثمناً قليلاً .

« بئس مثل القوم الذين كذبوا بآيات الله والله لا يهدي القوم الظالمين » أيّ قوم كانوا ، هوداً أو نصارى أو مسلمين ، وكلما كانت الآيات المحمّلة أعظم وأرقى ، فتاركوا حملها أظلم وأطغى ، إذاً — فمثل الذين حُمّلوا القرآن ثم لم يحملوه كمثل الحمار وأضلّ منه مضاعفات بمئات المئات ، مدى أفضلية القرآن من التوراة ، فليس مجرد الانتساب بكتاب وشريعة بالذي يفضل منتسبيه على غيرهم ، اللهم إلا بحمله كما حُمّلوا .

ومن ضلالات اليهود أنهم — على تكذيبهم بآيات الله وقتلهم الأنبياء بغير حق وبغيهم وظلمهم كثيراً — كانوا ولا يزالون يزعمونهم « أولياء لله من دون الناس » : شعب الله المختار :

كمبدء ، وكبداية للحياة ، إن كنتم صادقين في ولايتكم ، فإن الموت سبب للقاء مولاكم !.

« ولا يتمنونه أبداً بما قدمت أيديهم والله عليم بالظالمين » :

لا يتمنون الموت أبداً ، خوفاً مما فرط منهم من الطالحات، وما انفرط عنهم من الصالحات ، وتنسب الأفعال إلى الأيدي لغلبة الأيدي عليها ، وإن كان فيها ما يعمل بالقلب واللسان ، وسواهما من جوارح الإنسان .

وهذه الأبدية المنفية عنهم هي من ملاحم الغيب القرآنية ، فمن ناحية تثبت صدق القرآن ، ومن ناحية اخرى كذب الذين هـادوا في زعمهم المدعى ، فلا وحسب أنهم لا يتمنون الموت ، بل ومن أمنياتهم البعيدة خـلود الحياة لكي يزحزحهم عن العذاب : « قل إن كانت لكم الدار الآخرة عند الله خالصة من دون الناس فتمنوا الموت إن كنتم صادقين . ولن يتمنوه أبداً بما قدمت أيديهم والله عليم بالظالمين . ولتجدنهم أحرص الناس على حياة ومن الذين أشركوا يودُّ أحدهم لو يعمّر ألف سنة وما هو بمزحزحه من العذاب أن يعمّر والله بصير بما يعملون » (٢ : ٩٦) ، فهم أحرص الناس على حياة بئيسة تعيسة وأحرص من المشركين ، فإنهم ناكروا الحياة الحساب ، واليهود يقرُّون بهـا ، فخوفهم من الموت أكثر من المشركين ، فحرصهم على حيـاة أشد من المشركين ! أية حياة كانت كما يوحي بها تنكير الحياة « حياة » .

وطالما هم يفرُّون من الموت إلى الحيـاة ، ولكن الموت لاقيهم لا محالة : فـ (كل امرىء لاقٍ في فراره ما منه يفرّ ، والأجل مساق النفس إليه، والهرب منه موافاته) [1] :

---

(١) القمي في تفسيره عن أمير المؤمنين (ع) .

الطفل بثدي أمه) فهو يأنس الموت أنسه بألذ الحياة فإن فيه لقاء الله ، ولكنما الفاسق لا يتمنى هكذا موت ، لأنه له لقاء عذاب الله !.

وكلا : في الموت الذي يأتيه باختياره إياه فالمؤمن لا يتمناه — اللهم إلا في الدفاع والجهاد في سبيل الله — إذ يأمل أن يسعى ويعمل من الصالحات أكثر مما مضى ، حتى تزيده درجات ، فيلاقي ربه عند موته بنفس مطمئنة راضية مرضية ، داخلة في عباد الله وفي جنة الله . والفاسق لا يتمناه خوفاً من استعجال عذاب الله ، أو رجاء أن يعمل صالحاً فيما ترك ، ويترك ويجبر طالحاً فيما فعل ، للفساق الذين يرجى رجوعهم إلى الله .

وأما الذين هادوا فلن يتمنوه أبداً ، لا هذا ولا ذاك ، وإنما يفرّون منه ، معلقه ومحتومه ، فراراً بما قدمت أيديهم « والله عليم بالظالمين » .

« يا أيها الذين آمنوا إذا نودي للصلاة من يوم الجمعة فاسعوا إلى ذكر الله وذروا البيع ذلكم خير لكم إن كنتم تعلمون » :

الآيات المسبقة بعمومها في تسبيح الله ، وشمول الرسالة المحمدية ، والتنديد بمن حُمّل الشريعة ثم لم يحملها ، إنها تقدمات وتنبيهات لفريضة الجمعة ، أنها جامعة شاملة للمكلفين أجمع مَن تواجد زمن الوحي ، وآخرين منهم لما يلحقوا بهم ، إلا المعذورين — الى يوم الدين .

تبدء الآية بخطاب شامل للذين آمنوا بهذه الرسالة — أجمع — اللهم إلا من لم يؤمن ، فكيف يخاطب بما هو من فروع وملازمات الإيمان ؟!.

وفي هذه البداية تنبيهات ثلاث : « يا » « أيّ » « ها » ولينتبه المؤمنون في مثلث التنبيه مدى أهمية هذه الفريضة الإلهية .

و « الذين آمنوا » هم المؤمنون كافة ، وجاه الكافرين كافة ، المؤمنون في كل عصر ومصر ، طول العالم وعرضه ، من الجنة والناس أجمعين ، ومن معهم من

« إذا نودي للصلاة من يوم الجمعة »: فما هي الصلاة من يوم الجمعة والنداء لها ؟ هل إنها صلاة غير فريضة الظهر أو الجمعة ؟ ولا نعرف إسلامياً صلاة أخرى غيرهما يوم الجمعة ، فهي إذاً بينهما ، فهل هي الظهر ؟ ولا يختص فرضها بيوم الجمعة ، ولا يجب الاجتماع فيها بنداء أو غير نداء ! إذاً فهي صلاة الجمعة ، كل ذلك إضافة إلى الإجماع والضرورة أن آية الجمعة نزلت بشأن صلاة الجمعة ، وكما يؤيده متواتر السنة من طريق الفريقين عن النبي ﷺ وعن آله الكرام عليهم السلام.

وأما النداء لها – فهل هي القول : (الصلاة) ؟ وليست إلا لصلاة الأموات والعيدين ! أو (إلى صلاة الجمعة) ؟ ولا نعرف إسلامياً نداءً كهذه لصلاة الجمعة ، ولم تسبق من أئمة الجمعات هكذا نداء !.

أو أنها إقامتها كما عن بعض المتفقهين المشترطين في وجوب الحضور لها إقامتها بشروطها ؟ ثم يأتي دور البحث عن المقيم لها ، هل هو المعصوم ؟ أم والمأذون من قبله خاصاً ؟ أم العدول القادرون على إلقاء الخطبتين ؟ وكل هذه الترديدات في: المقيم لها ، نابعة من مجهولية الفاعل «إذا نودي» فعلّه المعصومون لا سواهم ، أو علّهم والمأذونون أم ماذا ؟.

وهذه الاحتمالات المسلسلة غريبة في نوعها من الحلقة الاولى : « إذا نودي » أي : إذا أقيمت ! وليست إقامتها نداءً لها ، وإنما هي تطبيق لفرضها ، والنداء لشيء غير المنادى له بالضرورة ، فهل تقام الجمعة نداءً لنفسها ، تحصيلاً للحاصل ! إضافة إلى أن شرط إقامتها لوجوب حضورها خلاف الضرورة : فإن الجمعة كانت منذ بزوغها واجبة دون هذا الشرط ، قبل نزول الآية وبعدها ، فكيف

= أقول : لو كان حضور المعصوم أو إذنه من شروط الجمعة لكان يذكر هناء والحديث في مقام بيان كافة الشروط ، ويؤكده ذكر الصغير والمجنون غير المكلفين ، فالذي لا يحضر الجمعة لا يخلو حاله عن الصغر أو الكبر أو الجنون أو السفر أو أنه مملوك لغيره أو امرأة أو مريض أو أعمى أو هو على رأس فرسخين ، ثم لا يوجد استثناء بعدها عن فرض الجمعة إطلاقاً .

لصلاة الجمعة» ولكي لا تختص النداء بها ، نيةً أو هيئةً خاصة للنداء، وإنما نداء للصلاة ، الكائنـــة يوم الجمعة : أذاناً للإيذان بدخول وقتها ، وقد اتفق عليه الجمهور [١] وإلا الشاذ منا .

فلا يعقل أن يفرض الله تعـالى فريضة هامة كهذه ، شرط خيرة المكلفين ، فإن أذّنوا وجبت وإلا فلا ! فضلاً عن نيـة الجمعة في الأذان ، فكيف يعرفها السامعون ؟!.

ثم المؤمنون المخاطبون بالسعي هم الأئمة والمأمومون أجمع، فـ « إذا نودي »: أذّن : دخل الوقت ، فليسعَ الأئمة لإقامة الجمعة ، وليسعَ الباقون لحضورها ؟ فعلى الأئمة جمع المأمومين ورعايتهم في أداء فرض الجمعة ، كما عن النبي ﷺ : (كلكم راعٍ وكلكم مسئول عن رعيّته ، الإمـــام راعٍ ومسئول عن رعيّته ...) [٢] .

فليس وجوب الجمعة مشروطاً بأيٍّ من شروط : إقامتها ، أو نداء خاص لها ، ولا الأذان ولا الاجتماع ، وإنمـــا بدخول وقتها ، فيجب السعي إليها على المؤمنين أجمع – أئمة ومأمومين – إلا المعذورين كما يأتي .

فهنـا نداءان لفريضة الجمعة ، إلهيٌ هو نداء الله ، وبشريٌ هو الأذان

---

(١) فتح الباري ٣:٣٦ – وقال عطاء: إذا كنت في قرية جامعة فنودي للصلاة من يوم الجمعة فحق عليك أن تشهدها ، سمعت النداء أو لم تسمعه ، وقال : وبهذا صرح أحمد ونقل النووي انه لا خلاف فيه .

(٢) فتح البـــاري في شرح صحيح البخاري ٣ : ٣١ – عن عبدالله بن عمر قال : سمعت رسول الله (ص) يقول : (كلكم راع وكلكم مسئول عن رعيته ، الامـام راع ومسئول عن رعيته ، والرجل راع في أهله وهو مسئول عن رعيته ، والمرأة راعية في بيت زوجها ومسئولة عن رعيتها ، والخادم راع في مال سيده ومسئول عن رعيته ، والرجل راع في مال أبيه وهو مسئول عن رعيته ، وكلكم راع ومسئول عن رعيته) .

المستفيضة (١) .

إذاً فالنداء : الأذان – الكائن ظهر الجمعة، هي نداء لصلاة الجمعة على أية حال ، نويت أم لا ، نودي لها بغير الأذان أم لا ، إلا أن السعي إلى ذكر الله فيها ، والاجتماع فيه ، ليس إلا عند اجتماع الشرائط : عدداً ومسافة ، وعدالة للإمام ، وقدرة على إلقاء الخطبة ، ثم ما دونها هراءٌ مختلق كاشتراط حضور المعصوم أو إذنه الخاص ، فلا أثر له إسلامياً عندنا .

وعند فقد الشرائط أو بعضها فأربع ركعات ، بنيّة الجمعة أيضاً كما سبق .

« فاسعوا إلى ذكر الله » : فما هو السعي هنا ؟ وما هو ذكر الله ؟.

السعي هو عدْوٌ دون شدّ ، وعمل مقصود مهتم به ، وهو العمل الذي يؤتى به على همامة وعناية ، سواء أكان في إصلاح : « فمن يعمل من الصالحات وهو مؤمن فلا كفران لسعيه » (٢١ : ٩٤) أو كان في خراب : « وسعى في خرابها» (٢ : ١١٤) أي : المساجد .

فالسعي إلى الجمعة – خطبة وصلاة ، إقامة وحضوراً – هو القصد والعناية الخاصة لها ، دون أن يشغل الإنسانَ عنها أيّ شاغل دنيوي أو اخروي ، أن يعدّ لها عدتها ، فيستعد ، دون إهمال ولا إمهال ، فتكون هي بين أشغاله كلها أصلاً يُقصد ، فيسعى في إزالة الموانع عنها ، وفي كمال الإستعداد لها ، فلا يسافر يومها (٢) ، ولا يتعب نفسه بما يضعفها عنها ، بشرب دواء أو

(١) منها موثقة سماعة قال : سألت أبا عبدالله (ع) عن الصلاة يوم الجمعة ، فقال : أما مع الامام فركعتان ، رأما من يصلي وحده فهي أربع ركعات بمنزلة الظهر (وسائل الشيعة ج ٣ ص ١٣ – ١٤) راجع كتابنا (على شاطىء الجمعة) .

(٢) ففي المغني ج ٢ ص ٣٦٢ عن النبي (ص) : من سافر من دار إقامته يوم الجمعة دعت عليه الملائكة لا يصحب في سفره ولا يعان على حاجته ، وفي وسائل الشيعة ج ١٨ ص ٧٣١ والمستدرك ب ٤٤ من صلاة يوم الجمعة مثله .

=

فعلى الأئمة والمأمومين التواصي بحق صلاة الجمعة ، فلو تكاسل الإمام عنها ، وجب على المأمومين السعي في دفعه إليها،ولو تكاسل واجب العدد من المأمومين أو الزائد عليه ، فعلى الإمام السعي في دفعهم إليها ، تعاوناً في هذا البر العظيم والتقوى الهامة من المؤمنين أجمع .

ومـــا يزعم دلالته على اشتراط حضور المعصوم بين ضعيف مخالف للكتاب والسنة المتواترة ، التي انهيت إلى مائتي حديث[١] وبين ما لا يدلُّ عليه أبداً [٢] ويعترف الفقهـــاء غير القائلين بالوجوب التعييني بقطعية دلالة الكتاب والسنة عليه ، وإنما ذهبوا إلى التخيير جمعاً بينها وبين الإجماعات المنقولة ، وهذا غريب من نوعه ، فإنه خروج عن الكتاب والسنة وعن الإجماعات المزعومة [٣] .

« إلى ذكر الله »: وهل إنه ركنيّة الجمعة فحسب ؟ لأن الصلاة أفضل الذكر ،

---

(١) المولى محمد تقي المجلسي والد صاحب البحار في رسالة الجمعة : « فصار مجموع الأخبار الدالة على الوجوب مـــائتي حديث ، والذي يدل على الوجوب بصريحه من الصحاح والحسان والموثقات وغيرها أربعون حديثاً ، والذي يدل على المشروعية في الجملة تسعون حديثاً، والذي يدل بعمومه على وجوب الجمعة وفضلها عشرون حديثاً ، والذي يدل على عدم اشتراط الاذن بظاهره ستة عشر حديثاً .

(٢) منها ما يروى عنهم (ع) : (لنا الخمس ولنا الأنفال ولنا الجمعة ولنا صفو المال) وقد جمع فيها ضعف السند والدلالة ، فلو أن (لنا) تختص الجمعة بهم ، فالخمس إذاً خاص بهم أيضاً ، فهل يلتزم به هؤلاء الناكرون لوجوب الجمعة زمن الغيبة ؟.

ثم وما يذكر فيه الامام يعنى به إمام الجمعة لا الامام المعصوم ، ففي صحيحة زرارة (قال قلت لأبي جعفر (ع) : على من تجب الجمعة ؟ قال : تجب على سبعة نفر من المسلمين ، ولا جمعة لأقل من خمسة أحدهم الامام ، فإذا اجتمع سبعة ولم يخـــافوا أمهم بعضهم وخطبهم) (الوسائل ج ٣ ص ٨ ح ٤) ، فقـــد اهمل البعض الذي يؤمهم هنا تدليلاً على عدم اشتراط العصمة ، وكما في صحيحة فضل بن عبد الملك قال : سمعت أبا عبدالله (ع) يقول : (إذا كان قوم في قرية صلوا الجمعة أربع ركعات فإن كان من يخطب لهم جمعوا إذا كانوا خمس نفرات) (المصدر ص ٨ ح ٦) .

(٣) كما في الجواهر أن أحداً لا يشك في دلالة الكتاب والسنة القطعية على وجوب الجمعة، وإنما الذي يحملنا على القول بالتخيير وجود الاجماعات المنقولة على حرمتها زمن الغيبة ، والجمع بينها يقضي بالتخيير بينها وبين الظهر . =

« وذروا البيع » : وهل البيع هنا يعني المعاملة الخاصة ، فهي المحرمة وقت النداء والصلاة لا سواها ؟ فلو اشترى ، أو آجر واستأجر ، أو رهن وارتهن لم يفعل محظوراً ؟! ونحن نعلم بيقين ان النهي عن البيع هنا ليس إلا لمنافاته فريضة الجمعة ، وهذا يعم كلّ مناف فعلاً أو تركاً ، بيعاً أم سواه .

أو أن البيع رمز إلى كل ما يشغل عن الفريضة ، وإنما ذكر كأهم ما يُرام من الأشغال الدنيوية، ففيرها أحرى بالمنع، وإن كانت من الامور الاخروية وأحرى، إذ لا دافع لها إذ تُمانع فرضاً أهم منها ، أللهم إذا كانت أهم منها كحفظ النفس والناموس والدين ، فالمؤمن المأمور مؤكداً بصلاة الجمعة ، المنهي عن أهم مهامه الدنيوية ، أحرى له دينياً ألا ينشغل عنها بسائر الامور حتى الاخروية التي هي أدنى منها إن كانت مضيقة ، أم تساويها أو هي أهم منها إن كانت موسعة ، فالوقت خاص بالجمعة لا تعدوها إلى سواها .

فهنا دلالتان على حرمة ما سوى الجمعة : الأمر بالسعي إليها ، والنهي عما يمانعها ، فلا تجوز — إذاً — صلاة الظهر والجمعة مقامةٌ ، أو يمكن إقامتها على شروطها ، ولا سائر الفرائض ، ولا تركها إلى بدل أو لا إلى بدل ، فالذي يصلي الظهر مقارنة الجمعة ، وهو على بُعدٍ منها أقل من فرسخين ، وهو على علم من إقامتها ، وهو لا يرى الإمام فاسقاً بسند مقبول شرعاً ، كانت صلاته باطلة ، أللهم إلا المعذورين .

« ذلكم خير لكم إن كنتم تعلمون » : وهل يعني الخير هنا الأفضل ، أن صلاة الجمعة خير من تركها ، أو خير من اللهو ومن التجارة ؟ ولا فضل في اللهو حتى تكون الجمعة أفضل منها ! وليس « خير » افعل التفضيل دائماً : « ولعبد مؤمن خير من مشرك ولو أعجبكم » (٢ : ٢٢) فلا خير في مشرك ، إلا الشر و «قول معروف خير من صدقة يتبعها أذىً » (٢ : ٢٦٣) ولا خير في هكذا صدقة ، هذا ، رغم وجود « من » هنا فيها ، الدالة بطبعها على أفضلية ما قبلها ، فضلاً عن خير الجمعة هنا ، الخالي عن « من » التفضيل ، ثم و « من » في : « ما عند

التجارة وهي من العبادات لولا الجمعة ، فكيف باللهو وهو من المحرّمات ، ولولا الجمعة « قل ما عند الله » : الذي تخالفه فريضة الجمعة « خير من اللهو » الذي لا خير فيه وكله شرٌ ، « ومن التجارة» وإن كان فيها خير «والله خير الرازقين» وليس هو اللهو ، وليست هي التجارة .

هناك تتقدم التجارة لتقدُّمها على اللهو فيما يبتغيه الإنسان لصالح حياته ، وهنا تتأخر ، لكي تثبت أن ما عند الله خير ، وحتى من التجارة ، لا من اللهو فقط .

وهذا هو التوازن الذي يتسم به المنهج الإسلامي ، ويمتاز عن سائر المناهج ، توازناً بين متطلبات الحياة الأرضية ، الجسدانية ، وما يتوجب من الحياة الروحية السماوية ، متداخلين مع بعض ، ومتآزرين مع بعض ، أو متلاحقين ، فذكر الله واجب أثناء ابتغاء المعاش ، ثم هناك ذكر آخر متحلل متجرد عن المعاش : صلاة الجمعة وسائر الصلوات .

إن أحاديث الحث على الجمعة تجعلها قمة في الفرائض وكما استوحيناها من آيات الجمعة ، ولحدّ فُرضت قراءة سورة الجمعة في الركعة الاولى ، حثاً على فرضها ، وسورة المنافقين في الثانية تنديداً بتاركها : ان عليه وصمة وطبعة النفاق[1] ، وكما عن باقر العلوم عليه السلام : (من ترك الجمعة ثلاث جمع متوالية طبع

---

(١) مستدرك الوسائل ج ١ ص ٤٠٧ عن الشيخ الفقيه أبي محمد جعفر بن أحمد بن علي القمي في كتاب العروس عن زرارة عن أبي عبدالله (ع) ، وفي الكافي والتهذيب عن أبي جعفر (ع) قال : (إن الله أكرم المؤمنين بالجمعة فسنها رسول الله (ص) بشارة لهم وتوبيخاً للمنافقين ، ولا ينبغي تركها متعمداً ، فمن تركها متعمداً فلا صلاة له) .

وفي الدر المنثور ٦ : ٢٢٢ — أخرج سعيد بن منصور والطبراني في الأوسط بسند حسن عن أبي هريرة قال : كان رسول الله (ص) يقرأ في صلاة الجمعة سورة الجمعة فيحرض بها المؤمنين ، وفي الثانية سورة المنافقين فيقرع بها المنافقين . وهنا أحاديث عدة تدل على وجوبها في صلاة الجمعة ، كما في الكافي قال أبو عبدالله (ع) : من صلى الجمعة بغير الجمعة والمنافقين أعاد الصلاة في سفر أو حضر ، وعنه (ع) : من لم يقرأ في الجمعة الجمعة والمنافقين فلا جمعة له .

أركان الدولة الإسلامية ، وتوجّهان الامة إلى ما يتوجب عليهم كسادة العباد ، وقادة البلاد ، وأمناء الرحمان وأركان الرشاد والسداد .

فإمام الجمعة يمتـاز عن سائر الأئمة بميزات معرفية وعقائدية وأخلاقية ، ومن حيث بلاغة الكلام وفصاحته ، وأن يكون شجاعاً صارماً صامداً قوياً في دين الله، لا تأخذه في الله لومة لائم، وخبيراً عارفاً مطّلعاً متضلعاً فيما جرى ويجري للمسلمين وعليهم .

ذلك الإمام الخطيب دون الموظفين وعتاظ السلاطين ، الذين يستغلون هـذه الفريضة الإلهية لتوطيد أركان عروش الظالمين المستبدّين، المسيطرين على الشعوب بالسيف والنار .

ودون الخطباء الضعفاء الذين يحسبون الجمعة اجتماعاً للبكاء والدعاء، رغم أنها للبكاء على حالة المسلمين المتخلفة ، ولإبكاء من يتدخل في شئونهم مستعمراً لهم ومستحمراً إياهم .

فلبس البرد وشبه الأكفان لخطيب الجمعة رمزٌ للاستماتة في سبيل الله ودحر الشياطين، كما الإتكاء على سيف أو قوس، أو سلاح اليوم ، رمز لإماتة الأعداء، كما ويجب على كل مسلم أن يعيش مميتاً مستميتاً ، ولكي تكون كلمة الله هي العليا وكلمة الذين كفروا السفلى [1] .

---

(١) راجع كتابنا (على شاطىء الجمعة) .

رَسُولِ اللهِ حَتَّىٰ يَنْفَضُّوا وَلِلَّهِ خَزَائِنُ السَّمٰوَاتِ وَالْأَرْضِ
وَلٰكِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَا يَفْقَهُونَ ـــ ٧ . يَقُولُونَ لَئِنْ رَجَعْنَا إِلَى
الْمَدِينَةِ لَيُخْرِجَنَّ الْأَعَزُّ مِنْهَا الْأَذَلَّ وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ
وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَلٰكِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَا يَعْلَمُونَ ـــ ٨ . يَا أَيُّهَا الَّذِينَ
آمَنُوا لَا تُلْهِكُمْ أَمْوَالُكُمْ وَلَا أَوْلَادُكُمْ عَنْ ذِكْرِ اللهِ وَمَنْ
يَفْعَلْ ذٰلِكَ فَأُولٰئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ ـــ ٩ . وَأَنْفِقُوا مِمَّا
رَزَقْنَاكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ فَيَقُولَ رَبِّ لَوْلَا
أَخَّرْتَنِي إِلَىٰ أَجَلٍ قَرِيبٍ فَأَصَّدَّقَ وَأَكُنْ مِنَ الصَّالِحِينَ ـــ ١٠ .
وَلَنْ يُؤَخِّرَ اللهُ نَفْساً إِذَا جَاءَ أَجَلُهَا وَاللهُ خَبِيرٌ بِمَا
تَعْمَلُونَ ـــ ١١ .

مرکز تحقیقات کامپیوتری علوم اسلامی

سورة تحمل إسم المنافقين ثم وصماتهم وسماتهم ، كما أن سورة اخرى تحمل إسم المؤمنين ، ثم لا تحمل ثالثة إسم المسلمين ، ولأنهم بين مؤمنين – بمختلف درجاتهم – ومنافقين – بشتات دركاتهم – فالمسلم إما منافق : ينافق ويناقض باطنُه ظاهرَه ، أو مؤمن يوافق باطنُه ظاهرَه ، هذا يعيش وفاقاً وذاك نفاقاً ، فأين منافق من موافق ؟.

فالمنافقون يندد بهم في مئات الآيات القرآنية بمعاصيهم وأخطارهم ومكائدهم ومآسيهم ضد الإسلام والمسلمين ، منها سبعة وثلاثون آية ، مصرّحة بنفاقهم ،

« **إذا جاءك المنافقون قالوا نشهد إنك لرسول الله** » : شهادة السر والعلن وهي أثبت لهم من العلم (نعلم انك لرسول الله) فإن المنافق يعلم الرسالة وينكرها وقولة الشهادة منهم تعني اننا لسنا بمنافقين : أن نعلم الحق ثم نخالفه ، ومما يشهد لميزة الشهادة هذه اتخاذ أيمانهم جُنة ، إذ كانوا يُرمون بالنفاق .

« **والله يعلم انك لرسوله** » : فإنه الذي بعثك برسالته فعلمه بهـــا كاف لك كرسول ، وإن كان الله يشهد لمن أرسل إليهم بهذه الرسالة السامية ، بمختلف الشهادات القاطعة ، فما لك وشهادتهم الزور والغرور .

« **والله يشهد ان المنافقين لكاذبون** » : يخفون ما لا يبدون ، ويبدون ما لا يخفون ، فعلمه تعالى في نفسه بكذبهم لا يكفي تكذيباً لهم ، وإنما يشهد ، وكما في آيات تفضحهم ، فهم حذرون دائماً أن تنزل آية أو سورة تنبئهم بما في قلوبهم ، وهذه هي الحكمة الموسّطة للعلم بين الشهادتين : « يحذر المنافقون أن تنزل عليهم سورة تنبئهم بما في قلوبهم .. » (٩ : ٦٤) ولعلها هذه السورة « المنافقون » .

فالقول الكذب هو المخالف المنافق ، إمـــا للواقع ، أو للعقيدة ، أولهما ، ثالوث الكذب والنفاق وجناه الصدق والوفاق ، فمن صدقٍ مطلق وهو الموافق لهما ، ومن كذب مطلق يخالفهما ، ومن صدق من جهـــة وكذب من اخرى ، فالمقالة الموافقة للواقع ، المنافقة للعقيدة ، وإن كانت صدقاً وجاه الواقع ، ولكنها كذب لمنافقة العقيدة ، وهي من أخطر الكذب : كذب المنافقين ، والمقـــالة المنافقة للواقع ، الموافقة للعقيدة ، إنها دونها في الخطر ، سواء من الكافر الذي يشهد بعقيدته الكافرة ، أو المؤمن الخاطىء الذي يشهد بما يؤمن بـــه ولكنه خلاف الواقع ، وإن كان بين الكذبين بون ، كذبٌ كافر عامد ، وكذب مؤمن غير عامد ، فأحرى أن يسمى هذا جهلاً لا كذباً .

فالقولة غير الموافقة لواقعي العقيدة والحقيقة معاً ، إنها قولة منافقة كاذبـة تماماً ، والموافقة لهما صادقة تمامـــاً ، ثم بينهما متوسطات ، وإن كانت المنافقة للعقيدة ، الموافقة للواقع أخطرها مسّاً من كرامة الحقيقة .

أنفسهم ، وجهّالاً بُلهاً لا يعرفون ، والله يعرّفهم كيانهم ليُفضحوا على رؤوس الأشهاد ، ولكي يستوي المؤمنون النابهون والبله في التعرف إلى كذب هؤلاء المناكيد ، ولذلك نراهم حذرين عن الآيات والسور التي تفضحهم : « يحذر المنافقون أن تنزل عليهم سورة تنبئهم بما في قلوبهم قل استهزءوا إن الله مُخرج ما تحذرون » (٩ : ٦٤) .

وقد أخرج الله ما كانوا يحذرون بهذه السورة ، حاملة الثورة الماحقة كيانهم الساحقة معنوياتهم ، الفاضحة مكائدهم : « والله يشهد ان المنافقين لكاذبون .. انهم ساء ما كانوا يعملون » :

« ذلك بأنهم آمنوا ثم كفروا فطبع على قلوبهم فهم لا يفقهون » :

« ذلك » الكذب البعيد البعيد في شهادتهم ، وذلك السوء البعيد في عملهم « بأنهم آمنوا » إذ أظهروه ، أن عقد به قلوب البعض منهم ، وأن طبّقه عملياً كذلك البعض منهم ، « ثم كفروا » ارتجعوا عما تقدموا فيه من الإيمان ، أياً كان ، وهذا الكفر العامد المعاند بعد الإيمان طبع على قلوبهم المقلوبة ، طبع الله عليها بكفرهم ، « فهم لا يفقهون » بعد الطبع ، وقد كانوا يفقهون قبله ، وإنما زال عنهم فقه الحق وإدراكه فالتعلق به ، بما اختاروه من الكفر بعد الإيمان ، فجازاهم الله بذلك الطبع المظلم في قلوبهم ، امتناعٌ للفقه بالإختيار ، دون تسيير وإجبار : أجل : « فطبع على قلوبهم فهم لا يفقهون » « .. فهم لا يعلمون » (٩ : ٩٣) « .. فهم لا يسمعون » (٧ : ١٠٠) فكما القلب إمام لسائر المدارك والحواس والأعضاء ، كذلك طبعه طبعٌ عليها جمعاء فـ « لهم قلوب لا يفقهون بها ولهم أعين لا يبصرون بها ولهم آذان لا يسمعون بها اولئك كالأنعام بل هم أضل .

ان الكفر بعد الإسلام هو الخروج عن الشهادة باللسان بانكاره كذلك باللسان « وكفروا بعد إسلامهم » (٩ : ٧٧) وهو بعد الإيمان خروج عنه ، إما

وفعلهم يطمع فيكم زملائهم الأعداء ، ولكنما الظاهرتان هاتان ليس ورائهما إلا كل خواء وبلاء، كالخشب المسندة : فهم أشباح بلا أرواح، وتجار بلا أرباح، ونساك بلا صلاح ، قوالبهم قوالب الآدميين ، وقلوبهم قلوب الشياطين .

فكما الخُشب المسنّدة – وهي الخشب النخرة المتآكلة البالية الجوفاء ، كثيرة السناد [1] إلى غيرها لتقوم كالأخشاب السليمة أو كالأشجار – كما انها يحسبها الجاهل أشجاراً كأنها مثمرة ، رغم موتها وجمودها عن الروح النباتية ، وحتى عن الفوائد الجمادية أيضاً، فالخشب السليم ينتفع به في سقف أو جدار، ولكن الخَشب المسنّد لا نفع فيه أللهم إلا حرقه، أو يسند إلى أسناد ليخيّل إلى الجهال أنه خشب أو شجر، كذلك هؤلاء المعجَب بأجسامهم ، المسموعة أقوالهم ، يُحسبون أوتاداً وأوتاراً للحركة الحيوية الإنسانية ، وإذا بقلوبهم نتنة ميتة ، لا تحكم فيها أرواح الحياة وحتى النباتية ، فإنها تنمو لصالح الحياة ، وهم ليسوا إلا عراقيل دون الوصول إلى الحياة !

فهم أجسام تُعجِب ، لا أناسي تتجاوب ، هم خشب مسنّدة ملطوعة بسواها من جدار وسواه ، لا حراك لها ، وإنما حياتهم التجسس عن كل حركة ، والتوجّس من كل صوت عال « يحسبون كل صيحة عليهم » لما ترقبهم من فضيحة بأعمالهم ، وما يفضحهم الله به ، كالقصبة المرتجفة في مهب الريح ، التي تجعل كل ريح عابرة صوتاً في قلبها ، كذلك هؤلاء الخشب المسندة الجوفاء ، يحسبون كل صيحة ضدهم .

وإذا أردت أن تعرف العداء كل العداء فـ « هم العدو » : العدو الاكثر خطورة ، الكامن داخل المعسكر الإسلامي ، ومجتمعه السامي ، وهو أخطر من العدو الصريح الخارج ، فكأنما العداء محصور فيهم [2]، ثم هم على كثرتهم كأنهم

---

(١) كثرة السناد مستفادة من « مسندة » فإن التسنيد تكثير الاسناد بكثرة المحال .

(٢) الحصر مستفاد من تقديم « هم » على « العدو » ولكان « الـ » الاستغراق .

رغم إتخاذهم أيمانهم جُنة عما يُعرف عنهم من الكفر والإدبار ، وكان لزام تلك الايمان تقبل الإستغفار وان في نفاق ، ولكي يستحكموا وثائق مكرهم وأوتاد نفاقهم ، ولكنهم قوم لا يفقهون ، وبما ان قبول الإستغفار هداية إلهية ، والله لا يهدي الفاسقين المصرين على فسقهم ، لذلك :

« سواء عليهم أستغفرت لهم أم لم تستغفر لهم لن يغفر الله لهم إن الله لا يهدي القوم الفاسقين » :

سواء عليهم استغفار الرسول وعدمه فلن يغفر الله لهم ، وإن استغفر لهم ما يشاء : « إستغفر لهم أو لا تستغفر لهم إن تستغفر لهم سبعين مرة فلن يغفر الله لهم ذلك بأنهم كفروا بالله ورسوله والله لا يهدي القوم الفاسقين » (٩ : ٨٠) فسواء هذا وذاك عليهم ، أللهم إلا المنافق التائب ، كغيره من الكافرين ، أو الفاسقين التائبين، فإن الله يتوب عليهم ان شاء: «ليعذب الله المنافقين والمنافقات أو يتوب عليهم ان شاء » (٣٣ : ٧٣) ولكن منافقي هذه السورة ليسوا منهم ، فإنهم الثابتون على نفاقهم ويزدادون عتواً ونفوراً ، فـ « سواءٌ عليهم أستغفرت لهم أم لم تستغفر لهم » : فهل إنه سواء على الرسول أو له ، أيضاً ؟ فهل يسمح له بالإستغفار لقوم منافقين مستكبرين ، وهم أخطر وأشر من المشركين بعد ما تبين له أنهم أصحاب الجحيم ؟ كلا ! فـ : « ما كان للنبي والذين آمنوا ان يستغفروا للمشركين ولو كانوا أولى قربى من بعد ما تبين لهم أنهم أصحاب الجحيم » (٩ : ١١٣) ولم يكن المطالب منهم ، أن يستغفر لهم رسول الله هو الرسول نفسه ،حتى يكون طلباً للمحظور ، وإنما هم «عشائر المنافقين إذ قالوا لهم: لقد افتضحتم ويلكم فاتوا رسول الله ﷺ يستغفر لكم فلووا رؤوسهم وزهدوا في الإستغفار »[1] .

---

(١) القمي في رواية أبي الجارود عن أبي جعفر (ع) .

الإيمان ؟ ومن خزائن الله يرتزق هؤلاء وهؤلاء ، فليسوا هم رازقي أنفسهم ، وهم يحاولون قطع الرزق عن الآخرين ! « ولله خزائن السماوات والأرض ولكن المنافقين لا يفقهون » فالذي يعطي أعدائه لا ينسى أوليائه ، فليست هذه الخطة اللئيمة إلا لأنهم لا يفقهون : ان خزائن الأرزاق بيد الله ، وان الله ناصر المؤمنين ، وانه خاذل المنافقين ، وانه موهن كيد الكافرين ، ولأنهم لا يفقهون بما طبع على قلوبهم ، فهم لا يزالون يحاولون في إطفاء نور الله ، والله متم نوره ولو كره الفاسقون .

فالفقه هو التوصل إلى علم غائب بعلم شاهد ، ولم يتوصل المنافقون بشاهدهم على غائب معرفة الله ، وان له ما في السماوات وما في الأرض .

ثم هم من غيّهم واستكبارهم ، وأن حسبوا أنفسهم أعزة غالبين ، والمؤمنين أذلة مغلوبين :

« يقولون لئن رجعنا إلى المدينة ليخرجن الأعزُ منها الأذل ولله العزة ولرسوله وللمؤمنين ولكن المنافقين لا يعلمون » :

هناك « لا يفقهون » لفقدهم العلم الغائب ، وهنا « لا يعلمون » لفقدهم العلم الحاضر أيضاً إذ لا يشعرون ، وكأنهم لا يحسون أنهم الأذلة وهؤلاء الأعزة ، والعلم أعم من الفقه وهم يفقدونهما بما طبع على قلوبهم .

أهؤلاء الخشب المسندة ، والحمر المستنفرة أعزة ، ثم اولئك الأولياء المكرمون أذلة ؟! كلا ! ولكن المنافقين لا يعلمون ، جهلاً عن تقصير .

توحي الآية بأن جماعة من المنافقين كانوا وقتئذٍ خارج المدينة ، فأخذوا عُدتهم – في زعمهم – لإخراج المؤمنين عنها لئن رجعوا هم إليها ، معتبرين أنفسهم الأعز ، والمؤمنين الأذلّ ، والعزة هي الغلبة بحق بالمَنَعة التي تمنع أن يمسه ذلٌ ، فليست إلا للحق وأهله ، دون ناكريه والمكذبين به ، وأية عزة لمن ينافق ويماكر كالثعلب لضعفه وخوفه ؟ وأية ذلة للمؤمن الصامد الصريح الذي لا يخاف إلا الله ، فيخافه ويهابه من لايعبد الله ، « أيبتغون عندهم العزة فإن العزة

« يا أيها الذين آمنوا لا تلهكم أموالكم ولا أولادكم عن ذكر الله ومن يفعل ذلك فأولئك هم الخاسرون » :

فمن الملهيات عن ذكر الله ما تلهي على أية حال كالغناء والرقص وموسيقاه ، فهي لا تستعمل بحال ، ومنها ما تلهي بطبيعة الحال ، وللإنسان أن يحوّلها إلى أحسن حال ، كالأولاد والأهلين والأموال التي تعتبر جسراً يعبر عليه في سبيل الله ، وهكذا يكون دور المؤمن مع المغريات والملهيات أنه يحوّلها إلى مذكرات بالله ، ويخطو بها خطوات في سبيل الله ، فليست الأموال والأولاد مَلهاة لمستيقظي القلوب النابهين ، الذين ينظرون الى الدنيا نظرة عبرة وعابرة ، يبصرون بها الحياة الآخرة ، وإنما هي ملهاة ومزلات لمن يبصرون إليها نظرة قاصرة لا يعدوها الى مغزاها ومنتهاها .

« ومن يفعل ذلك » التصرف البعيد البعيد في أمواله وأولاده « فأولئك هم الخاسرون » : يخسرون سمتهم الإنسانية ، فيخسرون كل ما للإنسان في دنيا الحياة وعقباها ، مهما ربحوا حيوانياً لفترة قصيرة زهيدة !.

ومن آثار الأموال والأولاد غير الملهية عن ذكر الله ، إنفاقها في سبيل الله ، دونما ابتغاء جزاء أو شكور ممن سوى الله ، بإزالة كافة التعلقات بالأموال والأولاد ، إلا ما يحصل بها مرضاة الله :

« وأنفقوا مما رزقناكم من قبل أن يأتي أحدكم الموت فيقول رب لولا أخرتني الى أجل قريب فأصّدّق وأكن من الصالحين » :

وطالما الإنسان بنفسه ونفيسه ، بماله وأولاده ، وبكافة معطياته ، انه هو من رزق الله ، فليكن كله كذلك إنفاقاً في سبيل الله ، فلا يملك هو لنفسه شيئاً ، وإنما هو مستخلف فيما رزقه الله ، فإذا أنفق فإنما ينفق من مال الله : « وأنفقوا مما جعلكم مستخلفين فيه » (٥٧ : ٧) .

سوف يطلبون الرجعة ولن يرجعوا ، وكما يروى عن الرسول ﷺ [١] ، وإن كان بين هؤلاء وبين الكفار بونٌ بعيد .

وكما أن هنا إيحاء أن المؤمن الصالح ، غير المقصر ، قد يستجاب له في تمديد الأجل المعلق ، لا ليعمل صالحاً فيما ترك ، بل ليحقق الأمل في تكميل الإيمان ، وكما أن الراجعين بالاستدعاء ، في دولة المهدي عليه السلام يُجابون في إحيائهم بعد موتهم ، وليستكملوا بمناصرة المهدي عليه السلام .

مركز تحقيقات كامپيوترى علوم اسلامى

(١) الدر المنثور ٦ : ٢٢٦ — عن ابن عباس قال قال رسول الله (ص) : (من كان له مال يبلغه حج بيت ربه أو تجب عليه فيه الزكاة فلم يفعل سأل الرجعة عند الموت) .

وَالنُّورِ ٱلَّذِي أَنْزَلْنَا وَٱللهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ — ٨ . يَوْمَ يَجْمَعُكُمْ لِيَوْمِ ٱلْجَمْعِ ذٰلِكَ يَوْمُ التَّغَابُنِ وَمَنْ يُؤْمِنْ بِٱللهِ وَيَعْمَلْ صَالِحاً يُكَفِّرْ عَنْهُ سَيِّئَاتِهِ وَيُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَداً ذٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ — ٩ . وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ خَالِدِينَ فِيهَا وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ — ١٠ .

« يسبح لله ما في السماوات وما في الأرض له الملك وله الحمد وهو على كل شيء قدير » :

« يسبح » دائماً لزام الذات تسبيح الحال والمقال ، الإشارة والعبارة ، « لله » لا سواه « ما في السماوات وما في الأرض » : كل الكائنات العلوية والسفلية سواء فهي كلها كخلق لله تسبيحات لله طوعاً أو كرهاً ، « له الملك » عليها دون ضد ولا ند ولا وكيل ولا شريك ، فلا ملك لغيره إلا ما هبـاه ، ملكاً ضئيلا زائلا ، « وله الحمد » إليه يرجع الحمد كله ، فإنه الثناء على الوصف الجميل والفعل الجزيل ، ولا جميل ولا جمال ولا جزيل إلا من الرب الجليل وإليه ، أينما كان ، فلا ثناء إلا له ، رغم ما ينكره الناكرون ، ويمكره الماكرون ، وكما التسبيح لله يعمُّ الإختيار واللاإختيار ، التكوين وسواه ، كذلك الحمـد ، فسواء بلسان التكوين الحال بمحـامد الصنع في الخلق ، أم بلسان المقال ممن آمنوا بالله ، فالكائنات كلها تحت ملك الله ، وكلها تسبيح وحمد لله ، إذ لا قصور في ملكه ولا تقصير ، « وهو على كل شيء قدير » دون حد ولا تقدير ، وإن كان خلاف

الإيمان ، ولأنه قضية الفطرة وأمـان من العذاب : « فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر » (١٨ : ٢٩) تقديماً لمشيئة الإيمان .

« والله بما تعملون بصير » : تصريحة بعد تلويحة أن الكفر والإيمان ، هما من أعمالنا ، لا من خلق الله ، ولكن الله لا يخفى عليه شيءٌ منهما ، والعمل هنـا يعمُّ عمل القلب والقالب ، فهو بصير بهما ، وأنتم فيهما أمام بشير نذير .

هذا - فما يروى أن الإيمان والكفر من خلق الله ، إنه مخـالف لكتاب الله ودليل العقل والواقع وأحاديث الفطرة ، فيضرب عرض الحائط أو يؤوّل [١].

وكما الله خلقكم ، كذلك أحسن صوركم في الخلق ، ومنهـا صورة الفطرة ، فلتؤمنوا استجابة لنداء الذات الحسنة :

« خلق السماوات والأرض بالحق وصوّركم فأحسن صوركم وإليه المصير »:

إن خلقهما حق وللحق وبالحق ، لا باطل فيهما من حيث الخلق : « وما خلقنا السماء والأرض ومـا بينهما باطلاً ذلك ظنُّ الذين كفروا فويلٌ للذين كفروا من النار » (٣٨ : ٢٧) ذلك لأنهم ليست لهم ألباب ، فمقالة أولي الألباب : « ربنا ما خلقت هـــذا باطلاً سبحانك فقنا عذاب النار » (٣ : ١٩١) فلا باطل في الخلق من لهو أو لعب أم ماذا : « لو أردنا أن نتخـذ لهواً لاتخذناه من لدنّا لو كنا فاعلين » (٢١ : ١٧) « وما خلقنا السماوات والأرض وما بينهما لاعبين . ما خلقناهما إلا بالحق ولكن أكثرهم لا يعلمون » (٤٤ : ٣٩) .

---

(١) الدر المنثور ٦ : ٢٢٧ - أخرج ابن مردويه عن ابن عباس قال قال رسول الله (ص): (العبد يولد مؤمناً ويعيش مؤمناً ويموت مؤمناً ، والعبد يولد كافراً ويعيش كافراً ويموت كافراً ، وإن العبد يعمل برهة من الزمان بالشقاوة ثم يدركه الموت بما كتب له فيموت شقياً ، وإن العبد يعمل برهة من دهره بالشقاوة ثم يدركه ما كتب له فيموت سعيداً) .

أقول : حاشا الرسول من هكذا قولة تخالف كتاب الله !.

« ألم يأتكم نبؤا الذين كفروا من قبل فذاقوا وبال أمرهم ولهم عذاب أليم »:

إن نبأهم هذا كسائر الأنباء : خبر ذو فائدة ، تفيدكم عن جهلكم إذ تفيقكم عن غفلكم، وإنه ينبئكم بما ذاقوا ولاقوا من عذاب « وبال أمرهم »: تبعة السيئة: كالوابل : المطر الثقيل القطار ، مقابل الطلّ وهو خفيفه ، فذوق الوبال هو نيل الطلّ ، فعذاب الاستئصال هو طلّ من العذاب ، ثم يليه وابله منذ الموت، فهم ذاقوا في الدنيا وبالهم بعذاب الإستئصال ،فإنه — حقاً — دون ما يستحقونه، فذوق العذاب غير نيله — كما أن ذوق الموت غير الموت — ثم لاقوا في البرزخ عذاباً برزخياً ، وسوف يلاقون عذاب النار يوم القرار ولات حين فرار ، فالعذاب الأليم يعني الأخيرين ، كما أن ذوق الوبال يخصّ الأوّل .

ألم يأتهم هذا النبأ ؟ بلى ! فلماذا استغفلوا عنه ؟ لأنهم رضوا بالحياة الدنيا واطمأنوا بها ! وقد كانوا يتناقلون أنباء بعض الهلكى كعاد وثمود وأصحاب الرسّ وقروناً بين ذلك كثيراً ، ولكن لا حياةَ لمن تنادي ! ولماذا هلكوا هنا ويتألمون بالعذاب هناك ؟

« ذلك بأنهم كانت تأتيهم رسلهم بالبينات فقالوا أبشر يهدوننا فكفروا وتولوا واستغنى الله والله غني حميد » :

فالأصل هو تكذيب الرسل برسالاتهم ، رغم البيّنات القاطعة الظاهرة الزاهرة لمن يعرف لغة الإنسان ، ويسمع ويبصر كإنسان ، فكانوا يعتذرون بعذر غير عاذر ، وبكفر غادر : « أبشر يهدوننا » ؟ « أبشراً منا واحداً نتبعه إنا إذاً لفي ضلال وسعر » (٥٤ : ٢٤) .

وليست هداية الرسل إلا هداية الله ، بما يحملون من رسالات الله ، فهل ينظرون أن تأتيهم ملائكة : « لو جعلناه ملكاً لجعلناه رجلاً وللبسنا عليهم ما يلبسون » (٦ : ٩) أو ينظرون أن يأتيهم الله بنفسه ؟ أم « يريد كل امرىء منهم أن يؤتى صحفاً منشّرة » ؟ كلا .. وإنما هي الحجة القاطعة الإلهية يجب

إن الزعم دائماً كنية الكذب وزاملته ، سواء أكان خلاف الإعتقـــاد أو خلاف الواقع أو خلافهما ، والظن – إذاً – لزامه ، إذ لا يركن الى أيّ دليل ، فهم يزعمون إحالة بعثهم « لن يبعثوا » وليس سنادهم في زعمهم إلا استبعادات ، فلا جواب إذن إلا تأكيد البعث قسماً بربّ محمد ﷺ : « قل بلى وربي لتبعثن» فالتربية الإلهية الظاهرة في محمد ﷺ الزاهرة بأخلاقه وتصرفاته وتفكيراته ، إنها دليل لا مردّ له أن ربه قادر على بعث هؤلاء « ثم » بعد بعثهم « لتنبّؤنّ بما عملتم » : حسّياً وعلمياً وجزاءً وفاقاً « وذلك » البعث والإنباء « على الله يسير» إذ فعل ما هو أقوى منه وأولى كأن صنع محمداً وربّاه ، الذي يوازي صنع العالم كله وأعلى !.

فـ « بلى وربي » ليس قسَماً خاوياً عن الدليل ، مقـابلة اللادليل باللادليل ! وإنما تعليل لطيف واستدلال بأقربية الغائب (البعث) من الحاضر (واقع التربية المحمدية) بواقع رسالته الإلهية المبرهَنة ، فليصدّق قوله عن الله ، فبعثهم أيسر على الله من صنع محمد ﷺ ، وهو بشخصه الكريم هو العالمون أجمع وزيادات لا يعلمها إلا الله . هـذا – وكذلك ربوبيته العالمية تقتضي البعث للحساب ، فلولاه لكان تسوية بين المطيع والعاصي ، بل تفضيلاً للظالم على المظلوم ، إذ لا نرى هنا انتقاماً كما يجب ، فالظالم يظلم ويتبختر ، والمظلوم يُظلم ويُكسر ، فهل إن رب العالمين جاهل بمـــا يحصل ؟ أم عاجز عن الإنتقام هنـا ؟ أم سوف يفصل بين عباده يوم الفصل؟ وهو الحق ! وهذا مقتضى ربوبيته ! «قل بلى وربي لتبعثن..» وهو قدير بما تقتضي ربوبيته .

نرى دائماً أن نكران وجود الله وتوحيـده ، ونكران الرسالة والبعث ، لا يستند الى أي دليل ، ثم نرى الآيات البينـات كيف تعالج ما يخالج في صدورهم من ظن وزعم ، بمختلف البراهين القاطعة : فطرية ، فكرية ، عقليـــة ، حسية واقعية ، ولكنهم « ما كانوا ليؤمنوا بما كذبوا من قبل كذلك يطبع الله على قلوب الكافرين » (٧ : ١٠١) و « على قلوب المعتدين » (١٠ : ٧٤) .

وكتاب الله نور : « يا أيها الناس قد جاءكم برهان من ربكم وأنزلنا إليكم نوراً مبيناً » (٤ : ١٧٤) ، فبرهان الرب هو الرسول ﷺ ، والنور هو القرآن الذي يزداده برهاناً ونوراً ، فانه يهتدى به في ظلم الكفر والضلال ، كما يهتدى بالنور الساطع ، والشهاب اللامع ، وضياء القرآن أشرف من ضياء سائر الأنوار ، لأنه يعشو إليه القلب ، وهي يعشو إليها الطرف ، والقرآن النور ظاهر بنفسه أنه إلهي ، ومظهر لغيره ، ولرسالة من أوحي إليه : نور على نور من نور « ومن لم يجعل الله له نوراً فما له من نور » (٢٤ : ٤٠) .

ترى من يترك النور الى الظلمات هل له بصر ؟ أو هل يبصر وهو ينكر ؟ : « فإنها لا تعمى الأبصار ولكن تعمى القلوب التي في الصدور » (٢٢ : ٤٦) « أفمن يعلم أنما أنزل إليك من ربك الحق كمن هو أعمى » (١٣ : ١٩) « أفأنت تسمع الصم أو تهدي العمي » (٤٣ : ٤٠) « بل هم في شك منها بل هم عنها عمون » (٢٧ : ٦٦) .

« والله بما تعملون » بالجوانح كفراً وإيماناً ، وبالجوارح طاعة وعصياناً « بصير » لا تخفى عليه خافية ، ولا تغرب عنه عازبة ، فأنتم مكشوفون له يوم الدنيا ، ومكشوفون له يوم يكشف عن ساق ، يوم التغابن ، وأين كشف من كشف ؟ :

« يوم يجمعكم ليوم الجمع ذلك يوم التغابن ومن يؤمن بالله ويعمل صالحاً يكفر عنه سيئاته ويدخله جنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها أبداً ذلك الفوز العظيم . والذين كفروا وكذبوا بآياتنا اولئك أصحاب النار خالدين فيها وبئس المصير » :

= ففي الكافي سئل الباقر (ع) عن « النور الذي أنزلنا » فقال : النور – والله – الأئمة ، لنور الإمام في قلوب المؤمنين أنور من الشمس المضيئة بالنهار ، وهم الذين ينورون قلوب المؤمنين ويحجب الله نورهم عمن يشاء فتظلم قلوبهم ويغشاهم بها .

حاسبين أنفسهم أنهم السابقون ؟ « فأتاهم الله من حيث لم يحتسبوا » (٥٩ : ٢) « وبدا لهم من الله مـــا لم يكونوا يحتسبون » (٣٩ : ٤٧) ، فهم أرادوا أن يبخسوا الحق وأهله ، فبُخسوا وخسر هنالك المبطلون .

أو انه التغابن بين الأخيار والأشرار ، إذ يحاول الشرّير غبن الخيّر ، ويخفي عليه خيره وشرّ نفسه ، فيحسب أنه يحسن صنعاً ، ثم يوم القيـامة يظهر الخافي من أمرهما ؟ : « وقالوا ما لنا لا نرى رجالاً كنا نعدُّهم من الأشرار. أتخذناهم سخرياً أم زاغت عنهم الأبصار . إن ذلك لحق تخاصم أهل النار » (٣٨:٦٤) ، وكأنما الفريقان كانا متعاقدين ومتبايعين ، المؤمنون ابتـــاعوا دار الثواب ، والكافرون اعتاضوا منها دار العقاب ، فتفاوتوا في الصفقة ، وتغابنوا في البيعة ، فكان الربح مع المؤمنين ، والخسران مع الكافرين .

أقول : كلٌّ محتمل ، والجمع أجمل ، مهما كان الغبن من الله والمؤمنين حقاً ، ومن الكافرين باطلاً ، ولكن الكل مباحثة على خفاء ، خفاء المبطل حيـــلة وغيـــلة ، وخفاء المحق نتيجة كفر المبطل ، أو جزاء كفره : غبناً بغبن ، جزاءً وفاقاً .

وقد تلمح الآية نفسها بالتغابن الأخير في تقسيمها الثنائي « ومن يؤمن بالله .. والذين كفروا .. » فحياة الإيمان والكفر مغابنـــة ، فان حالة الكافر المريحة المَرِحة تغبن ضعفاء الإيمان ، وحياة المؤمن الملتوية الصعبة تغبن حمقـــاء الكفر والطغيان ، ثم تظهر حقيقة الأمر في الحياتين يوم التغابن .

وقد يزعم الكفار أن المؤمنين الذين خلطوا عملاً صالحاً وآخر سيئاً ، سوف يدخلون النار كما هم يدخلون ، فهم يغتنمون مزيد الكفر والطغيان ، ويسخرون من هؤلاء المؤمنين الضعفاء : ماذا يفيدكم هـــذا الإيمان ، وأنتم كأمثالنا من أهل النار ؟

فالجواب : « ومن يؤمن بالله ويعمل صالحاً يكفر عنه سيئاته ويدخله جنات

رَحِيمٌ ــ ١٤ . إِنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلَادُكُمْ فِتْنَةٌ وَاللهُ عِنْدَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ ــ ١٥ . فَاتَّقُوا اللهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ وَاسْمَعُوا وَأَطِيعُوا وَأَنْفِقُوا خَيْرًا لِأَنْفُسِكُمْ وَمَنْ يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ــ ١٦ . إِنْ تُقْرِضُوا اللهَ قَرْضاً حَسَناً يُضَاعِفْهُ لَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللهُ شَكُورٌ حَلِيمٌ ــ ١٧ . عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ــ ١٨ .

« ما أصاب من مصيبة إلا بإذن الله ومَن يؤمن بالله يهدِ قلبه والله بكل شيء عليم » :

إن المصيبات كلها لا تصيب أهليها إلا بإذن الله ، وإن كانت بما كسبت أيدي الناس ، المصابين وسواهم : « وما أصابكم من مصيبة فبما كسبت أيديكم ويعفو عن كثير » (٤٢ : ٣٠) « ما أصاب من مصيبة في الأرض ولا في أنفسكم إلا في كتاب من قبل أن نبرأها إن ذلك على الله يسير . لكيلا تأسوا على ما فاتكم ولا تفرحوا بما آتاكم » (٥٧ : ٢٣) مما كسبت أيديكم ، أم ما تستحقونه دون كسب كمصيبة الموت في أجله المحتوم : « إن أنتم ضربتم في الأرض فأصابتكم مصيبة الموت » (٥:١٠٦) أو ما كسبت أيدي غيركم فتصيبكم ظلماً ، لا جزاءً ، وإنما ابتلاءً سيئاً ليزدادوا أجراً وغفراً .

فإذن الله هنا وهناك هو السماح تكويناً بالإصابة ، فلولاه لاستحالت ، سواء أكانت بحق ، من موت محتوم ، ومن سيئة بما كسبت أيديهم أنفسهم ومنه بعض الآجال المعلقة ، أم بظلم ، كالحوادث الظالمة التي لا نصيب للمظلوم في أصلها ،

المسلمون حقـــاً لصانهم ربهم عن المصائب ، إيذان بأن الإصابات كلها بإذن الله وحكمته ، لا يعرفها إلا من هدى قلبه ، وإيذان للمؤمنين أيضاً أن لا حول لهم ولا قوة إلا بالله ، وليؤمنوا بقضاء الله في إصاباتهم ، بحكمتها المجهولة او المعلومة لديهم بما يعرفون بنور الإيمان .

وبما أن أغلب إصابات المؤمنين مادية في قوالبهم – وهي محسوسة – والأغلب في غيرهم معنوية في قلوبهم – وهي غير محسوسة – ففي نوعي الإصابة تغابن بين الفريقين يوم الدنيا ، يظهر حقه يوم الدين ، وأين إصابة من إصابة ؟ بلاءٌ لا يُلمس فيغتر صاحبه كأنه غير مبتلىً على كفره ، وبلاءٌ ملموس يدفع صاحبه للعلاج ، او يصبر على قضاء الله فيزداد أجراً ، او يعرف انه جزاء وتنبيه على سيئاته ، ولكي ينجو عن بلاء الآخرة ، ويقدم على التوبة في الدنيا !.

« وأطيعوا الله وأطيعوا الرسول فإن توليتم فإنمـــا على رسولنا البلاغ المبين » :

مرکز تحقیقات کامپیوتری علوم اسلامی

هنا طاعة الله ، وهناك طاعة رسول الله ، تجتمعان أنهما طاعة الله « مَن يُطع الرسول فقد أطاع الله » (٤ : ٨٠) وتفترقان أن الأولى هي الأصل والمبدء ، والثانية فرع ، فلا يطاع محمـــد إلا كرسول يصدر من الله ، ثم الاولى تتمثل في تطبيق كتاب الله ، والثانية في سُنة رسول الله ، الثابتة غير المفرقة ، وفي أوامره ونواهيه الولائية والسياسية كقائد للدولة الإسلامية ، فإنه الحاكم بين النـاس بما أراه الله ، فمن اختص الطاعة بكتاب الله ورفض سُنة رسول الله فقـد غوى ، ومن أطاع الرسول تاركاً لكتاب الله فقد هوى ، فهما متلازمتان لا تفترقان ولا تتفارقان ، الكتاب الأصل ، والسنة المفسرة الموافقة له .

« فإن توليتم » عن الطاعتين او إحداهما « فإنمـا على رسولنا البلاغ المبين »

إن دور العلاج المثلث (العفو والصفح والغفر) ليس إلا ظرف رجاء الإصلاح، او – على أقل تقدير – عدم خوف الإفساد : أن يمشّوه معهم في صرفه عن الإيمان .

فالعفو هو قصد إزالة الذنب صارفاً عن المذنب ، وأفضل منه الصفح وهو ترك التثريب والتعييب ، ولذلك يأتي بعد العفو ، فقد يعفو الإنسان دون صفح ، ثم يأتي دور الغفر وهو إلباس ما يصونه عن الدنس .

إن هذه الآية ونظائرها تعالج مشاكل وعقبات وعرقلات في سبيل الإيمان ، تدفعها عواطف القرابة ، وعواصف النسبة ، فقد يتخلص الإنسان عن الأغلال المتصلة به في سبيل الإيمان ، ثم تبقى أغلال منفصلة عنه صعبة الفكاك ، كالأزواج والأولاد الأعداء في سبيل الحق، إذ يدفعون ذويهم للتقصير في واجبات الإيمان ، يقفون له في الطريق فيمنعونه عن النهوض بواجبه [1] ، عداءً للإيمان ، او اتقاءً لما يصيبهم من جرّائه ، فهذه الحالة المعقّدة المتشابكة تقتضي إثارة اليقظة في قلوب المؤمنين ، والحذر من تسلسل عواطف القرابة، المانعة من مواصلة التضحية في سبيل الله ، فاحذروهم ، او عالجوهم .

« إنما أموالكم وأولادكم فتنة والله عنده أجر عظيم » :

والفتنة – وهي الامتحان – أعم من فتنة الخير وفتنة الشر « ونبلوكم بالشر

---

(١) تفسير القمي عن أبي الجارود عن أبي جعفر (ع) في الآية : وذلك ان الرجل إذا أراد الهجرة تعلق به ابنه وامرأته وقالوا : ننشدك الله ان تذهب عنا فنضيع بعدك ، فمنهم من يطيع أهله فيقيم ، فحذرهم الله أبناءهم ونساءهم ونهاهم عن طاعتهم ، ومنهم من يمضي ويذرهم ويقول : أما والله لئن لم تهاجروا معي ثم جمع الله بيني وبينكم في دار الهجرة لا أنفعكم بشيء أبداً ، فلما جمع الله بينه وبينهم أمر الله ان يسوق بحسن وصله فقال : « وإن تعفوا وتصفحوا وتغفروا فإن الله غفور رحيم » .

وكما أن التقوى الواجبة هي المستطاعة الحقة ، كذلك مخلفاتها من سماع الحق وطاعته وإنفاق الخير في سبيله دون شح وبخل :

« واسمعوا » من الله ورسوله « وأطيعوا » الله ورسوله « وأنفقوا خيراً » في سبيل الله، فلا يرجع إلا « لأنفسكم » « وما تنفقوا من خير فلأنفسكم » « .. يوفّ إليكم وأنتم لا تظلمون » (٢ : ٢٧٢) « فمن اهتدى فإنما يهتدي لنفسه » — والله غني عن عباده — فسبيل الله هنا وهنـــاك ليست إلا سبيل مصلحة الإنسان ، الحقيقية ، على ضوء وحي الله ، فهي سبيل الله لأنهـــا بأمر الله ودلالته ، وهي سبيل الإنسان لأنها بفعله ومصلحته، وإن كانت بتوفيق الله ، فإنفاق الخير وإن كان إفناءً للمال حسب الظاهر ، ولكنه نفقة مباشرة لذواتهم وفيهـا مزيد هو وعد الرحمة الإلهية لمن أنفق خيراً لنفسه .

والنفس الإنسانية وأضرابها ، هي دائماً شحيحة في الإنفاق ، فمفلحة صاحبها عن سلوك سبيل الله ، إذاً فلا فلاح إلا بوقاية شح النفس : « ومن يوقَ شحّ نفسه فاولئك هم المفلحون ».. « يوق » لا « يقي » لأن الواقي ليس الإنسان فحسب، كما ليس هو الله دون سعي من الإنسان، فبدء الوقاية في توقّي النفس وسعيها أن تتقي شحها ، وهي لا تكفي ! ثم الله يتمم له الوقـاية : « الذين اهتدوا زادهم هدى وآتاهم تقواهم » (٤٧ : ١٧) فلنسأل الله تعالى كما سأله الطاهرون (اللهم قِني شح نفسي) [١] .

إلى هنا أمر المؤمنون بالإنفاق خيراً لأنفسهم ، ونُهوا عن شح النفس ، ثم نرى ترويدهم رغبة في الإنفاق برحمة وعناية تتخطى التصور ، إذ يسمى إنفاقهم لأنفسهم قرضاً حسناً لله فيعدهم المضاعفة ! :

---

(١) القمي عن الفضل بن ابي مرة قـال : رأيت أبا عبدالله (ع) يطوف من أول الليل الى الصباح وهو يقول : اللهم قني شح نفسي، فقلت : جعلت فداك ما رأيتك تدعو بغير هذا الدعاء! فقـــال : وأي شيء أشد من شح النفس ؟ إن الله يقول : « ومن يوق شح نفسه فاولئك هم المفلحون » .

(سورة الطلاق – مدنية – وآياتها اثنتا عشرة)

بِسْمِ ٱللهِ ٱلرَّحْمٰنِ ٱلرَّحِيمِ . يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ فَطَلِّقُوهُنَّ لِعِدَّتِهِنَّ وَأَحْصُوا ٱلْعِدَّةَ وَٱتَّقُوا اللهَ رَبَّكُمْ لَا تُخْرِجُوهُنَّ مِنْ بُيُوتِهِنَّ وَلَا يَخْرُجْنَ إِلَّا أَنْ يَأْتِينَ بِفَاحِشَةٍ مُبَيِّنَةٍ وَتِلْكَ حُدُودُ اللهِ وَمَنْ يَتَعَدَّ حُدُودَ اللهِ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُ لَا تَدْرِي لَعَلَّ اللهَ يُحْدِثُ بَعْدَ ذٰلِكَ أَمْراً – ١ . فَإِذَا بَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَأَمْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ أَوْ فَارِقُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ وَأَشْهِدُوا ذَوَيْ عَدْلٍ مِنْكُمْ وَأَقِيمُوا الشَّهَادَةَ لِلهِ ذٰلِكُمْ يُوعَظُ بِهِ مَنْ كَانَ يُؤْمِنُ بِٱللهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ وَمَنْ يَتَّقِ ٱللهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجاً – ٢ . وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللهِ فَهُوَ حَسْبُهُ إِنَّ اللهَ بَالِغُ أَمْرِهِ قَدْ جَعَلَ اللهُ لِكُلِّ شَيْءٍ قَدْراً – ٣ . وَاللَّائِي يَئِسْنَ مِنَ ٱلْمَحِيضِ مِنْ نِسَائِكُمْ إِنِ ٱرْتَبْتُمْ فَعِدَّتُهُنَّ ثَلَاثَةُ أَشْهُرٍ وَاللَّائِي لَمْ يَحِضْنَ وَأُولَاتُ ٱلْأَحْمَالِ أَجَلُهُنَّ أَنْ

متشكلة من التجمعات الجزئية، فالإنفصام والفراق فيها يتخطى إلى تهدّم الدولة، ولذلك ترى ان فراق الطلاق إسلامياً نظّم بحيث كأنه وفاق آخر بعد الطلاق يخلفه ، وفاق هو من مخلفات العدل في الفراق ، لحدّ يحبب بعضهم إلى بعض رغم الطلاق : « وأئتمروا بينكم بمعروف » .

وبما أن الإسلام يعني من إلتقاء جسدين في الزواج خلق الخلية الاولى من جسد الامة أي : إلتقاء قلبين ، لا قالبين فحسب ، إنما إلتقاء إنسانين كأنهما إنسان واحد ، لذلك يراعي في باب الطلاق أن يبقى الإلتقاء الإنساني بوحدة القلبين باقياً ، رغم فراق القالبين، كأنهما شريكان مسلمان متسالمان في تجارة ، عرفا بعد التجربة ردحاً من الزمن أن ليس بينهما إنسجام فيها ، لعلل خارجة عن طوقهما ، ففضلا الفراق فيها ، لكيلا تتخطاهما إلى الفراق عن الاخوة الإسلامية ، أو التخلف عن شرعة الله ، فإنهما الأصلان الجذريان في كافة القوانين والأنظمة الإسلامية .

لذلك ترى الآيات في باب الطلاق هنا وفي البقرة وسواهما ، تتشدد على من يستغل الطلاق للمضارة: «ولا تضاروهن لتضيقوا عليهن» «لا تضار والدة بولدها ولا مولود له بولده » (٢ : ٢٣٣) وإنما « إمساك بمعروف أو تسريح بإحسان » (٢ : ٢٢٩) ثم بعد الطلاق لهن زيادة حق في المعروف ليزيل عنهن بغض ووصمة الفراق : « وللمطلقات متاع بالمعروف حقاً على المتقين » (٢ : ٢٤١) « ولا يحل لكم أن تأخذوا مما آتيتموهن شيئاً إلا أن يخافا ألا يقيما حدود الله فإن خفتم ألا يقيما حدود الله فلا جناح عليهما فيما افتدت بـه » (٢ : ٢٢٩) — كما في طلاق الخلع والمبارات — « ومتعوهن على الموسع قَدَرُه وعلى المُقتِر قَدَرُه متاعاً بالمعروف حقاً على المحسنين » (٢ : ٢٣٦) « ولا تنسَوُا الفضل بينكم » (٢ : ٢٣٧) .

مضارة ممنوعة على أشراف الطلاق ، ومتاع بالمعروف حينه ، ثم يستمر المعروف بعده متجلياً في تحريرهن في الزواج : « وإذا طلقتم النساء فبلغن أجلهن

ولأنه لا يستقل عنهم ، فكيانه هو الرسالة ، والسفارة الإلهية لهم : لا يأخذها إلا ليعطي .

وطلاق النساء هو فراقهن عن نكاح دائم ، دون المنقطع وملك اليمين ، فإنه الهبة فيها دون طلاق ، و « طلقتم » وإن كانت تدل بمفردها على مضي الطلاق ، وهو ينافي إمضائه بعده : «فطلقوهن» ولكن «إذا» : الشرطية الزمنية يَسلخها عن المضي إلى المشارفة : عند تصميم الطلاق فطلقوا هكذا .. إذا أردتم تطليق النساء فطلقوهن لعدتهن، ليس إلا، فالطلاق لغير العدة لا يجزي ولا يجوز للائي لهن العدة – إذاً – فلا تشمل « النساء » هنا غيرهن ، لمكان ذكر العدة، فما هي العدة ؟ وما هو الطلاق للعدة ؟

العِدة هي هيئة خاصة من العَدَد ، وبينها عموم مطلق ، فكل عِدة عدد ولا عكس ، فمن الأعداد ما هي مجهولة غير محصيّة ، ولكن العدة هي المعلومة من العدد ، سواء أكان المعدود زماناً ، أو مكاناً أو أشخاصاً أم ماذا ؟

ومن عدة النساء أشهر تربصهن بأنفسهن نظرة زواج جديد ، أو التحلل عن الأول ، كذلك وتريث أزواجهن رجاء الرجوع إليهن قبل انقضائها ، إلا في عدة الطلاق البائن فإنه تربصٌ بهن للزواج ورعاية لحرمة الزوجية ، أللهم إلا في المختلعة والمباراة إذ تصبح رجعية باسترجاع حقها . ومنها عُدد الطلاق المسنون في الإسلام، وهو من الواحد إلى التسعة ، دون زيادة ولا نقيصة [١] ، و «لعدتهن» تتحمل العِدتين : أن يطلّقن العدد المعلوم ، ولزمن معلوم : عِدة الدفعة وعدة الزمن ، وعدة الزمن هي مجموعة زمن التربص بداية ونهاية ، فـ « لعدتهن » دون : من عدتهن ، أو إلى عدتهن ، أو في عدتهن ، إنها تشملها بدءً وختماً .

---

(١) اصول الكافي عن جعفر بن محمد (ع) قيل له: أخبرني عن رجل قال لامرأته أنت طالق عدد نجوم السماء ؟ فقال : ويحك ! أما تقرء سورة الطلاق ؟ قلت بلى – قال : فاقرء ، فقرأت: فطلقوهن لعدتهن واحصوا العدة ، قال : أترى ههنا نجوم السماء ؟ قلت : لا ..

ثم « لعل الله يحدث بعد ذلك أمراً » وهذه أولى المحاولات لدفع المعول عن ذلك البناء الرصين : الزوجية ، ثم تتلوها محاولات أخرى .

« وأحصوا العدة » : طلاقاً ، وعدة للطلاق، وإنما يؤمر الأزواج بإحصائها ، مع أنه لصالح الزوجات أيضاً ، نظرة الزواج الثاني ، لأن مصلحتهم هنا اكثر من مصلحتهن « لعل الله يحدث بعد ذلك أمراً » فأراد الرجوع ، فإذ لم يحص العدة لم يضبط معه الرجوع ، وكذلك النفقة الواجبة عليه زمن العدة ، فهنا مصلحة المنفق تقتضي ضبط العدة، لكيلا تزيد عن الواجب عليه، ومن مصالحها في الإحصاء ألا يطول عليها الأمد فيطول الانتظار للزواج الثاني ، فإنه يضم النفقة أيضاً، وألا ينقص الأمد فتقل النفقة ويكون النكاح الثاني نكاحاً بالمعتدة وهي من المحرمات الأبدية .

« واتقوا الله ربكم » في طلاقهن لعدتهن ، فلا يكن لغيرها ، وفي احصاء العدة ، فلا تزيدوا فيها نظرة الرجوع ، أو المضارة ، ولا تنقصوا عنها تنقيصاً للنفقة ، « واتقوا الله » كذلك في اخراجهن أو خروجهن عن بيوتهن :

« لا تخرجوهن من بيوتهن ولا يخرجن » : « بيوتهن » لكي تعم البيوت التي سكنتها كبيوت الزوجية ، لا «بيوتكم» فليست النساء كلهن في بيوت أزواجهن، فبيت الزوجية المقرر لها بنفقة الزوج، هو حق لها إلى نهاية العدة الرجعية ، فإن كان هذا البيت عارية أو مستأجراً وانتهت مدته ، كان عليه تبديله بغيره ، كل ذلك رجاء الرجوع، فإخراجهن عنه محرّم مهما كلف الأمر ، وكذلك خروجهن، وليس لها المصالحة على خروجها لأن بقاءها ليس حقاً لها فحسب ، إنه حكم الله، لا يقبل المصالحة ، وحق المجتمع، وحق الزوجين ، فإن أردن الخروج كان عليهم المنع نهياً عن المنكر ، فأحرى للزوج هذا النهي لأنه لصالحه ، وإن أراد إخراجه كان لها النهي والتمنع ، وإلا فعلى الحاكم الشرعي منعها عن ذلك ، كما على كل مسلم ، ولها أن تتزين وتتجمّل لزوجها وتحاول في جلب نظره كما وردت به

« وتلك حدود الله » المحددة للطلاق والعدة « ومن يتعد حدود الله فقد ظلم نفسه » أياً كان التعدي، كمن يطلق حالة الحيض، أو في ظهر المواقعة، أو يخرجها عن بيت الزوجية دون مبرّر « فقد ظلم نفسه » إذ قطع عنها رجاء الرجوع في الفترة المسموحة له، وظلم زوجه التي هي كنفسه، ظلماً مزدوجاً هنا، وسوف يراه في الاخرى.

« لا تدري لعل الله يحدث بعد ذلك أمراً » وإن كنت دريت من نفسك عدم ميل الرجوع، ولكن مقلب القلوب قد يحدث في هذه الفترات أمراً مرغوباً، فتتغير الأحوال البئيسة إلى هناءة ورضى، فالنفس البشرية قد تستغرقها اللحظة الحاضرة، وتغلق عليها منافذ المستقبل، فتزعم اللحظة سرمداً، رغم أن المستقبل قد يحمل ما لم يكن بحسبانه، يحمل أمر الله المقلب للقلوب والظروف والملابسات، فيجعل الله بعد عسر يسراً، فرب محتوم عندك بما تراه، متغير عند الله بما يراه، فغيّر حتمك في نظرك القاطر، إلى ما يراه الله القادر، ولا تمض فيما حكمت إلا متربصاً متريثاً راجياً رحمة الله، فطلاقك حالة الحيض، وهي حالة مكروهة، وفي حالة طهر المواقعة، وقد قضيت حاجتك منها، وإخراجك زوجك عن بيت الزوجية، زمن العدة، كل ذلك استعجال لما رأيت، وصدّ عن استئناف الرأي ورجاء الرجوع، وعن أن يحدث الله بعد ذلك التصميم العاجل الجاهل – أمراً، هو لصالحك وزوجك!

هذه الحكم والعلل في تأجيل الفراق تأتي برهاناً بيناً على بطلاق الطلقات الثلاث في مجلس واحد، وكذلك كل لعبة تزيل رجاء الرجوع، فانها استهزاء بآيات الله: « ولا تتخذوا آيات الله هزواً » (٢ : ٢٣١).

وهذه هي المحاولة الثانية لدفع معول الطلاق – بعد وقوعه – عن اجتثاث البناء، فان المطلقة رجعية زوجة ما دامت في العدة.

ثم وفي نهاية العدة ومشارف الفراق يؤمر بالتلطف معها إمساكاً أو فراقاً:

فصلة الزوجية – إسلامياً – تقوم بمعروف وتنتهي بمعروف ، استبقاءً لمودّات القلوب مهما افترقت القوالب ، فقد تعود بعد الفراق إلى عشرة حسنة وأحسن مما مضى ، فلا تنطوي على ذكرى رديئة ، أو شائبة تعكّر صفاءها عندما تعود .

« وأشهدوا ذوي عدل منكم » وهل إن اشهاد ذوي عدل يختص بالطلاق ؟ إذاً فلماذا لم يأت بعده دون فصل به أن يقول : فطلقوهن لعدتهن وأشهدوا . . ! أو أنه يعمه والإمساك والفراق ، شهادة مثلثة : للطلاق والرجوع أو الفراق ؟ وليس الفراق عند بلوغ الأجل إلا استمرار الطلاق فلا يحسب له حساب مستقل عن الطلاق ، إلا أن نقول : الطلاق يتطلب شهادتين مرتين ! أو أنه للطلاق والرجوع ؟ وهذا هو الظاهر من هذه الشهادة المتأخرة ذكراً عن الإمساك ، فكما الطلاق بحاجة إلى شهادة حفاظاً على المواريث والأنساب ، وانسراحاً للمطلقة في زواج آخر ، كذلك الرجوع ، ولكي تثبت حقوق الزوجة من جديد ، فقد يعلم الناس بالطلاق ، ولا علم لهم بالرجعة ، فتثور شكوك وتقال أقاويل ، إلا أنه قد يكتفي بشهادة الرجعة بعدها ، إذ لا تتيسر غالباً عندها ، ويحصل المقصود ، فإنها لفظة قول أو عمل لا تعلم إلا من قبلها ، ولكن الطلاق بحاجة إلى شهادة حينه ، لكيلا يلتبس الأمر ، ويكون عن بينة [1] .

ولا تكفي ذوات العدل عن العدلين مهما كثرن وطمئن ، ولا حجة في القياس ولا في غيره وإن كان حجة ، لمخالفة الآية ، فإثبات ذوي عدل للشهادة هنا ينفي ما عداهما ، ولو كفت النساء فلماذا تختصها الآية برجلين ، ولا تذكرهن

---

(١) مما يدل على الاشهاد للرجعة ما رواه في الكافي عن بريد الكناسي قال : سألت أبا جعفر (ع) عن طلاق الحبلى (إلى أن قال) قلت : فإن طلقها ثانية وأشهد ثم راجعها واشهد على رجعتها ومسها . . إذ يدل على أن الاشهاد للرجعة مركوز في اذهان المتشرعة كالإشهاد في الطلاق.

ﷺ : « من انقطع إلى الله كفاه الله كل مؤنة ورزقه من حيث لا يحتسب ومن انقطع إلى الدنيا وكله الله إليها » .

ومن مخرجه في الطلاق أنه يخرجه عن عقباته ويرزقه من حيث لا يحتسب من الطيبات .

ومن المضايق في سبيل التقوى مضايق الجهل بالواجب ، وإضلال الضالين ، وإغراء المبطلين ، فهي بحاجة إلى فرقـــان « إن تتقوا الله يجعل لكم فرقاناً » (٨ : ٢٩) : تفرقون بـــه بين الحق والباطل ، فتقوى الله تعالى يخلفها مخرج وفرقان من الله ، نور يمشي به في الظلمات .

وكلا المخرج والرزق من حيث لا يحتسب ، يعمان الدنيا والآخرة ، كما يروى عن الرسول ﷺ أنه قرء الآية وقال ﷺ : من شبهات الدنيا ومن غمرات الموت وشدائد يوم القيامة »[1] .

وقد يظن المؤمن أن لو اتقى عاش ضنكاً ، فيضنُّ بالتقوى أحياناً ويمارسها أخرى ، زعماً منه أن أسباب الرزق محصورة فيما يحتسبها ، ولكن الله :

« يرزقه من حيث لا يحتسب » : رزقاً عقلياً وعلمياً وعملياً ، ورزقاً نفسياً وضميرياً ورزقاً مادياً وما إليها من صنوف الأرزاق ، غير المحتسبة ، الداخلة في حساب الله لمن اتقاه .

---

(١) اصول الكافي عن أبي عبدالله (ع) أنه قال لعلي بن عبد العزيز ما فعل عمر بن مسلم ؟ قال : جعلت فداك أقبل على العبادة وترك التجارة ، فقال : ويحه ! امـا علم ان تارك الطلب لا يستجاب له ، إن قوماً من أصحاب رسول الله (ص) لما نزلت « ومن يتق الله .. » اغلقوا الأبواب واقبلوا على العبادة وقالوا : قد كفينا ، فبلغ ذلك النبي (ص) فأرسل إليهم قال : ما حملكم على ما صنعتم ؟ فقالوا : يا رسول الله (ص) ! تكفل لنا بأرزاقنا فاقبلنا على العبادة ، قـال : إنه من فعل ذلك لم يستجب له ، عليكم بالطلب . وفي عوالي اللئالي فعلم النبي (ص) بذلك فعاب مـا فعلوه وقال : إني لأبغض الرجل فاغراً فاه إلى ربه : اللهم أرزقني ويترك الطلب .

« ومن يتوكل على الله »[1] بعد ما اتقاه بالمستطاع دون بتل ولا فشل « فهو حسبه » عما سواه من الأسباب، فإنه مسبّبها ومالك أمرها « إن الله بالغ أمره » — و (غالب على أمره ولكن اكثر الناس لا يعلمون) — ولا أمر : من الأشياء أو الامور ، أو الأوامر ، إلا صادراً عنه وفاعلاً باذنـــه ، فهو بالغ أمره تشريعاً وتكويناً ، بلا قصور ولا تقصير ولا فتور ولا تقتير، فليس بحاجة في إنفاذ أمره إلى أسباب ، وإنمـا الأسباب بحاجة إليه في كيانها وآثارها ، فهو البالغ للأمور كلها لا سواه، وهو الغالب عليها لا سواه، فعليه التكلان وبه المستعان لا سواه، ولكن « قد جعل الله لكل شيء قدراً » : بمقداره ، وبزمانه وبمكانه وبملابساته ونتائجه وأسبابه ، دون صدفة ولا فوضى : « إنا كلّ شيء خلقناه بقدر » (٥٤ : ٤٩) « وإن من شيء إلا عندنا خزائنه ومـــا ننزله إلا بقدر معلوم »

= يقول عند صباحه ومسائه « لقد جاءكم رسول من أنفسكم عزيز عليه ما عنتم حريص عليكم بالمؤمنين رؤوف رحيم . فـــإن تولوا فقل حسبي الله لا إله إلا هو عليه توكلت وهو رب العرش العظيم » فلما ورد عليه الكتاب قرأه فاطلق الله وثاقه فمر بواديهم التي ترعى فيه إبلهم وغنمهم فاستاقها فجاء بهـا إلى النبي (ص) فقال يا رسول الله (ص) إني اغتلتهم بعد مـا اطلق الله وثاقي فحلال هي أم حرام ؟ قال (ص) : بل حلال ، إذا شئنا خمسنا ، فأنزل الله « ومن يتق الله يجعل له مخرجاً ويرزقه من حيث لا يحتسب ومن يتوكل على الله فهو حسبه إن الله بالغ أمره قد جعل الله لكل شيء قدراً » .

(١) معاني الأخبار للصدوق (ره) باسناده عن أحمد بن أبي عبد الله قـال : جاء جبرئيل إلى النبي (ص) فقال له النبي ص : يا جبرئيل ! ما التوكل ؟ فقال : العلم بأن المخلوق لا يضر ولا ينفع ولا يعطي ولا يمنع واستعمال اليأس من الخلق فإذا كان العبد كذلك لم يعمل لأحد سوى الله ولم يرج ولم يخف سوى الله ولم يطمع في أحد سوى الله ، فهذا التوكل .

وفي الدر المنثور ٦ : ٢٣٤ عن عمر بن الخطاب قـال : قال رسول الله (ص) : لو أنكم تتوكلون على الله حق توكله لرزقكم كما يرزق الطير تغدو خماصاً وتروح بطاناً .

وفيه عن ابن عباس رفع الحديث إلى رسول الله (ص) قال: من أحب أن يكون أقوى الناس فليتوكل على الله ومن أحب أن يكون أغنى الناس فليكن بما في يد الله أوثق منه بما في يده ومن أحب أن يكون أكرم الناس فليتق الله .

أقول : إن بين الآيتين بالنسبة لهن تجاوب الجمع بين الأجلين ، فبينهما عموم من وجه ، تتصادقان وتجتمعان في الحاملات المتوفى عنهن أزواجهن ، فآية الحاملات تشملهن والمطلقات ، وآية الوفاة تشمل الحاملات وغير الحاملات ، فالآيتان – إذاً – تحملان لمورد الجمع أجلين ، أحدهما للحمل والآخر للوفاة ، فهما إذاً يتداخلان والغاية أبعد الأجلين، من وضع الحمل والأربعة وعشراً ، فليس هنا لأجل الوضع مجال التعجيل ، إلا التأجيل إلى أجل الوفاة لوجود السببين .

ثم لا أجل للحاملات المطلقات إلا وضع الحمل ، ولا للمتوفى عنهن أزواجهن غير الحاملات إلا أجلهن الخاص « أربعة أشهر وعشراً »، كما توحي بهما الآيتان، إذ ليس في كلٍّ إلا أجل واحد ، إلا إذا اجتمعا فتداخل الأجلان .

فهما أوحت آية الحاملات باختصاص الأجل بوضعه ، وآية الوفاة باختصاصه بالأربعة وعشراً ، فإنما الإختصاص هنا وهناك إذا لم يوجد إلا سببه الخاص، ففيما اجتمع السببان فالآيتان تتجاوبان في جمع الأجلين المسببين .

ثم إن أولات الأحمال تعمُّ كل حمل ، في أيٍّ من أشهر الحمل ، وأياً كان الحمل وإن كان مضغة [1] او نطفة مستقرة ، كما يعمُّ الوضع المعتاد وسواه من إجهاض ، جنيناً كاملاً او سواه وإلى نطفة تنطف ، عامدة في الوضع أم سواها .

فلا رجعة الى أولات الأحمال المطلقات بعد الوضع وإن كان بعد هنيئة من الطلاق ، إذ لا أجل لهن إلا الوضع ، كما لا يجوز الزواج للحاملات المتوفى عنهن أزواجهن إلا بعد الأربعة وعشراً ، فانها الأجل الثابت بشأن الوفاة ، إلا أن

---

(١) الكافي بإسناده الى عبدالرحمن بن الحجاج عن أبي الحسن (ع) قال : سألته عن الحبلى إذا طلقها فوضعت سقطاً تم او لم يتم او رضعته مضغة ؟ قال : كل شيء وضعته يستبين أنه حمل تم او لم يتم فقد انقضت عدتها وإن كان مضغة .

« هن » هنا الرجعيات كما في مسبقة الآيات ، فالإسكان هنـا كصيغة اخرى عن الإبقاء في بيوت الزوجية هناك كما كن قبل الطلاق، رجاء الرجوع، فـ « من حيث سكنتم » تصريحة بوجوب إسكانهن في بيت الزوجية ، فلا يشمل ــ إذاً ــ المعتدات البائنات ، فلا يجب بل لا يجوز إسكانهن فيه لانقطاع علاقة الزوجية ، فهل يجوز إسكان الغريبة في سكناك ؟!.

إذاً فلا إسكان ، ولا نفقة كذلك، للبائنات المعتدات كغير المعتدات سواء، وكما اتفقت بذلك الروايات عن الرسول ﷺ وأئمة أهل بيته الكرام(ع) والمخالفة منها تردُّ الى قائليها ، او تؤوَّل ، او تضرب عرض الحائط ، وأحرى بالضرب الأقاويل التي تقرر أن للبائنة غير الحاملة حق السكنى[1] .

والإسكان لمن كانت في بيت الزوجية هو استمرارها فيه ، ولمن أخرج عنها هو إرجاعها إليه ، ولمن لم يكن لها سكنى الزوجية، كالتي كانت في بيت أهلها ، أنه لها تهيئة السكنى ، ولمن كانت في بيت بحساب الزوج ، وهو في بيت آخر ، إن ينقلها الى بيته ، فصيغة الإسكان ــ إذاً ــ أشمل من « لا تخرجوهن .. ولا يخرجن » وأخص منها كذلك ، إذ تدل على وجوب كونها معه قدر الإمكان حالة العدة الرجعية ، مهما كان الوجوب قبلها مطلق السكنى .

ثم الإسكان ــ أياً كان ــ واجبه الوُجد « من حيث سكنتم من وُجدكم » : مكاناً تسكنون فيه ، حسب المكنة والمكانة ، على الموسر قدره وعلى المعسر قدره « ولا تضارُّوهن » في الإسكان من حيث الفسحة والمستوى ، ومن حيث النفقة والعشرة ، « لتضيّقوا عليهن » فيلجأن للخروج ، مضارة مقصودة لغاية التضييق ، وأما غير المقصودة ، لقصوره او قتور المال ، فلا جناح فيها ، فـ « لا يكلف الله نفساً إلا ما آتاها » .

---

(١) كما في آيات الأحكام للجصاص : اتفق الجميع من فقهـاء الأمصار وأهل العراق ومالك والشافعي على وجوب السكنى للمبتوتة .

الشامل للسكنى المنفصلة حتى يضعن حملهن [1] ، وللمعتدات الرجعيات الإسكان من حيث سكنى الأزواج ، وبأحرى الإنفاق ، وكما تؤيد ذلك كلّه الروايات .

ومن ثم إذا وضعن حملهن جنينـــاً كاملاً حيّاً ، يأتي دور الإرضاع ، وهي أحق به ولها حق الأجر ، وهما مأموران بالحفاظ على صالح الرضيع :

« فإن أرضعن لكم فآتوهن اجورهن وائتمروا بينكم بمعروف وإن تعاسرتم فسترضع له اخرى » :

فلهن حق الإرضاع وأجرة الرضاعة مع حق النفقة — لأنها من نفقـة الولد التي هي على والده — وليس له استئجار غيرها إلا إذا رضيت، او غلّت الاجرة عن مثلها « فسترضع له أخرى » ، وأما إذا رضيت بالمثل او دونه فليس له أن يحول رضيعها عنها ، إلا لضرورة موجبة او مرجحة ، وإن وجد مَن تأخذ أقل من المثل او ما دونه ، وهذا من الإئتمار بمعروف ، فمن المنكر التعاسر والتناكر والمضارة بحق الرضيع وأمه : « والوالدات يرضعن أولادهن حولين كاملين لمن

= (ص) فقالت:طلقني زوجي البتة فخاصمته الى رسول الله (ص) في السكنى والنفقة فلم يجعل لي سكنى ولا نفقة وأمرني ان اعتد في بيت ابن ام مكتوم .

وروى الزهري عن عبدالله أن فاطمة بنت قيس كانت تحت أبي عمر وابن حفص بن المغـيرة المخزومي ، وأنه خرج مع علي بن أبي طالب (ع) الى اليمن حين أمره رسول الله (ص) على اليمن ، فأرسل الى امرأته فاطمة بنت قيس بتطليقة كانت بقيت لها من طلاقها ، فأمر عياش بن أبي ربيعة والحرث بن هشام أن ينفقا عليها ، فقالا : والله ما لك من نفقة ، فأتت النبي (ص) فذكرت له (ص) قولها ، فلم يجعل لها نفقة إلا أن تكون حاملاً ، فاستأذنته في الانتقال فأذن لها فقالت : أين انتقل يا رسول الله ؟ فقال (ص) : عند ابن ام مكتوم — وكان أعمى — تضع ثيابها عنده ولا يراها ، فلم تزل هناك حتى مضت عدتها ، فأنكحها النبي (ص) اسامة بن زيد .

وفي وسائل الشيعة ١٥ : ٢٣١ باب وجوب نفقة المطلقة رجعياً وسكناها وعدم وجوب ذلك للمطلقة بائناً إذا لم تكن حاملاً ، فيه عشرة أحاديث .

(١) المصدر ص ٢٣٠ باب وجوب نفقة المطلقة الحبلى حتى تضع ، فيه خمسة أحاديث .

لم يقبل ثدي مرضعة اخرى تُجبَر الام بإرضاعه بأجرة المثـــل ، ويُجبَر الأب بهكذا استرضاع ، فإن لم يقدر فكما يستطيع، وأما الام فلا مفرّ لها ولا خلاص – عند الضرورة – عن الإرضاع ، فان مصلحة الحفـــاظ على حياة الرضيع وسلامته فوق المصالح البسيطة المتخيلة بين الوالدين ، كل ذلك فيما إذا لم يغن لبن غير المرضعة ، وإلا فلا إكراه على الام ، إلا حقاً واجباً لها ، وعليها ، شرط أن يصلها حق الرضاعة .

« لينفق ذو سعة من سعته ومن قدر عليه رزقه فلينفق مما آتاه الله لا يكلف الله نفساً إلا ما آتاها سيجعل الله بعد عسر يسراً » :

إن واجب الإنفاق للحامل والمرضعة ، والرضاعة ، ليس إلا على قدر المكنة من الرزق الواسع والمقدور عليه ، فلا تكليف فوق الوسع والطاعة ، وإنما قدر ما آتى الله ، فلو كان معسراً سيجعل الله له يسراً إن اتقى في الإنفاق الواجب عليه : يسراً محتوماً في الآخرة ومرجواً في الدنيا .

فليس للزوج أن يقتُر وله سعة ، ولا للزوجة التعنُّت وزوجها فقير قتير، وإنما ائتمار بمعروف: وصالاً في الرضاع، او فصالاً عن تراضٍ وتشاور فيه للرضع له أخرى ، دون أي استبداد وتأمُّر عليه او تساخط وتباغض فيه ، فكما كان فصالها كوصالها بمعروف ، فليكن كذلك وصال الرضيع وفصاله ، لأنه منهما وأحرى بالرعاية .

ثم الإنفاق المستطاع لا يخص البيئة العائلية ، فانه واجب في كل البيئـــات إنفاقاً في سبيل الله: وهي سبيل مصلحة الإنسان جماعات وفرادى، وكما يفسره الرسول ﷺ بهذا الشمول [١] .

---

(١) الدر المنثور ٦ : ٢٣٧ – أخرج ابن مردويه عن علي (ع) قال : جـــاء رجل الى النبي (ص) كان له مائة اوقية بعشر اواق، وجاء رجل كان له مائة دينار بعشرة دنانير،وجاء =

حِسَاباً شَدِيداً وَعَذَّبْنَاهَا عَذَاباً نُكْراً ــ ٨ . فَذَاقَتْ وَبَالَ أَمْرِهَا وَكَانَ عَاقِبَةُ أَمْرِهَا خُسْراً ــ ٩ . أَعَدَّ اللهُ لَهُمْ عَذَاباً شَدِيداً فَاتَّقُوا اللهَ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ الَّذِينَ آمَنُوا قَدْ أَنْزَلَ اللهُ إِلَيْكُمْ ذِكْراً ــ ١٠ . رَسُولاً يَتْلُوا عَلَيْكُمْ آيَاتِ اللهِ مُبَيِّنَاتٍ لِيُخْرِجَ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَمَنْ يُؤْمِنْ بِاللهِ وَيَعْمَلْ صَالِحاً يُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَداً قَدْ أَحْسَنَ اللهُ لَهُ رِزْقاً ــ ١١ . اللهُ الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ وَمِنَ الْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ يَتَنَزَّلُ الْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ لِتَعْلَمُوا أَنَّ اللهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ اللهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْماً ــ ١٢ .

« وكأيّن من قرية عتت عن أمر ربهـــا ورسله فحاسبناها حساباً شديداً وعذبناها عذاباً نكراً . فذاقت وبال أمرها وكان عاقبة أمرها خسراً » :

القرية هي المجتمع، وهي المجتمعون فيه : « فـــلولا كانت قرية آمنت فنفعها إيمانها » (١٠ : ٩٨) « واسأل القرية » (١٢ : ٨٢) فالمؤمن والمسئول هـــا المجتمعون ، أنفسهم ، دون حاجة الى تجوز بتقدير « أهل » وإن كانت تستعمل في محل الاجتماع أيضاً : « وإذ قلنا ادخلوا هذه القرية فكلوا منها رغداً » (٢ : ٥٨) « أو كالذي مرّ على قرية وهي خاوية على عروشها » (٢ : ٢٥٩) .

ومهما كان الرسول ﷺ ذكراً ، ترى أنه نازل من السماء ؟ « قد أنزل الله » الجواب أن الله ليس في السماء حتى يكون النازل منه نازلاً من السماء ، مهما كان البعض من رحماته المادية نازلة منها ، وإنما الرسالة الإلهية بما أنها من الله لا سواه ، وأن الله ينزلها عن مكانتها العليا لحدّ يفهمها المكلفون — أياً كانوا — لذلك تعتبر نازلة من الله ، وكما القرآن ذكر نازل منه «وإنه في أم الكتاب لدينا لعليٌّ حكيم» : فالقرآن لدى الله في العلم الام عند الله ، عليٌّ عن نيل الأفهام ، حكيم عن هذه التفاصيل والإيضاحات ، فهو هناك ليس قرآناً يُقرء « إنا جعلناه قرآناً عربياً لعلكم تعقلون » فالله أنزله عن علوّه وحكمته وجعله مقروءاً معقولاً .

كذلك الرسالة المحمدية ليست إلا القرآن ، فما كلم رسول الله ﷺ أحداً قط بكنه عقله ، وما عاشر وواجه أحداً بعلوّه ، وإنما كسائر البشر ، موضحاً لهم رسالات ربه هادياً ومبشراً ونذيراً ، وداعياً إليه بإذنه وسراجاً منيراً .

فالرسول مهما كان بقالبه أرضياً ، فهو بقلبه سماوي إلهي يصدر عن وحي ، وهو الذكر النازل ، لا جبريل وإن كان هو أيضاً ذكراً ، ولكنه ليس نازلاً إلينا ، ولا يتلو آيات الله علينا ، وإنما الى الرسول وعليه ، والنص « قد أنزل الله إليكم ذكراً رسولاً يتلوا عليكم آيات الله » :

ذكر نزل عن غموضه ورموزه ، لحدّ يسمعه ويقرأه ويراه ويفهمه إنسان الأرض ، وكما يعرفه ملائكة السماء ، معروف في السماوات والأرض .

« ذكراً رسولاً يتلوا عليكم آيات الله مبينات » لا خافيات ولا مخفيات ، إنما مبينات لما يتطلب البيان ، لكيلا يكون لله على الناس حجة بعد الرسل « ليخرج الذين آمنوا وعملوا الصالحات من الظلمات إلى النور » فهناك ظلمات راسبة فيهم رغم إيمانهم ، فالرسول يخرجهم بتلاوة الآيات — وهي اتّباعها وإتباعها — يخرجهم من ظلمات العقائد والأوهام ، وظلمات الشكوك والأفهام ، وظلمات الأقوال

ومن أظهر المماثلات بين الأرض والسماوات العدد السبع ، أنها سبع منفصلات كما السماوات ، أرضنا هذه وست أخرى أمثالها [١] ، وأخرى في طباقها ، فلتكن الأرضون السبع بعضها فوق بعض طباقاً ، وهي تشمل حدود الفواصل بينها : ان كلاً من هذه السبع في سماء غير الاخرى [٢] ، وكما توحي بها وتفصلها الآيات من « فصلت » : « فقال لها وللأرض أئتيا طوعاً أو كرهاً قالتا أتينا طائعين ، فقضاهن سبع سماوات » فالأرض هنا جنسها ومادتها التي قسمت سبعاً ، وكما السماء هنا غازها ودخانها «ثم استوى إلى السماء وهي دخان» « فقضاهن » : المادةَ الأرضية والدخانَ السماوي (سبعَ سماوات) فلتكن كلٌ من الأرضين السبع في كلٍ من السماوات السبع ، ومماثلة ثالثة في سمتها ، فكما ان كل سماء فوقانية أوسع مما تحتها قضية التداخل الدائري ، فلتكن كل أرض فوقانية أوسع مما تحتها وإن لم يكن ذلك التداخل ولم يمكن ، ورابعة أنها في

(١و٢) وتدل عليها أحاديث مستفيضة من أشملها ما رواه القمي عن أبي الحسن الرضا (ع) في حديث .. هذه أرض الدنيا والسماء الدنيا فوقها قبة والأرض الثانية فوق السماء الدنيا والسماء الثانية فوقها قبة والأرض الثالثة فوق السماء الثانية والسماء الثالثة فوقها قبة والأرض الرابعة فوق السماء الثالثة والسماء الرابعة فوقها قبة – وإلى الأرض والسماء السابقة – .

وهذه الفوقية للارضين بعضها على بعض لا تنافي التعبير بكون الأرض الثانية – مثلا – تحت أرضنا هذه كما رواه في التوحيد عن أبي عبد الله (ع) : ان هذه الأرض بمن فيها ومن عليها عند التي تحتها كحلقة في فلاة في رهاطان ومن فيهما ومن عليهما عند التي تحتها كحلقة في فلاة في – حتى انتهى إلى السابقة وتلي الآية ..

أقول : فمن الصحيح القول : ان الأرض الثانية تحتنا وانها فوقنا ، لأن أرضنا في مركز العالم وحولها السماء الدنيا بما فيها من الأرض الثانية وسواها ، فمن بعض الجهات هذه الأرضون تحتنا ومن بعضها فوقنا قضية كروية الأرض ، فالأرض الثانية مثلاً كائنة في جهة من جهات السماء المحيطة بأرضنا ، ولأن أرضنا تتحرك وضعية وانتقالية فقد تقع الأرض الثانية تحتنا وقد تقع فوقنا ، وفيما إذا لم تكن الحركة هكذا تقتضي ذلك فإن الأرض الثانية تحت البعض من سكنة أرضنا وفوق البعض منهم لأنها كروية ، إذاً فلا منافات بين أحاديث الفوق والتحت .

فآية المماثلة ترمي إلى مماثلتين اثنتين : مماثلة الأرضين السبع مع بعض (من الأرض) ومماثلتها مع السماوات السبع (مثلهن) عرفنا الثانية منهما شيئاً ما فما هي الاولى ؟.

..إنهامتماثلة في المادة المخلوقة منها وسواها كما السماوات: «قل ءإنكم لتكفرون بالذي خلق الأرض في يومين وتجعلون له أنداداً ذلك رب العالمين ، وجعل فيها رواسي من فوقها وبارك فيها وقدر فيها أقواتها في أربعة أيام سواءً للسائلين . ثم استوى إلى السماء وهي دخان فقال لها وللأرض إئتيا طوعاً أو كرهاً قالتا أتينا طائعين . فقضاهن سبع سماوات في يومين وأوحى في كل سماء أمرها وزينا السماء الدنيا بمصابيح وحفظاً ذلك تقدير العزيز العليم » (٤١ : ١٢) .

فالمادة الأرضية هنا تخلق في يومين من التفجرة الاولى في المادة الأمّ (الماء) وتتكامل في أربعة أيام ، ثم هي مع مادة الام السماوية (الدخان) تقسم إلى سبع ، كل منها في كل من السبع السماوات ، فالأخوة بين هذه الأرضين السبع عريقة منذ البدء ، كما الأخوة بين السماوات السبع بأنجمها ، مهما كانت الأم الاولى قبل تفجرها واحدة هي (الماء) [1] .

فالست الباقية مياه وجبال وأشجار وحيوان وإنسان كما لأرضنا هذه نستوحيها من بركاتها وأقواتها، إذ تقتضي من يستفيد منها من دابة، وكما تصرح بها (ومن آياته خلق السماوات والأرض وما بث فيهما من دابة وهو على جمعهم إذا يشاء قدير) (٤٢ :٢٩) : أن في السماوات دواب كما في الأرض ، ومنها ذووا العقول بدليل (هم) في (جمعهم) فإنها لذوي العقول ، وكما توحي به هنا « يتنزل الأمر بينهن » : أمر الله تكويناً وتشريعاً ، فلا بدّ لذوي العقول من

---

(١) نبحث عن المادة الام « الماء » في سورة هود الآية ٧ : وهو الذي خلق السماوات والأرض في ستة أيام وكان عرشه على الماء راجع « ستار كان » من الصفحة ١٣ – أيضاً .

ولسنا ممن يحصر هذه المدن وهؤلاء العقلاء بالأرضين السبع ، وإنما نقول منها الأرضون السبع ، المتماثلة فيما لها مادياً ومعنوياً ، يعبدون الله كما نعبده ويسجدون له كما نسجد : « ولله يسجد ما في السماوات وما في الأرض من دابة والملائكة وهم لا يستكبرون . يخافون ربهم من فوقهم ويفعلون ما يؤمرون » (١٦ : ٥٠).

فالأرضون السبع هي من جملة مساكن الدواب والعقلاء المتمدنين والمتشرعين يتنزل أمر الله تكويناً وتشريعاً بينهن وبين سماواتها : « يتنزل الأمر بينهن » دون اختصاص للأمرين بكرتنا الأرضية ، مهما كانت هي المحور الرئيسي للرسالات الإلهية كما تدل عليه الآيات التي تجعل الرسول محمداً ﷺ محور الرسالات كلها ، وهنا أحاديث حول الأرضين الست الباقية ، في قياسها بالنسبة إلى بعض سعة وضيقاً ، لا نصدق منها إلا أصل الإختلاف بينها طباقاً كما في السماوات ، وفي فواصلها ، ولا نقبل منها ما يخالف الحس وحجة الكتاب ، التي تجعل السماء الاولى سماء الأنجم ، فأين خمسمائة عام وملیارات الأعوام التي تفصل بين البعض من مجراتها ، فضلاً عما فوقها من سماوات ، وإلى غير ذلك مما لا يصدق إلا ما يصرح به أو يوحيه القرآن ، وقد تحتمل صدق البعض مما لا ينافي القرآن .

والبشرية حتى الآن على جهدها الكبير وتحملها العسير الكثير الكثير ، ما وصلت لحد العلم ان وراءَ أرضنا هذه حياة كحياتنا ، أو حياة حيوانية أو نباتية فضلاً عن الإنسانية ، والقرآن النازل قبل أربعة عشر قرناً يخبرنا بكل هذه الحقائق وكما تكفلت آية واحدة في « الشورى » لإثبات وجود حياة نباتية

= الرسول والأئمة من آل الرسول (ص) تدلنا على وجود العقلاء المكلفين المتمدنين في السماوات كما استوحيناه من الآيات .

مثل ما رواه في البحار ٦ : ٥٠٧ عن الصادق (ع) يقول : إن جبرئيل احتمل رسول الله (ص) – إلى أن قال – ثم صعد بي إلى السماء السادسة فإذا فيها خلق كثير يموج بعضهم في بعض وفيها الكروبيون ثم صعد بي إلى السماء السابعة فابصرت فيها خلقاً وملائكة .

(سورة التحريم – مدنية – وآياتها اثنتا عشرة)

بِسْمِ ٱللهِ ٱلرَّحْمٰنِ ٱلرَّحِيمِ . يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَا أَحَلَّ اللهُ لَكَ تَبْتَغِي مَرْضَاةَ أَزْوَاجِكَ وَاللهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ – ١ . قَدْ فَرَضَ اللهُ لَكُمْ تَحِلَّةَ أَيْمَانِكُمْ وَاللهُ مَوْلَاكُمْ وَهُوَ ٱلْعَلِيُّ ٱلْحَكِيمُ – ٢ . وَإِذْ أَسَرَّ النَّبِيُّ إِلَى بَعْضِ أَزْوَاجِهِ حَدِيثاً فَلَمَّا نَبَّأَتْ بِهِ وَأَظْهَرَهُ اللهُ عَلَيْهِ عَرَّفَ بَعْضَهُ وَأَعْرَضَ عَنْ بَعْضٍ فَلَمَّا نَبَّأَهَا بِهِ قَالَتْ مَنْ أَنْبَأَكَ هٰذَا قَالَ نَبَّأَنِيَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْخَبِيرُ – ٣ . إِنْ تَتُوبَا إِلَى اللهِ فَقَدْ صَغَتْ قُلُوبُكُمَا وَإِنْ تَظَاهَرَا عَلَيْهِ فَإِنَّ اللهَ هُوَ مَوْلَاهُ وَجِبْرِيلُ وَصَالِحُ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمَلَائِكَةُ بَعْدَ ذٰلِكَ ظَهِيرٌ – ٤ . عَسَىٰ رَبُّهُ إِنْ طَلَّقَكُنَّ أَنْ يُبْدِلَهُ أَزْوَاجاً خَيْراً مِنْكُنَّ مُسْلِمَاتٍ مُؤْمِنَاتٍ قَانِتَاتٍ تَائِبَاتٍ عَابِدَاتٍ سَائِحَاتٍ ثَيِّبَاتٍ وَأَبْكَاراً – ٥ .

له خاصة[1] « أحل الله لك » بما حلف على تركها « قـــد فرض الله لكم تحلّة أيمانكم ... » .

وكما ورد في مستفيض الأخبار انه ﷺ تزوج بامرأة ووطئهـــا سراً عن بعض نسائه ، فلما عرفن هددنه بالمظاهرة عليـه فحلف على ترك وطئها .. ترى أليس واجبه ﷺ إذ ذاك أن يحلف بالله على ترك مـا أحله الله وأباحه عليه ، فراراً عمـــا حرّمه الله من انتهاك حرمته ، وانفتاك كرامته ! قبل أن يأتيه الأمـان بالوحي – كما أتى – بالضمان عن بأسهن ، وأن يحلّ يمينه ويرجـــع الى الحلّ .

فخلاف مـا يزعمه غير المتأنقين ، هذه الآيات ليست تنديداً بالنبي ﷺ ، وإنما هي تهديد بنسائه المظاهرات ، إكراماً له زائداً على غيره ، ولكي يحل من أسر التحريم الشرعي بالحلف عنـــد المحظور ، بإزالة موضوعه وهو الخوف عن مواصلة الحلال ، والحكم بحرمة الإخافة على نسائه المظاهرات ، معالجة لطيفـة طيبة لمشكلة بيتية للنبي ﷺ تدرس فيهـا بوجه عام أيضاً ، أن خلق المشاكل في ممارسة الحلال محرّم في شريعة الله ، وإن كان الحلال مما يبغضه الطرف المقابل ، كأن تتزوج بزوجـــة على زوجتك ، فمهما كان صعباً عليها ، فحرام عليها خلق المشاكل لإجـاء الزوج على ترك الحلال ، عملياً او بالحلف او الطلاق ، اللهم إلا ألا يعدل ، وإن خفتم ألا تعدلوا فواحدة ، فتنهاه فيمن تنهـاه عن منكر الظلم وإن كان انتهاؤه بالطلاق ، او أية وسيلة محللة اخرى .

وكما ترى أن الله يلقي حبل هـــذه المشكلة على عواتق النساء ، فيكفيه شرّهن ويهددهن بالطلاق ، خلاف مـا رغبنه تماماً أن يطلق او يفـــارق الجديدة دونهن .

---

(١) إذ أحل الله له أكثر من أربع نسوة . وقد كانت عنده حينئذ أكثر من أربع فتزوج غيرهن عليهن .

فلما توفي تزوجها رسول الله ﷺ لكي لا يؤثر فيها ترملها ، وأنها فقدت زوجها وليس لها من كفيل ، كلا ! إن كفيلك رسول الله ﷺ !.

ثم تزوج عائشة بنت أبي بكر وهي بِكر، ولم يتزوج بِكراً سواها، وكانت معه – الى أن توفي – تسع سنوات وخمسة أشهر ، تزوجها لعلل سياسية .

ثم تزوج حفصة بنت عمر ، وهي ثيب ، بعدما عرضها أبوها على أبي بكر وعلى عثمان فلم يستجيبا ، تزوجها بنفس العلل ، وأن يصلح مرفوضة ، فيصلح أباها أيضاً .

ثم تزوج زينب بنت خزيمـــة ، وكان زوجها الأول عبيدة بن الحارث بن عبد المطلب ، وقد قُتل يوم بدر ، او عبدالله بن جحش المستشهد يوم أحـــد ، تزوج بهـــا ليشجع المقاتلين للحرب فلا يعتبروا أهلهم هدراً إن قُتلوا ، فالنبي ﷺ بشخصه الكريم كفيلهن كرامة وكرماً .

وكذلك تزوج أم سلمة ، وقد قُتل زوجها ابو سلمة في أحد ، فتزوجها النبي ﷺ وضمّ إليه عيالها من ابي سلمة ، ولأنها كانت مؤمنة طاهرة .

وتزوج زينب بنت جحش – كما أسلفنا – لمهمة تحليل حلائل الأدعياء، ولو كان القصد من زواجها شهوة الجنس والجـــال فحسب ، فلماذا زوّجها زيداً ، وكانت منذ البدء راغبـــة فيه ﷺ وهي بنت عمته ﷺ وكانت رافضة لزيد وهي غريبة عنه ؟.

ثم تزوج جويرية بنت الحارث سيد بني المصطلق ، إذ قسم رسول الله ﷺ سبايا بني المصطلق فوقعت هي في أسهم الثابت ابن قيس فكاتبته على نفسها فأتت رسول الله ﷺ قـــائلة : جئتك أستعينك على كتابتي ، فقضى عنها رسول الله ﷺ وتزوجها برضاها ورغبتها ، محرراً في هـــذا الزواج إياها عمن لا ترغب إليه وهي راغبة إليه ﷺ .

ثم تزوج أم حبيبـــة بنت أبي سفيان ، وكانت مهاجرة مسلمة في الحبشة ،

الله له ؟ ثم يذكر سببين لهذا التحريم: « تبتغي مرضاة أزواجك » ، والثاني هو الخوف عن مظاهرتهن كما يتبين من بقية الآيات، ولكي نعرف أنه ﷺ ما فعل محظوراً في الشريعة يبادر بالغفران « والله غفور » وبالرحمة البالغة « رحيم » ، فلو كان إثماً لم يغفر إلا بالتوبة وليست هنا ، وعلّ الغفر هنا هو الستر على ما كان يخشاه منهن ، والغفر على الحرمة الحاصلة باليمين إذ فرض له تحلّته :

« قد فرض الله لكم تحلّة أيمانكم والله مولاكم وهو العليم الحكيم » :

والتحلة المفروضة ليست هي التحلل عن مطلق الأيمان بالكفارة ، فانه حرام لكونه حنثاً لما فرض ، وإنما هي التحلل عما حرّم باليمين دون مبرر واقعي ، وإن كان له مبرر حسب ما يراه الحالف ، وتحلة يمين النبي كانت بأداء الكفارة ، فالتحلل عما حرم على نفسه .

فمخالفة اليمين كيفما كان تقتضي الكفارة، سواء أكان الحنث واجباً كما هنا، أم حراماً كما في الأيمان الموافقة لواقع المرجوحية ، كما يحلف على ترك الحرام أو المكروه أو المباح المرجوح لضرر أو مثله ، ووجوب الحنث أو جوازه هناك دليل عدم انعقاد اليمين في الواقع ، وإنما الكفارة للحفاظ على كرامة اليمين .

ولقد حلف النبي ﷺ على ترك مارية لمرضاة أزواجه وخوف مظاهرتهن ، فيما رآه النبي قبل تأمين الله وتضمينه الحفاظ عليه ، فلما زال سبب الخوف ، وأن مرضاة الأزواج لا تبرر تحريم الحلال ، ولا ينعقد الحلف عليه ، حينذاك فرضت عليه ﷺ تحلة يمينه هذا وقد أحلّ .

وهذا فرض للحالف وليس عليه « قد فرض الله لكم » وهذا ما تقتضيه ولاية الله علينا : أنه يحبنا ويتولى أمورنا ، فلذلك يفك أسرنا عن أمثال هذه الأيمان ، ويبدل عسرنا باليسر « وهو العليم الحكيم » .

من هنا نعرف أن تحريم ما أحله الله لا يبرره شيء ، إلا أن يحرم بعنوان

أو أنـــه تحريمه مارية على نفسه ؟ فكذلك الأمر ! إضافة إلى كونه بشارة لأزواجه تتطلب الإعلان ، لا الإسرار !

أو انـه تبشيره إياها بخلافة أبيها وأبي بكر ؟ فكذلك الأمر ! فإنها بشارة لها ، فإن كانت حقاً فلماذا الإسرار ، وإن كانت باطلاً فحاشا النبي عن الباطل ، إضافة إلى أن « حديثاً » لزامـــه هنا العلاقة بقصة مارية ، وأن إفشائه يخلق مظاهرة الإمراتين « .. وإن تظاهرا عليه » تهديداً بعد الإفشاء !

والقول الفصل هنا أن « حديثاً » هـذا ، حديث متبعض « عرف بعضه » يستحق الإسرار حفاظاً عن كرامة النبي ، التي تمس منها بمظاهرتها ، وله علاقـة عريقة بالقضايا النسائية تحرضهن على المظاهرة ، فما هو إذاً ؟

علتّه أو منه قصة مارية ، وأنه حرمها على نفسه ، أسرّ المجموع إلى حفصة ، إبقاءً للسر في البعض الأول ، وإسراراً لما حلف في الثاني ، وكان الثاني ضماناً لعدم إفشاء القصة في أولاها ، فلما نبأت عائشة بهما – ممـــا أبدى فيها الغيرة النسائية فأخـذتا في التظاهر عليه – « وأظهره الله عليه » لكي يسد باب الشرّ منذ البدء لكيلا يبلغ إلى الشرّه « عرف بعضه » وعلتّه قصة الحلف « وأعرض عن بعض » أصل القصة ، حياءً منه ، واتقاء من تدهور الوضع لو كرر التصريح به « قالت » متحيرة « من أنبأك هذا » ؟ إذ كان الحديث بعدُ بينهما ، ولا يعقل أن تنبئه ﷺ زميلتُها في المظاهرة ، أتفشيلاً للمخطط الذي تتقصّدان؟! «قال نبأني العليم الخبير » ولكي تعلما أن الله معه ، ويخبره بالمؤامرات والمكائدات المحبوكة وراء الأستار ، فتكسرا من ثورتهما ، وتقلاّ من فورتهما ضده ﷺ .

« إن تتوبا إلى الله فقد صغت قلوبكما وإن تظاهرا عليه فإن الله هو مولاه وجبريل وصالح المؤمنين والملائكة بعد ذلك ظهير » :

« إن تتوبا إلى الله » تثبت أنهما عملتا أمراً يسخط الله في إيذاء رسول الله ،

موالاته له ﷺ في هذه المعركة الضارية، ومعه وبأمره جبريل وصالح المؤمنين والملائكة ، ما لا نجد مثلها في أية معركة أبداً .

أمظاهرة على الرسول الأقدس الطاهر ﷺ ، ناشئة من بيته عن زوجتيه ؟ لأنه قارب حليلة من حلائله ، دون أن يقارف خطيئة ! فهذا إيذاء للنبي ﷺ ولحدّ الكفر « والذين يؤذون رسول الله لهم عذاب أليم » (٩ : ٦١) « إن الذين يؤذون الله ورسوله لعنهم الله في الدنيا والآخرة وأعدّ لهم عذاباً مهيناً » (٣٣ : ٥٧) كيف لا ! وإيذاء المؤمنين إثم مبين فضلاً عن الرسول ﷺ : « والذين يؤذون المؤمنين والمؤمنات بغير ما اكتسبوا فقد احتملوا بهتاناً وإثماً مبيناً » (٣٣ : ٥٨) [1] .

وفيما إذا سئلنا : كيف كان بإمكان الإمرأتين المظاهرة على الرسول ﷺ ولم تكن لهما مُسكة إلا قصة مارية المحللة له ﷺ ؟

فالجواب : أنهما تشاورتا فاختلفتا من ورائها فاتكة الإفك المشهورة : « إن الذين جاءوا بالإفك عصبة منكم لا تحسبوه شراً لكم بل هو خير لكم لكلّ امرىء منهم ما اكتسب من الإثم والذي تولى كبره منهم له عذاب أليم . لولا إذ سمعتموه ظن المؤمنون والمؤمنات بأنفسهم خيراً وقالوا هذا إفك مبين . لولا جاءوا عليه بأربعة شهداء فإذ لم يأتوا بالشهداء فأولئك عند الله هم الكاذبون . ولولا فضل الله ورحمته في الدنيا والآخرة لمسّكم فيما أفضتم فيه عذاب عظيم . إذ تلقّونه بألسنتكم وتقولون بأفواهكم ما ليس لكم به علم وتحسبونه هيّناً

---

(١) الدر المنثور ٦ : ٢٤٣ – أخرج عبد بن حميد ومسلم وابن مردويه عن ابن عباس قال : حدثني عمر بن الخطاب قال : لما اعتزل رسول الله (ص) نساءه ... دخلت على عائشة فقلت : يا بنت أبي بكر ! أقد بلغ من شأنك أن تؤذي رسول الله (ص) ؟ قالت: ما لي ولك يا ابن الخطاب! فدخلت على حفصة فقلت لها : يا حفصة ! أقد بلغ من شأنك أن تؤذي رسول الله (ص) !... الى أن قال : والله لئن أمرني رسول الله (ص) بضرب عنقها لأضربن عنقها .

ويُروى أيضاً غير ذلك [١] وعلّتها معاً معنيان في آية الإفك ، مهما اختصت آية المظاهرة بما افتعلت الإمرأتان على ام إبراهيم .

هنالك الله يهددهما عن مظاهرتها كتلك الفادحة الفاضحة القادحة « إن الله هو مولاه » كولاية أصيلة « وجبريل » كحامل للوحي ، ومنه إنبساؤه ﷺ بكشف السر « وصالح المؤمنين » كعلي عليه السلام إذ تثبّت في أمر ابن جريح فأثبت براءته ، كما الله كشف عنه حتى ابرز كونه ممسوحاً فتبرء من الإفك « والملائكة

= تحت ثيابه ، فلما ولى من بين يدي رسول الله (ص) التفت اليه فقال : يا رسول الله ، أكون فيما أمرتني كالسكة المحمية في العين ؟ والشاهد يرى ما لا يرى الغائب ؟ فقال له النبي (ص) : فديتك يا علي، بل الشاهد يرى ما لا يرى الغائب ، فاقبل علي (ع) وسيفه في يده حتى تسور من فوق مشربة مارية وهي في جوف المشربة جالسة وجريح معها يؤدبها بآداب الملوك ويقول لها: عظمي رسول الله (ص) ولبيه وكريمه ... ونحو هـذا الكلام ، حتى التفت جريح الى أمير المؤمنين (ع) وسيفه مشهور في يده ، ففزع جريح الى نخلة في المشربة فصعد الى رأسها ، فنزل أمير المؤمنين (ع) الى المشربة وكشفت الريح عن أثواب جريح فإذا هو خادم ممسوح، فقال له: إنزل يا جريح ! فقال : يا أمير المؤمنين ، آمناً على نفسي ؟ فقال : آمناً على نفسك ، فنزل جريح فاخذ بيده وجاء به الى رسول الله (ص) فاوقفه بين يديه ، فقال له : يا رسول الله ، إن جريحاً خادم ممسوح ، فولى رسول الله (ص) فقـال : جل لما نفسك لعنهما الله يا جريح حتى يتبين كذبهما وخزيهما وجرأتهما على الله وعلى رسوله ، فكشف أثوابه فإذا هو خادم ممسوح ، فاسقطا بين يدي رسول الله (ص) وقالا : يا رسول الله التوبة ...

وعن أبي عبدالله (ع) أنه سئل : كان رسول الله (ص) أمر بقتل القبطي (يعني جريح) وقد علم أن عائشة كذبت عليه او لم يعلم ، وإنما دفع الله عن القبطي القتل بتثبيت علي (ع) ؟ فقال (ص) : بل كان والله علم ، ولو كانت عزيمة من رسول الله (ص) ما انصرف علي (ع) حتى يقتله ، ولكن إنما فعل النبي (ص) لترجع (عائشة) عن ذنبها ، فما رجعت ولا اشتد عليها قتل رجل مسلم بكذبها .

(١) كما في الدر المنثور أنها نزلت في عائشة وما رميت به في غزاة بني المصطلق من خزاعة، ولا منافاة بين النقلين كما قلنا .

منكن مسلمات ... ولا يقول : خيراً منكن في الإسلام و ... وإنما « مسلمات مؤمنات ... » مما يوحي ان الخير في المبدلات بهن هو أصل هذه الصفات .

فزوجية المرأة للنبي ليست كرامة إلا مع التقوى فلهـــا ضعف ما لغيرها : « فإن الله أعدّ للمحسنات منكن أجراً عظيماً » ، وأما مع الطغوى فعليها ضعف العذاب « من يأتِ منكن بفاحشة مبينة يضاعف لها العذاب ضعفين وكان ذلك على الله يسيراً » (٣٣ : ٢٩ – ٣١) .

وهذه الصفات هي خير ما تتواجد في النساء ، فلو كانت هنـــاك خير منها لذكرت ، ولا سيما للرسول المصطفى الذي يحق أن تصطفى له خير النساء .

فالإسلام هو التسليم للحق أياً كان ولو على نفسك ، ومنه التسليم لحكم الله في حلية تعدُّد النساء .. والإيمان هو الإطمئنان بالله والأمان الى الله .. والقنوت هو الطاعة والخضوع ، والتوبة هي الرجوع عما يقارف من خطيئة ، والسياحة هي التأمل والتدبر في مبدعات الخلقة بصراً وبصيرة ، وهن مع هـذه الصفات بين أبكار وثيبات كما هن .

إذاً فطلاقكن ليس إلا طلاق نساء عاديات من أبكار وثيبـات ، فتبديلكن بطيبات راقيات لهن مـا لهن من الجواذب النسائية وزيادات خلقية ومعنوية ، فلمَ هذه المظاهرات النكراء ضد الرسول الطاهر الأمين ؟!.

ولكي يرغم الرسول ﷺ أنوف المظاهرات اعـــتزل عنهن تسعة وعشرين يوماً ، ظل فيها عند مارية القبطية ، تأديباً لهن ، وتطهيراً لها عما نُسب اليها ، فظنّ أنه طلقهن ولمّا ، حتى طمأنه الله بما مضى وخلص دور التأديب والتأنيب فرجع اليهن .

* * *

أَبْنَتَ عِمْرَانَ الَّتِي أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهِ مِنْ رُوحِنَا وَصَدَّقَتْ بِكَلِمَاتِ رَبِّهَا وَكُتُبِهِ وَكَانَتْ مِنَ الْقَانِتِينَ ـ ١٢ .

وكما لا يحدي نساءَ النبي ﷺ كونهن نساءَه إلا أن يكنّ قانتات عابدات صابرات مجاهدات ، كذلك المؤمن لا يكفيه إيمانه ما لم يَقِه وأهليه ناراً :

« يا أيها الذين آمنوا قوا أنفسكم وأهليكم ناراً وقودها الناس والحجارة عليها ملائكة غلاظ شداد لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون » :

إن وقاية الإيمان لا تكفي كعقيدة ، إلا بانضمام وقاية عمل الإيمان ، لا للمؤمن نفسه فحسب ، وإن وجب كمبدء « قوا أنفسكم » فللأهلين أيضاً « وأهليكم » لأنه مكفل بهم كما بنفسه ، وإن كان الأهلون أيضاً يؤمرون بوقاية أنفسهم ، فإنهم مكلفون ، إلا أن نقصهم وقصورهم في تكفلهم أنفسهم هنا يُجبر بوقاية وقيادة حكيمة ممن بأهلهم ويرعاهم فـ (كلكم راع وكلكم مسئول عن رعيته) .

والوقاية هنا تشمل المعرفية العقائدية والعملية [1] للأنفس والأهلين ، أن (تأمروهم بما يحبه الله وتنهوهم عما يكره الله) [2] ، فأبواب الجهاد والدفاع

---

(١) الدر المنثور ٦ : ٢٤٤ - عن علي (ع) في الآية ، قال : علموا أنفسكم وأهليكم الخير وأدبوهم .

(٢) أخرجه في الدر المنثور ٦ : ٢٤٤ - عن زيد بن أسلم قال : تلا رسول الله (ص) هذه الآية فقالوا : كيف نقي أهلنا ناراً ؟ قال : ... وفي الكافي مثله عن الامام الصادق (ع) مع زيادة : لما نزلت هذه الآية جلس رجل من المؤمنين يبكي ويقول : أنا عجزت عن نفسي وكلفت أهلي ! فقال (ص) : حسبك أن تأمرهم بما تأمر به نفسك وتنهاهم عما تنهى عنه نفسك .

واتقاداً ، وطالما قد تمسُّ المؤمنين غير الواقين أنفسهم وأهليهم ناراً ثم يرحمون ، لكنها للكافرين الوَقود عذاب الخلود :

« يا أيها الذين كفروا لا تعتذروا اليوم إنما تُجزون ما كنتم تعملون » :

إنهم لا ينفعهم الإعتذار ، بل : « ولا يُؤْذن لهم فيعتذرون » (٧٧ : ٣٦) فمم يعتذرون ؟ هـــل من أعمالهم النحِسة التي أصبحت لزام ذواتهم ؟ وليس جزاؤهم إلا أعمالهم ! « إنمـــا تُجزون ما كنتم تعملون » : في صور الأعمال وأصوات الأقوال ، والإنحرافات النفسية التي تتجلى لهم فيفضحون ، وفي حقائقها التي تبرز لهم فهم بها يعذبون : « لقد كنت في غفلة من هذا فكشفنا عنك غطاءك فبصرُك اليومَ حديد » (٥٠ : ٢٢) .

هذا — ولكنما المؤمن له اعتذار يوم الدنيا بتوبة نصوح ، ويوم الدين بما يكفّر له ، فان كبائر الحسنات والسيئات فعلاً وتركاً تعذره عن صغائرها :

« يا أيها الذين آمنوا توبوا إلى الله توبة نصوحاً عسى ربكم أن يكفر عنكم سيئاتكم ويدخلكم جنات تجري من تحتها الأنهار ... » :

إن التوبة النصوح هي البالغـــة في النصح ، أن يناصح فيها التائبُ نفسَه ، ويبذل مجهوده في إخلاص الندم ، إزالة لآثار العصيان الغابر ، والعزم على تركه في المستقبل والحاضر ، فان التوبة وهي الرجوع الى الله عن حجاب الذنب ، إنه درجات ، كما ان المعـــاصي دركات ، فأفضل درجات التوبة هي النصوح : الناصحة للقلب المخلّصة له من رواسب المعاصي وعكارها ، الحاضّة للعمل الصالح بعدها ، العائشة القلب مذكرة مكررة النصح بعدم العَود :

(أن يندم العبد على الذنب الذي أصاب فيعتذر الى الله ثم لا يعود اليه كما

وهذه التوبة من أنجح الوقايات عن النار بعد وقاية التقوى ، تكفر السيئات وتدخل الجنات « ويدخلكم جنـات تجري من تحتها الأنهار » إضافة الى سائر المكفّرات المكررات طيّات آياتها .

« ... يوم لا يخزي الله النبي والذين آمنوا معه نورهم يسعى بين أيديهم وبأيمانهم يقولون ربنا أتمم لنا نورنا واغفر لنا إنك على كل شيء قدير » :

هـذه المكرمة الإلهية للمؤمنين الواقين أنفسهم وأهليهم ناراً ، التائبين توبة نصوحاً ، إنهـا تكون « يوم لا يخزي الله النبي والذين آمنوا معه .. » : أن يسوّي بينهم وسواهم ، ويا له من تكريم عظيم أن يضمهم الى نبيـه فيجعلهما في صف واحد في المكرمة يوم الخزي ، لأنهم « آمنوا معه » : إيمانهم من إيمانه ، فالمعية الإيمانية توحي بدرجات عالية من إيمان ، مهما كان المؤمنون معه درجات ، فإن الله يضمّ التائبين إليه إذ كانوا من حزبه معه ، مهما قصّروا أو قصّروا ، ما كان حياتهم - كمبدء - ايمانية تائبة آئبة .

«نورهم يسعى بين أيديهم وبأيمانهم» .. «نورهم» الخاص بهم بسعيهم « يسعى » لا - نورٌ - فنورهم ليس ظاهرياً منفصلاً عنهم حتى يمكن الإقتباس منه ، وإلا لم يختص بما بين الأيدي والأيمان : نوراً ضنيناً لا يشمل ا « يوم يقول المنافقون والمنافقات للذين آمنوا انظرونا نقتبس من نوركم قيل ارجعوا وراءكم فالتمسوا نوراً ... » (٥٧ : ١٣) فهو النور الذي حصله المؤمن من ورائه : حيـاته الدنيا ، وهو لزام لأهله لا يعدوه « ومن لم يجعـل الله له نوراً فما له من نور » (٢٤ : ٤٠) .

إنه برهان ونور إلهي : « .. قد جاءكم برهان من ربكم وأنزلنا إليكم نوراً مبيناً » (٤ : ١٧٤) وهو الإيمان الناتج عن نور البرهان «أفمن شرح الله صدره للإسلام فهو على نور من ربه » (٣٩ : ٢٢) وهو العمل الصالح الذي ينتجـه

فهنالك يُلهم المؤمن ذلك الدعاء ، حين يُلجم غيره عن كل دعوة ودعاء ، وذلك الإلهام علامة الإستجابة ، وإلا فلماذا السماح به ؟ وأنه من إكرامه ، كما أن في رده خزيه ، فالغفر عن نقصان الإيمان وما يتطلبه الإيمان ، إنه تتميم لمثلث النور بين يديه وعن يمينه ، مهما كان نور الهداية تاماً لا يحتاج إلى الإتمام .

« يا أيها النبي جاهد الكفار والمنافقين وأغلظ عليهم ومأواهم جهنم وبئس المصير » :

فإن المنافق والكافر نار حيثما دار ، وإخماد النار واجب المؤمنين الأحرار ، ولكي تبقى الحياة سليمة أمينة .

إن جهاد المنافقين والكفار – وهو بذل الجهد في إصلاح الأمر – هو من مخلفات الوقاية للأنفس والأهلين ، فالواجب على المؤمنين حماية المحَضن الذي تتم فيه الوقاية من النار ، فلا تُترك العناصر المفسدة تهاجم المسلمين من خارج كما الكفار ، ولا من داخل كما المنافقون ، مهما اختلف الجهاد الحربي بينهما ، دفاعاً في المنافقين ، وحرباً في الكفار ، فالكافر يُحمل إما على الإسلام الإقرار ، أو الجزية أو الحرب ، فإلى دار البوار ، والمنافق يُحمل على الإيمان أو دفع الشر ، فان حارب حورب ، دون جزية ولا حرب بدائية بغية الإقرار ، وفيما إذا طلب أمر الإصلاح للجماعة المسلمة الغلظ عليهما « واغلظ عليهم » بما يدفع شرهم ويخمد نارهم . وقد يكون الغلظ على المنافق أشد منه على الكافر ، لأنه عدوّ من داخل ، فخطورته أكثر ، وكما أن عذابه أحياناً أشد وأوفر : « إن المنافقين في الدرك الأسفل من النار » – « ومأواهم جهنم وبئس المصير » .

وأخيراً مثال واقعي للمؤمنين يُطمئنهم في الإيمان ، وللكافرين يخيّب آمالهم :

« ضرب الله مثلاً للذين كفروا إمرأة نوح وإمرأة لوط كانتا تحت عبدين

ثم إنها خيـانة تدخل صاحبها النار ، فليست إذاً نشوزاً في الامور البيتية العادية فحسب ، وإنما التي تحقق جزاء النـار من الكفر ومخلفاته ، ومنها ثالث ثلاثة : « وأهليكم ناراً » فلم ترضيا إلا التخلف عن الوقـاية ، ومنها كشف السرّ ، وكما يُروى في امرأة لوط (أنهـا كانت تخرج فتصفّر ، فإذا سمعوا الصفير جـاءوا) [1] يعني قومه ، كما وان امرأة نوح كانت تسخر منه مع الساخرين ، وتقول إنه لمجنون مع القائلين .

ومن الاولى نستطيع أن نحمّلها كل شيء إلا فاحشة الزنا ، وكما يُروى عن الرسول ﷺ (ما بغت امرأة نبي قط) [2] ، فبهذا الثالوث المنحوس ، ولا سيما أقنوم الكفر ، استحقتا دخول النار رغم أن زوجيهما نبيّان :

« فلم يغنيا عنهما من الله شيئاً وقيل ادخلا النار مع الداخلين » : فلا تغني من الله إلا تقوى الله ، دون أواصر القربى مع أولياء الله ، فقد دخلتا النـار (في البرزخ) وستدخلانها يوم القيامة ، مع الداخلين ، دون ميزة ولا كرامة ، إنما مهانتين كسائر المهانين اليها ، والقائل مجهول « وقيل » إشارة إلى أن القيل لهما كسائر القيل لسائر الداخلين ، بل إن مهانتهما أكثر ممن سواهمـا لأنهما هتكتا ساحة النبوة ولوّثتا جوّهـا بإطالة ألسنة الناس على العبدين الصالحين « يا نساء النبيّ مَن يأتِ منكن بفاحشة مبيّنة يضاعف لها العذاب ضعفين وكان ذلك على الله يسيرا » (٣٣ : ٣٠) .

---

(١) نور الثقلين ٥ : ٣٧٦ في علل الشرائع عن أبي عبدالله (ع) قيل له : كيف كانت يعلم قوم لوط انه قد جاء لوطاً رجال ؟ قال : كانت امرأته ...

(٢) الدر المنثور – أخرجه ابن عساكر عن اشرس الخراساني يرفعه إلى النبي (ص) ...

وإنها لنموذج عالٍ في الإستعلاء على عَرَض الحياة وزَهرتها في أجل صورة وأزهرها، والتجرُّد لله من كافة الجواذب المتخلفة، والهواتف المضللة، والمعوقات القوية، ولتسمح لنفسها أن تطلبه هذا الطلب العظيم :

« ربِّ ابنِ لي عندك بيتاً في الجنة » : فـ « ربِّ » توحي باختصاصها بتربية خاصة إلهية تنجيها عن هـذه الورطة المهلكة، و « ابنِ لي » رفض لكل عامر ملائكي وسواه الى معمار الكون أن يبني لها بيتاً بمشيئته دون وسائط، و« عندك » لا تعني عندية مكانية فانه تعالى ليس له مكان، إنما عندية المكانة أن يبني بيتها في أرفع مكان وأعلى مكانة في الجنة حيث مسكن الأنبياء !

ثم تطلب النجاة المثلث من : « فرعون » الجاهل « وعمله » الباطل و « من القوم الظالمين » الباطلين الجاهلين .

ومتى تطلب ؟ هل بعـد أن تأخذها الورطة الفرعونية الى حزبه ؟ فكيف طلبت أولاً أقرب الأقربين ! كلا ! إنما تطلب نجاتها بالنزوح عن هذا الجو الطائش الى جوار رحمة الله، أن يقبضها الله إليه، وقد كانت في اللحظات الأخيرة من حياتها تحت مختلف ألوان العذاب الفرعوني، ومنها انه (وتدَ لامرأته أربعـة أوتاد في يديها ورجليها وأضجعها على صدرها وجعل على صدرها رحى واستقبل بها عين الشمس، فكانوا إذا تفرقوا عنها أظلتها الملائكة، فرفعت رأسها الى السماء فقالت : « رب ابن لي عندك بيتاً في الجنة — الى — الظالمين » فكشف لها عن بيتها في الجنة فرأته [1] .

« ومريم ابنت عمران التي أحصنت فرجهـــا فنفخنا فيه من روحنا وصدّقت بكلمات ربها وكتبه وكانت من القانتين » :

---

(١) الدر المنثور ٦ : ٢٤٦ — أخرجه من عدة طرق عن عدة من الأصحاب والتابعين .

وقد نذرت أمها ما في بطنها محرراً: «فلما وضعتها قالت رب إني وضعتها أنثى.. وإني سمّيتها مريم وإني أعيذها بك وذرّيتها من الشيطان الرجيم . فتقبّلها ربها بقبول حسن وأنبتها نباتاً حسناً .. » (٣ : ٣٧) : تقبّلها ربها مريم كما سميت وهي : الغالبة ، وتقبّل إعاذتها وذرّيتها من الشيطان الرجيم ، فهي إذاً غالبة معوّذة من الشيطان عند الله ، ونابتة نباتاً حسناً عند الله ، ومن غلبتها التغلب على النوازع الجنسية وجواذبها وهي في عنفوانها ، وهي بمعرض مختلف الرجال في بيت الله ليل نهار، فهذا الإحصان مما يتطلب إحساناً عالياً لها من الله المنّان ومن أحسنه أن تنفخ في محل الإحصان روحاً منه ، فقد جمع الى الدافعين الأولين لذكر الإحصان هذا الثالث فاكتمل لها مثلث الإحصان فاختصت بكامل الإحسان أن أصبحت أم السيد المسيح (ع) ، ثم وعلى حدّ المروي عن الرسول ﷺ سوف تكون من أزواجه ﷺ في الجنة [١].

ثم وماذا حملت ؟ فطالما الآية الاخرى « .. فنفخنا فيها من روحنا » أجملت عن مدخل الحمل ، فآيتنا « فنفخنا فيه من روحنا » تصريحة ان مدخله الفرج لمكان ذكورة الضمير « ه » فالمرجع إذاً « فرجها » لا هي نفسها ، ولا جيبها ، رغم ما حاوله جمع، فانه كلام فارغ، لأنها أحصنت فرجها ، لا جيبها ، والروح نفخت في فرجها ، لا فرج جيبها !

فمن كون الآلة التناسلية النسائية هي المنفخ المدخل هنا لروحٍ من الله نتعرف الى كيان هذه الروح وهذا اللقاح ، أن ناب لقاحَ الرجل دون رجلٍ ، فلم يكن

---

(١) الدر المنثور ٦ : ٢٤٩ – أخرج الطبراني عن سعد بن جنـــادة قال قال رسول الله (ص) : إن الله زوجني في الجنة مريم بنت عمران وامرأة فرعون وأخت موسى .

أقول : وهذا لا يناقي بقاء بعض أزواجه مثل خديجة في زواجه (ص) إذ لا تحتاج الى زواج جديد .

تذكير لنا أن القنوت في الرجل يتغلب على ما في النساء عِدةً وعُدةً ، فكان من الأفضل أن تعد في قنوتها من عداد الرجال ، رجولة في قنوطها وبطولة في تصديقها .

* * *

تمّ الجزء الثامن والعشرون بحمد الله ومَنّه ، ونسأله التوفيق لمواصلة بقية الأجزاء ، وما توفيقي إلا بالله عليه توكلت وإليه أنيب .

مكة المكرمة — ١٣٩٧ هـ - ١٩٧٧ م

محمد الصادقي

مرکز تحقیقات کامپیوتری علوم اسلامی

الفهرس

الموضوع	الصفحة
رسالة صاحب تفسير الميزان العلامة الطباطبائي – مقدمة المؤلف .	٥ – ٨
سورة الرحمن: كيف يتوسط خلق الإنسان بين تعليمه القرآن والبيان.	٩ – ١٤
حسبان الشمس والقمر – سجود النجم والشجر – رفع السماء ووضع الميزان .	١٤ – ٢٠
كيف اختص وضع الأرض بالأنام ؟ كيف خلق الإنسان من صلصال والجان من نار .	٢٠ – ٢٥
مرج البحرين وبرزخ بينهما .. خروج اللؤلؤ والمرجان منهما .	٢٦ – ٣٣
معنى فناء كل من عليها وبقاء وجه الرب – ما هو سؤاله تعالى وشأنه كل يوم .	٣٣ – ٤٠
ما هو النفوذ المستطاع من اقطار الكون ؟ كيف لا يسأل عن ذنبه انس ولا جان ؟	٤٤ – ٤٧
ما هو مقام الرب ؟ وما هما الجنتان لمن خافه .	٤٨ – ٤٩
سورة الواقعة : ما هي كاذبة لوقعة الواقعة؟ وما هي خافضة رافعة؟	٥٨ – ٦٢
الأزواج الثلاث .. السابقون السابقون : ثلة من الأولين وقليل من الآخرين .	٦٣ – ٦٨

سورة المجادلة : ما هي المظاهرة من النساء ؟ ١٨٧ — ١٩١
كيف يجمع بين الحصر في « ان امهاتهم إلا اللائي ولدنهم »
وبين « امهاتكم اللائي ارضعنكم » ؟ ١٩١ — ١٩٣
ما هو العود لما قالوا في المظاهرة وكفارتها ؟ ١٩٣ — ١٩٨
ما معنى كون الله رابعاً للمتناجين الثلاث او سادساً للخمس ؟ ١٩٩ — ٢٠١
النجوى المحرمة والمحللة — التفسح في المجالس . ٢٠١ — ٢٠٨
آية صدقة النجوى ، الخاصة بعلي عليه السلام . ٢١٠ — ٢١٥
حدود الموادة المحرمة والمحللة . ٢٢١ — ٢٢٥

سورة الحشر : اخراج كفار الكتابين لأول الحشر — الفيء
واحكامه دَولة الحال ودُولة المال — تبوّءُ الدار والإيمان . ٢٢٧ — ٢٤٨
خُشوع الجبل لو نزل عليه القرآن — اسماء إلهية في آخر الحشر . ٢٥٨ — ٢٦٦

سورة الممتحنة : تنديد شديد بمن يلقون إلى الكفار بالمودة ٢٦٩ — ٢٧٣
اسوة حسنة في ابراهيم إلا في استغفاره لأبيه . ٢٧٣ — ٢٧٨
امتحان المؤمنات المهاجرات — حرمة نكاح المشركات دون
الكتابيات . ٢٨٢ — ٢٩٢
شروط مبايعة المهاجرات . ٢٩٢ — ٢٩٥

سورة الصف : حرمة القول بدون عمل — مقاتلة صفاً كبنيان
مرصوص . ٢٩٨ — ٣٠٤
بشارة إنجيلية بحق الرسول (احمد) اظهار الرسول على الدين
كله — معنى انصار الله . ٣٠٤ — ٣٢١

سورة الجمعة : فضل الجمعة — من هم الاميون ؟ بشارات توراتية
محمدية . ٣٢٣ — ٣٣٥

جدول الخطأ والصواب

الصفحة	السطر	الخطأ	الصواب
٢٤	٨	سبحة	سبعة
٢٥	١٥	تتبعه	يتبعه
٢٧	١٠	ماء البحار	مياه البحار
٤٨	١٩	مِن	مَن
٦٠	٤	رافضة	رافعة
٦٤	٤	فنا	فيمينا
٦٩	١١	ينخرفون	ينزفون
٧٨	٢١	مترفيهم	مترفيها
٨٠	١١	ثوبا	شوبا
٨٠	١٤	حشنا	خشنا
٨١	٨	لأ ملأ	لا ملأ
٨٢	١٠	منشكم	تنشكم
٨٩	٩	الخاطبين	المخاطبين
١٠٠	٥	بالملأ	بالملإ
١٠٢	٨	بعد	بعده
١٠٥	٢٢	فلا يخبر	فلما يخبر

مرکز تحقیقات کامپیوتری علوم اسلامی

AL FORQAN

FI

TAFSEER AL-KORA'AN

BY

Dr. MOHAMMAD AL-SADEQI

PUBLISHED BY

Al Alami Library

BEIRUT - LEBANON
P.O.BOX. 7120